المحاضرات الثمينة

فيما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

وفضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين

اعتنى بها

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود

مكتبة دار طبرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

مكتبة طبرية - الرياض - النسيم - أول شارع الأربعين التجارى بجوار بنده

ت : ٢٣٢١٠٤٥ - ص.ب ٩١٦٦٧ لصاحبها/ على صنهات الحربي

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

* المملكة العربية السعودية: مؤسسة الجريسي.
* الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دبي للتوزيع.
* قطر: مكتبة ابن القيم ـ ت ٨٦٣٥٣٣.
* باقي الدول: دار ابن حزم ـ بيروت ـ ت ٨٣١٣٣١.

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شُرور أَنفسنا وسيِّئات أعمالنا . من يهده الله فلا مُضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هَادى لَهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، وأشهد أنَّ محمدا عبده وَرَسُوله وبعد :

قال تعالى ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكْمَة والموعظة الحَسَنَة ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : « فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِى اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم » [(١)] .

وقد قام نبينا ﷺ بهذه المُهمَّة خير قيام مُبَلغًا عن الله تعالى ، وعلى الدَّرب سار الأصحاب الكرام ومن تبعهم بإحْسَان إلى يوم الدين ، مُسْتَخدمين فى ذَلك كافة الوسائل الشَّرعية فى تبليغ الإسلام إلى النَّاس .

فكان تبليغهم بالقول والعمل وبالسيرة الحسنة للدَّاعى التى تجعله قدوة حسنة لغيره فينجذب إلى الإسلام .

والقول: هو الأصل فى تبليغ الدَّعوة إلى الله وهو الوسيلة الأصيلة فى إيصال الحق للنَّاس ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُول إلا البَلاَغُ المُبين ﴾ [النور: ٥٤]

والقول فى مجال التَّبليغ أنواع منها : الخطبة ، والدَّرس ، والمحاضرة والمناقشة والتَّحديث أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر والكتابة [(٢)] .....الخ

ولما كانت المحاضرة الهادفة إحدى وسائل التبليغ القولى المؤثرة والمقنعة للناس فى عصرنا هذا؛ فقد رأيت أن أقدم لإخوانى بعض من هذه

---

(١) رواه البخارى (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) (٣٤) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه. النَّعَم : الإبل ، والحُمر منها أنفس أموال العرب .

(٢) راجع : أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ص (٤٧٠ : ٤٧٨) .

المحاضرات النافعة لينتفعوا بها وهى لعالمين فاضلين هما: سماحة الشيخ ابن باز وفضيلة الشيخ ابن عثيمين وزيادة فى الفائدة ختمت هذه المحاضرات بمحاضرة كبيرة الفائدة للعلامة القرآنى محمد الأمين الشنقيطى صاحب «أضواء البيان». كانت قد نشرتها دار الحديث الخيرية فى رسالة.

● والناظر فى هذه المحاضرات يجد أنها تمتاز بما يلى:

١ـ أنها تهدف إلى معالجة قضايا هامة فى حياة المسلم يدور أكثرها حول موضوع العقيدة الصحيحة وتنقيتها مما علق بها من شوائب .

٢ - كثرة ما تحويه من الأدلة المتكاثرة من كتاب الله وسنة النبى ﷺ .

٣ - أننا نلمس فى هذه المحاضرات القيمة تحريكاً عاطفياً وجدانياً يستثير ما فى النفوس من معانى الإيمان بما تذكره وتركز عليه من حقائق الإسلام.

فجاءت هذه المحاضرات النافعة بإذن الله هادفة ومؤثرة ومقنعة.

● توثيق نسبة المحاضرات :

١ - أما سماحة الشيخ ابن باز : فقد انتقينا له «تسع» محاضرات من مجموعه النافع المُسَمَّى « مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» جمع وإشراف: محمد بن سعد الشويعر ١/ ٥ مجلدات .

٢ - وأمَّا فضيلة الشيخ ابن عثيمين : فقد انتقينا له «ستّ» محاضرات من رسائله وفتاويه المطبوعة هنا وهناك .

● هذا وقد قمنا بترتيب المحاضرات وتنسيقها وتخريج آياتها ، وضبط ما يشكل من ألفاظ وعبارات ، كما ترجمنا للمحاضرين سائلين المولى جلَّ وعلا أن ينفع بها من طالعها وقرأها ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

الإسماعيلية فى ٣٠ /محرم/ ١٤١٥ هـ

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود

العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى فى سطور(*)

* هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدى أحمد بن المختار الجكني الشنقيطي.

* ولد رحمه الله في عام ١٣٠٥هـ وكان مسقط رأسه عند ماء يسمى «تَنْبه» من أعمال مديرية «كيفا» من القطر المسمىٰ بشنقيط وهو دولة «موريتانيا الإسلامية» الآن.

* نشأ رحمه الله فى جو ملائم لطلب العلم، حيث حفظ القرآن فى بيت أخواله وعمره عشر سنوات، ودرس علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ، ودرس الفقه المالكى وهو المذهب السائد فى البلاد على المشايخ الجكنيين وغير ذلك من الفنون المختلفة.

* كانت أعماله فى بلاده كأمثاله من العلماء: الدرس والفتيا وكان شديد التحرى فى القضاء لا سيما فى الحدود والدماء.

* خرج من بلاده لاداء فريضة الحج وعلى نية العودة وكان سفره براً، وبعد وصوله إلى هذه البلاد تجددت له نية البقاء، وبأمر من الملك عبد العزيز جلس لتفسير كتاب الله فى مسجد رسول الله ﷺ، كما تولى تدريس التفسير والأصول بكليتي الشريعة واللغة بالرياض ثم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

* له مؤلفات عظيمة تدل على رسوخه فى العلم منها: أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ومذكرة الأصول على روضة الناظر ... وغير ذلك.

* توفى ضحى يوم الخميس ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ وكانت وفاته بمكة المكرمة بعد مرجعه من الحج ودفن بمقبرة المعلاة.

رحمه الله ونفعنا بعلمه.



(*) راجع : مقدمة «أضواء البيان»، و«هؤلاء عرفتهم» لمحمد المجذوب.

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز فى سطور(*)

* هو عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز.

* ولد بمدينة الرياض فى ذى الحجة سنة ١٣٣٠ هـ . وكان بصيراً فى أول الدراسة ثم أصابه المرض فى عينه عام ١٣٤٦ هـ وضعف بصره بسبب ذلك ثم ذهب بالكلية فى مستهل محرم ١٣٥٠ هـ .

* بدأ الدراسة منذ الصغر وحفظ القرآن قبل البلوغ ثم بدأ فى تلقى العلوم الشرعية والعربية على أيدى كثير من علماء الرياض ومن أشهرهم : سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ يقول الشيخ عنه: «لازمت حلقاته نحو من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداء من سنة ١٣٤٧ هـ إلى سنة ١٣٥٧ هـ .

* يقول الشيخ ابن باز عن نفسه : مذهبى فى الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وليس على سبيل التقليد ولكن على سبيل الاتباع فى الأصول التى سارعليها ، أما فى مسائل الخلاف فمنهجى فيها هو ترجيح ما يقتضى الدليل ترجيحه ، والفتوى بذلك سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه ، لأن الحق أحق بالاتباع .

* تولى أعمال عديدة ومناصب بارزة آخرها مفتى المملكة العربية السعودية وله عضوية فى كثير من المجالس العلمية والإسلامية .

* له مؤلفات متنوعة منها : الفوائد الجلية فى المباحث الفرضية ، والتحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة ، ونقد القومية العربية .

كما له عدد وفير من الفتاوى المتنوعة والتى طبعت فى مجلدات ورسائل مراراً .

❁ ❁ ❁

(*) راجع : مقدمة كتابه : « فتاوى ومقالات متنوعة » جـ ١ ، مجلة المسلمون عدد ٢٢ سنة ١٤٠٢ هـ ومقدمة كتاب الفتاوى جـ ١ مجلة الدعوة .

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين فى سطور(*)

* هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبى التميمى .

* ولد فى مدينة عنيزة فى ٢٧ رمضان المبارك عام ١٣٤٧ هـ .

* تتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى الذى يعتبر شيخه الأول حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف ، وقرأ على سماحة الشيخ ابن باز حيث يعتبر شيخه الثانى فابتدأ عليه قراءة صحيح البخارى وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية .

* لما توفى الشيخ عبد الرحمن السعدى تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة خلفاً له . ويعمل أيضاً بالتدريس فى كليتى الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محد بن سعود الإسلامية بالقصيم حتى الآن بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالسعودية .

* له عدد كبير من المؤلفات القيمة المتنوعة وعلى سبيل المثال :

ففى العقيدة : شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة والقواعد المثلى فى صفات الله واسمائه الحسنى ...

وفى الفقة وأصوله : الأصول من علم الأصول ، الدماء الطبيعية للنساء ..

والتفسير وأصوله : أصول فى التفسير ، وتفسير آية الكرسى ...

وفى الوعظ والإرشاد والدعوة : الضياء اللامع فى الخطب الجوامع ١/ ٢، مجالس شهر رمضان ... وغير ذلك من المؤلفات النافعة ..

* له عدد كبير من الأشرطة والتسجيلات لكثير من الدُّروس النافعة لكثير من الكتب مثل شرح زاد المستقنع وشرح بلوغ المرام وشرح صحيح البخارى..

❁ ❁ ❁

(*) راجع : علماؤنا إعداد فهد البراك وفهد البردانى .

عناوين المحاضرات

رقم المحاضرة	موضوع المحاضرة	المُحَاضر
الأولى	فضل العلم وأخلاق أهله	ابن باز
الثانية	أنواع التَّوحيد والشرك	ابن باز
الثالثة	أسماء الله وصفاته وموقف أهل السُّنة منها	ابن عثيمين
الرابعة	مِنهاج أهل السُّنه والجماعة فى العقيدة والعمل	ابن عثيمين
الخامسة	القضاء والقدر	ابن عثيمين
السادسة	وجوب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة والتَّحذير مما يخالفهما	ابن باز
السابعة	الإبداعُ فى كمال الشَّرع وخطر الإبتداع	ابن عثيمين
الثامنة	زاد الدَّاعية إلى الله عز وجل	ابن عثيمين
التاسعة	وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	ابن باز
العاشرة	الخلافُ بين العلماء أسبابه.. وموقفنا منه	ابن عثيمين
الحادية عشرة	شُكْر النعمة حقيقته .. علاماته	ابن باز
الثانية عشرة	ضَعْف المسلمين أمام عدوهم أسبابه.. وسائل العلاج	ابن باز
الثالثة عشرة	مَسَائل مهمة قد يخفى حكمها على كثير من الناس	ابن باز
الرابعة عشرة	الشريعة الإسلامية محاسنها وضرورة البشر إليها	ابن باز
الخامسة عشرة	ليس الجهاد للدفاع فقط	ابن باز
السادسة عشرة	الإسلام دين كامل	الشنقيطي

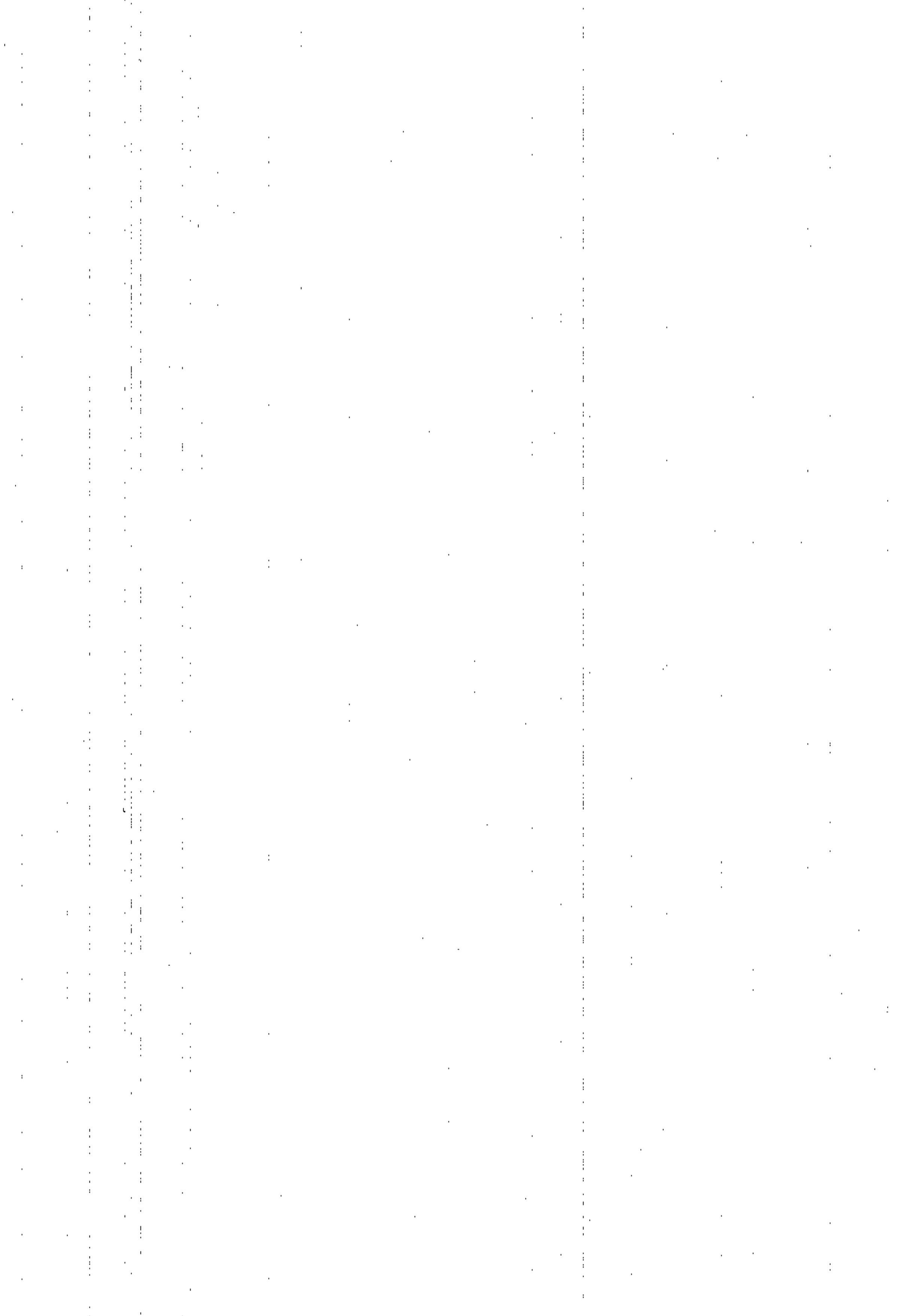
المحاضرة الأولى:

فضل العلم وأخلاق أهله

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فى ٢٦/٣/١٤٠٤ هـ



فضل العلم وأخلاق أهله

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه نبينا وإمامنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله إلى يوم الدين .. أما بعد :

فلقد سمعنا من قارئنا آيات مباركات فيها العظة والذكرى ، وبيان أن الله عز وجل يَخلق ما يشاء ويختار ، وأنه العَالم بأحوال العباد وما تُكنُّه صدورهم وما يعلنون وأنه المحمود جل وعلا فى الأولى والأخرى سبحانه وتعالى ، وأن المرجع إليه والمصير إليه ، وأنه المتفضل بالليل والنَّهار فى مَصَالح العباد . وأن ذلك من رحمته عز وجل .

فما أَوْلانا بتدبر كتابه الكريم ! تَدَبُّر من يُريد العلم ، ومن هو مُؤمن بهذا الكتاب العظيم ، وأنَّه كلام الله حقا ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود.

ما أولى أهل العلم بأن يتدبروا هذا الكتاب العظيم ، وأن يَعنوا به غاية العناية، قاصدين معرفة مراد ربهم عز وجل ، والعمل بذلك .

عملاً بقوله عز وجل : ﴿ كتاب أنزَلناه إِلَيْكَ مبارك ليدبروا آياته وَلِيَتَذَكَّر أُولُوا الألباب ﴾ [ص: ٢٩] . وبقوله سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرءَانَ أَم عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] مستشعرين قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ هَذَا القُرءَانَ يَهدِى لِلَّتِى هِىَ أَقوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿ قُل هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤].

فوصيتى قبل كلمتى : العناية بهذا الكتاب العظيم ، تدبراً وتعقلاً ، وإكثاراً من تلاوته ، وعملاً بالمعنى . فهو أنزل ليعمل به ، لا لمجرد التلاوة . فأسأل الله للجميع التوفيق .

أما كلمتى هذه الليلة ، فأرجوا أن تكون موجزة ، وهى كما قال المقدم :

(*) نشرت ضمن « مجموع فتاوى ومقالات » لابن باز (٢/ ٣٠١: ٣١٥) .

العلم وأخلاق أهله

● **العلم** معلوم لدى الجميع فضله ، وأن أشرف شيء يطلبه الطالبون ويسعى فى تحصيله الراغبون هو العلم الشرعى ، فإن العلم يُطلق على أشياء كثيرة ، ولكن عند علماء الإسلام المراد بالعلم هو : العلم الشَّرعى، وهو المراد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند الإطلاق ، وهو العلم بالله وبأسمائه وصِفاته والعلم بحَقه على عباده ، وبما شَرَعه لهم سبحانه وتعالى .

● **والعلم** بالطَّريق والصراط المُوَصل إليه ، وتفاصيله والعلم بالغاية والنَّهاية التى ينتهى إليها العباد فى الدَّار الأخرى .

● **هذا العلم الشَّرعى** هو أفضل العلوم وهو الجدير بالطَّلب والحرص على تحصيله ، لأنَّه به يُعرف الله سبحانه وتعالى وبه يُعْبد . وبهذا العلم يُعرف مَا أحلَّ الله وما حَرَّم وما يرضيه وما يسخطه . وبهذا العلم يعرف المصير إليه والنهاية من هذه الحياة ، وأن قسماً من هؤلاء المكلفين ينتهون إلى الجنة والسّعادة ، وأن الآخرين وهم الأكثرون ينتهون إلى دار الهوان والشَّقاء .

وقد نبَّه أهل العلم على هذا وبينوا أن العلم ينحصر فى هذا المعنى ، وممن نبَّه عليه القاضى ابن أبى العز شارح الطحاوية فى أول شرحه ، ونبَّه عليه غيره كابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة آخرين .

وهو واضح ويتفاوت فى الفضل بحسب متعلقاته ، فأفضله وأعظمه وأشرفه ما يتعلَّق بالله وأسمائه وصفاته ، وهو علم العقيدة فإن الله جل

وعلا له المثل الأعلى سبحانه وتعالى ، وهو الوصف الأعلى من جميع الوجوه فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

ثم يلى ذلك ما يتعلق بحقه على عباده ، وما شرعه من الأحكام ، وما ينتهى إليه العاملون ثم ما يتبع ذلك مما يعين عليه ، ويُوصل إليه من علم قواعد العربية ، والمصطلحات الإسلامية فى أصول الفقه ، ومصطلح الحديث ، وفى غير ذلك مما يتعلق بذلك العلم ويعين عليه ، وعلى فهمه ، والكمال فيه .

ويلتحق بذلك علم السيره النبوية ، والتاريخ الإسلامى ، وتراجم رجال الحديث وأئمة الإسلام ، ويلتحق بذلك كل ما له صلة بهذا العلم.

● وقد **شرَّف الله أهل هذا العلم**، ونوَّه بهم وعَظَّم شأنهم سبحانه ، واستشهدهم على توحيده ، والإخلاص له حيث قال عز وجل : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ والملائكة وأُولُوا العِلْمِ قائما بِالقِسطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨] فاستشهد أهل العلم ، على وحدانيته مع الملائكة، فالملائكة عليهم السلام ، وأولو العلم الشّرعى هم الشهداء على توحيد الله والإخلاص له ، وأنَّه رب العالمين ، وأنَّه الإله الحق ، وأن العبادة لغيره باطلة ، وكفى بها شرفاً لأهل العلم ، حيث استشهدهم على وحدانيته واستحقاقه فى العبادة سبحانه وتعالى ، وبين جل وعلا أنهم لا يستوون مع غيرهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل هَل يَستَوِى الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألبَاب﴾[الزمر: ٩] ويقول عز وجل: ﴿أَفَمَن يَعلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الألباب﴾ [الرعد: ١٩].

فلا يستوى هـؤلاء وهؤلاء ، لا يستوى من يعلم أن مـا أنزل الله هو الحق وهو الهدى ، وهـو طريق السعادة ، مع الذيـن قد عَمُوا عن هذا الطريق ، وعن هـذا العلم ، فَرْقٌ عظيم بين هـؤلاء وهؤلاء ، فرق بين من عرف الحق ، واستضاء بنوره وسـار على هداه إلى أن لقى ربه وفاز بالكرامة والسعادة ، وبين من عمـى عن هذا الطريق ، واتبع هواه وسار فى طريق الشيطان والهوى .

لا يستوى هؤلاء وهؤلاء ، وقد بيَّن الله سبحانه أنه يرفع درجات أهل العلم وما ذلك إلا لعظيم آثارهم فى الناس ، ونفعهم لهم . ولهذا قال أهل الـعلم : «مَا أَحْسَـن أَثَرهم عـلى النـاس ، وما أقبـح آثار الـناس عليهم» .

فآثارهم بتوجيه النَّاس إلى الخيـر ، وإرشادهم إلى الحق ، وتوصيلهم للهـدى ، وهى آثار عظيمـة شكرها اللـه لهم ، وشكرها المـؤمنون ، وعلى رأسهم الرسل عليهم الـصلاة والسلام : فهم الهداة والدُّعاة وهم أعلم الناس بالله وبشريعته ، وأفضـل الناس بعد الرُّسل وأتبعهم لهم ، وأعلمـهم بما جاؤا به ، وأكـملهم دعوة إلـيه ، وصبراً علـيه ، وإرشاداً إليه .

قـال جل وعـلا : ﴿ يَرفَعِ اللـهُ الذيـنَ ءَامَنُوا مِنكُم وَالَّذِيـنَ أُوتُوا العِلْـمَ درجات﴾ [المجادلة:١١] وقال سـبحانه وتـعالى : ﴿ وَتِلْـكَ حُجَّتُنا آتينـاها إبراهيم عَلَى قَومِهِ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام:٨٣] وبيَّن عز وجل أن

أهل العلم هم الذين يخشونه على الحقيقة والكمال ، وإن كانت الخشية موجودة من المؤمنين عموماً ، ومن بعض الآخرين ، ولكن خشية الله على الكمال والحقيقة للعلماء ، وعلى رأسهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّمَا يَخشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] يعنى الخشية الكاملة.

● **والعلماء** هم العارفون بالله وبأسمائه وبصفاته، وبشريعته التى بعث بها رسله ، ولهذا قال نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لما قال له بعض الناس مستثقلاً العلم الذى أرشده إليه : « لسنا مثلك يا رسول الله! قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : « أَمَا والله إنى لأخشاكم للهِ ، وأَتْقَاكم له».

● **فالعلماء بالله وبدينه** وبأسمائه وصفاته هم أخشى الناس لله ، وأَقوى النَّاس فى الحق على حسب علمهم به ، وعلى حسب درجاتهم فى ذلك، وأعلاهم فى هذا وأكملهم فيه هم الرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، فهم أخشى النَّاس لله ، وأتقاهم له ، وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى بيان فضل العلم ، وتكاثرت فى ذلك .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمس فيه علمًا سَهَّل الله لَهُ به طَرِيقًا إلى الجنة»، خرَّجه مسلم فى صحيحه رحمه الله . فهذا يدلنا على أنَّ طلاب العلم على خير عظيم ، وأنهم على طريق نجاة وسعادة لمن أصلح الله نيته فى طلب العلم وابتغى به وجه الله عز وجل.

● **وقصد العلم لنفس العلم**، وللعمل لا لأجل الرياء والسُّمعة ، أو لأجل مقاصد أخرى ، من المقاصد العاجـلة ، وإنما يتعلَّمه لمعرفة دينه ، والبصيرة بما أوجب الـله عليه ، وليسعى فى إخراج النـاس من الظلمات إلى النور فيعلم ويعمل ويعلم غيره ، من المقاصد الحسنة التى أمر المسلم بها ، فكل طريق يَسْلُكه فى طلب العلم فهو طريق إلى الجنة ويعم ذلك جميع الطرق الحسية والمعنوية : فسفره من بلاد إلى بلاد أخرى ، وانتقاله من حلقة إلى حلقة ومن مسجد إلى مسجد ، بقصد طلب العلم ، فهذا كله من الطرق لتحصيل العلم . وهكذا المذاكرة فى كتب العلم والمطالعة والكتابة ، كلها من الطرق أيضاً.

● **فجديرٌ بالطَّالب** أن يعنى بجميع الطـرق الموصلة إلى العلم ، وأن يحرص عليها قاصداً وجه ربه عز وجل ، يُريد الله والدَّار الآخرة، يريد أن يتفقَّه فى دينه وأن يتبصَّر به ، يريـد أن يعرف ما أوجب الله عليه، وما حرم عليه ، يريد أن يعرف ربه على بصيرة وبيّنة، ثم يعمل بذلك ، يريد أن ينقذ الناس ، ويكون من دعـاة الهدى ، وأنصار الحق ، ومُرشداً إلى الله على عـلم وهدى ، فهو حيثما تـصرف على خير عظيـم بهذه النيّة الصَّالحة ، حتى نومه من طرق الجنة ، إذا نام ليتقوى على طلب العلم، وأداء الدَّرس كما ينبغى ليتقوى على حفظ كتاب فى العلم، ليتقوى على السَّفر فى طلب العلم ، فنومه عبادة ، وسَفره عبادة، وتصرفاته الأخرى بهذه النية عبادة ، بخلاف من ساءت نيته ، فهو على خطر عظيم ، جاء فى الحديث عنـه ﷺ أنه قال : « من تَعَلَّم علمًا مما يبتغـى به وَجه الله، لا يتعـلَّمه إِلا لِيُصِيب به عَرَضـاً من الدُّنيـا لم يجد عَرْفَ الجـنـة » رواه

أبـو داود رحمه الله بإسناد جيد.

وهذا وعيد عظيـم لمن ساءت نيته . وروى عنه عليـه الصلاة والسلام أنه قال : « من تَعَلَّم العلم لِيُبَاهى به الـعلماء أو لِيُمارى به السُّفهاء، أو لِيَصْرِف به وجُوه النَّاس إليه فالنَّار النَّار ».

● **وتَعَلُّم العلم يكون بمعرفته** والعمل به للـه ؛ لأنَّ الله أمر بذلك ، وجعله وسيلة لمعرفة الحق .

وجاء فى الحديـث الصَّحيح : « أن أوَّل من تُسَعَّر بِهم الـنَّار ثلاثة : منهم الذى طلب العلم وقرأ القرآن لغير الله ، ليقال : هو عَالم وليقال له : قارئ » ولا حول ولا قوة إلا بالله.

● **فعليك يا عبد الله** ، أيُّها الطَّالب للعلم : عليك بإخلاص العبادة والنية لله وحده ، وعليك بالجد والـنَّشاط فى سلوك طرق العلم والصبر عليهـا ، ثم العمل بمقـتضى العلم ، فـإن المقصود هو العـمل ، وليس المقصـود هو أن تكون عـالماً ، أو تُعْطَى شَهادة راقيـة فى العلـم ، فإنَّ المقصود من وراء ذلك كله هو أن تعمـل بعلمك ، وأن توجه الناس إلى الخيـر ، وأن تكون مـن خلفـاء الرسل علـيهم الـصلاة والسـلام ، فى الدعوة إلى الحق ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح: «مَن يُرِد الله به خيراً يُفَقهه فى الدين» متفق على صحته.

فهذا يدل عـلى فضل العلـم وأن من علامات الخير والـسعادة ، ومن علامات الـتَّوفيق ، وأن اللـه أراد بالعبد خـيراً أن يُفَقهه فـى دينه ، وأن يتبصَّر فى ذلك ، حتى يعرف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ،

وحتى يعرف ربه بأسمائه وصفاته ، وعظيم حقه ، وحتى يعرف النهاية لأولياء الله ولأعدائه .

فالنَّهاية لأولياء الله الجنة والسعادة بجوار الرَّب الكريم ، والنَّظر إلى وجهه سبحانه وتعالى ، في دار الكرامة .

والنهاية لأعداء الله دار النكال والعذاب والهوان ، والحجاب عن الله عز وجل .

وبهذا نعلم عِظَم العلم وشَرَفه ، وأنَّه أفضل شيء وأشرفه لمن أصلح الله نيته ، لأنه يتوصل به إلى معرفة أفضل واجب ، وأعظم واجب ، وهو توحيد الله والإخلاص له ويتوصل به أيضاً إلى معرفة أحكام الله ، وما أوجب على عباده ، فهو واجب عظيم يوصل إلى أداء واجبات عظيمة ، لا سعادة للعبد ، ولا نجاة له ، إلا بالله ثم بالعلم بها ، والتمسك بها والاستقامة عليها .

● **والعلماء** الذين أظهروا العلم هم خيرة النَّاس ، وأفضلهم على وجه الأرض ، وعلى رأسهم أئمتهم الرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، والأنبياء فهم القدوة وهم الأساس فى الدعوة والعلم والفضل ، ويليهم أهل العمل على طبقات : فكل من كان أعلم بالله وبأسمائه ، وصفاته وأكمل فى العمل والدعوة كان أقرب الناس من الرُّسل ، ومن درجاتهم ومنازلهم فى الجنة : فأهل العلم هم أئمة هذه الأرض ونورها وسرجها، وهم أولى بها من غيرهم ، يرشدون الناس إلى طريق السَّعادة، ويهدونهم إلى أسباب النجاة ، ويقودونهم إلى ما فيه رضى الله جل

وعلا، والوصول إلى كرامته والبعد عن أسباب غضبه وعذابه .

● **فالعلماء هـم ورثة الأنبياء** ، وهم أئمة النَّاس بعـد الأنبياء يهدون إلى الله، ويرشدون إليـه ، ويعلمون الناس دينهم . فأخلاقـهم عظيمة، وصفاتهم حميدة ، علماء الحق ، علماء الهدى ، خلفاء الرُّسل، الذين يخشون الله ويراقبونه ويعظمون أمره ، وهو من تعظيمه سبحانه. هؤلاء أخلاقهم أَرْفَعُ الأخلاق وأسماها ؛ لأنهم سلكوا مَسْلك الرُّسل، وساروا على نهجـهم وطريقهم فى الدعوة إلـى الله على بصيرة، والـتحذير من أسباب غضبـه والمُسَارعة إلى ما عرفوا من الخير قولا وعـملا، والابتعاد عما عرفوا من الشر قولاً وعملاً ، فـهم القدوة ، والأسوة بعد الأنبياء، فى أخلاقهم العظـيمة ، وصفاتهم الحميدة ، وأعمالـهم الجليلة ، وهم يعملون ويعلمون ، ويوجهون طلابهم إلى أسمى الأخلاق وخير السبل.

● وسبق أنَّ **العلم قال الله قال رسوله**، هذا هو العلم الشَّرعى، هو العـلم بكـتاب الـله وسنـة رسول اللـه ﷺ ، وما يـعين علـى ذلك . فالواجب عـلى أهل العلم ، أن يتـمسَّكوا بهذا الأساس الـعظيم ، وأن يَدْعوا النـاس إليه وأن يُوجهـوا طلابهم إليـه ، وأن يكون الهـدف دائماً العلـم بما قال الله ، وقـال رَسوله ، والعمـل بذلك ، وتوجيـه الناس وإرشادهـم إلى ذلك . ولا يجـوز التفـرق والاختلاف ولا الدعـوة إلى حزب فلان وحـزب فلان ، ورأى فلان ، وقول علان . وإنمـا الواجب أن تكون الدَّعوة واحدة إلى الله ورسولـه ، إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، لا إلـى مذهب فلان ، أو دعوة علان ، ولا إلى الحزب الـفلانى ، والـرأى الفلانـى . يجب عـلى المسـلمين أن تـكون

طريقتهم واحـدة ، وهدفهم واحدا ، وهو اتباع كتاب الـله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

● **وأمَّا ما جرى مـن الاختلاف بين أهل الـعلم** في المذاهـب الأربعة وغيرها، فالواجب أن يؤخذ منه ما هو أقرب إلى الصَّواب، وهو القول الذى هو أقرب إلى ما قاله الله ورسوله نصاً أو بمقتضى قواعد الشريعة. فإن الأئمـة المجتهدون إنما هـدفهم ذلك ، وقبلـهم الصَّحابة رضـى الله عنهم وأرضاهم . وهم الأئمة بعد الرسول ﷺ ، فهم أعلم الناس بالله وأفضلهم وأكملهم علماً وخلقاً . فـقد كانوا يختلفون فى بعض المسائل، ولكن دعوتهم واحـدة ، وطريقهم واحد. يدعون إلى كتـاب الله وسنة الرسول عليه الـصلاة والسلام، وهكذا من بعدهم من الـتابعين، واتباع التابعين: كالإمام مـالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمـد وغيرهم من أئمة الهدى: كالأوزاعى والثورى وابن عُيينـة وإسحاق بن راهويه، وأشباههم من أهل العلم والإيمان، دعوتهم واحدة ، وهى الدعوة إلى كتاب الله، وسنة الـرسول ﷺ، وكانوا ينهـون أتباعهم عـن تقليدهم، ويـقولون: «خُذوا من حيث أَخَذنا» يعنون من الكتاب والسُّنة .

● **ومن جهل الحـق وجب عليه أن يسأل أهـل العلم** المعروفين بالعلم والفضـل ، وحُسن العقـيدة والسيـرة ، ويتبصـر فى ذلك ، مع تـقدير العلـماء ، ومعرفة فـضلهم ، والدُّعـاء لهم بمزيد مـن التوفيق وعـظيم الأجر، لأنهم سبقوا إلى الخير الـعظيم ، وعلموا وأرشدوا ، وأوضحوا الطريـق ، فرحمة اللـه عليهم ، فـلهم فضل الـسَّبق ، وفضل علـمهم ودعوتهم إلى الله : من الصَّحابة ومن بعدهم من أهل العلم والإيمان .

فيعرف لهم قدرهم وفضلهم ، ويترحم عليهم ويتأسى بهم فى النشاط فى العلم والدعوة إلى الله ، وتقديم ما قاله الله ورسوله على غيره ، والصَّبر على ذلك ، والمُسارعة إلى العمل الصَّالح : ويتأسى بهم فى هذه الفضائل العظيمة ، ويترحم عليهم ، ولكن لا يجوز أبداً أن يتعصَّب لواحد منهم مُطلقاً ، وأن يقال: قوله هو الصَّواب مطلقاً . بل يقال: كل واحد قد يخطىء ويصيب. والصَّواب فيما وافق ما قاله الله ورسوله ، وما دلَّ عليه شرع الله من طريق الكتاب والسنة. وإجماع أهل العلم ، فإذا اختلفوا وجب الرد إلى الله ورسوله .

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] وقال عز وجل : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠] هكذا قال أهل العلم قديماً وحديثاً .

● **ولا يجوز أبداً التعصب** لزيد أو عمرو ، ولا لرأى فلان أو علان، ولا لحزب فلان أو الطَّريقة الفلانية ، أو الجماعة الفلانية ، كل هذا من الأخطاء الجديدة ، التى وقع فيها كثير من الناس .

فيجب أن يكون المسلمون هدفهم واحد ، وهو اتباع كتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام فى جميع الأحوال فى الشدة والرخاء ، فى العسر واليسر ، فى السفر والإقامة ، وفى جميع الأحوال ، وعند اختلاف أهل العلم ينظر فى أقوالهم ، ويؤيد منها ما وافق الدليل من دون تعصب لأحد من الناس .

● **أما العامَّة وأشباه العامة ، فيسألون أهل العلم** ، ويتحرون فى أهل

العلم ، من هو أقرب إلى الخير وأقرب إلى السداد والاستقامة ، يسألونه عن شرع اللـه ، وهو يعلمهم بـذلك ويرشدهم إلى الحـق ، حسب ما جاء فى الكتاب والسنة ، وأجمع عليه أهل العلم .

● **والعالم يعرف بـصبره وتَقواه لله**، وخشيته له سبـحانه وتعالى، ومُسَارعته إلى ما أوجب الله ورسوله، وابتعاده عما حرَّم الله ورسوله.

هكذا يكون الـعالم سواء كان مُدرساً أو قاضياً أو داعـياً إلى الله. أو فى أى عمـل ، فواجبه أن يكون قـدوة فى الخير ، وأن يكـون أسوة فى الصالحـات ، يعمل بعلـمه ويتق اللـه أين ما كان ، ويرشد الـناس إلى الخير، حتى يكـون قدوة صالحة لطلابه ، ولأهل بيته ولجيـرانه ولغيرهم ممن عرفه ، يتأسون به : بأقواله وأعمـاله الموافقة لشرع الله عز وجل ، وعلى طالب العلم أن يحذر غاية الحـذر من التَّساهل فيما أوجب الله ، أو الوقوع فيما حرم الله ، فإنه يتأسى به فى ذلك ، فإذا تساهل تساهل غيره ، وهكذا فى السُّنة والمكروهات ، يـنبغى له أن يحرص على تحرى السنن ، وإن كـانت غير واجبة لـيعتادها وليـتأسى الناس به فـيها ، وأن يبتعد عن المكروهات والمشتبهات حتى لا يتأسى به الناس فيها .

فطالـب العلم له شـأن عظيم ، وأهل الـعلم هم الخلاصـة فى هذا الوجود ، فعليهـم من الواجبات والرعاية ما ليس علـى غيرهم ، يقول الرسول ﷺ «كُلُّكُم رَاعٍ وكُلُّكُم مَسْؤُول عن رَعِيّته» .

● **فأهل العـلم رُعاة وهُدَاة** ، فعليـهم أن يَعْنَوا برعيتهـم ، الشُّعوب رَعِيَّة لهم فـعليهـم أن يعنوا بهـذه الرعية ، وأن يخـافوا الله فـيها، وأن

يرشدوها إلى أسباب النجاة ، ويحذروها من أسباب الهلاك، وأن يغرسوا فيما بينهم حب الله ورسوله ، والاستقامة على دين الله . والشوق إلى الله وإلى جنته وكرامته ، والحذر من النَّار ، فالنار بئس المصير . يجب الحذر منها ، والتَّحذير منها ، وأولى الناس بهذا الأمر هم العلماء ، وطُلاب العلم ، هكذا يكون حالهم أبداً . وهكذا تكون أخلاقهم أبداً، مسارعة إلى مرضاة الله ، وابتعاد عن معاصي الله، ودعوة إلى الله ، وإرشاد إليه، ووقوف عند حدوده ، وأخذ بالأحوط دائماً ، وبُعْد عما حرَّم الله ، وعما كرهه الله ، حتى يتأسى بهم إخوانهم من المؤمنين ، وحتى يتأثر بهم المسلمون أينما كانوا . وأسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلى أن يوفقنا وإياكم إلى ما يرضيه ، وأن يُصلح قلوبنا وأعمالنا جميعاً ، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين ، وصالحين مُصلحين ، كما أسأله سبحانه أن يَنصر دِينه ، ويُعْلي كلمته ، ويُوفق ولاة أمر المسلمين لكل ما فيه رِضاه ، وصَلاح العباد والبلاد ، وأن يُصْلح لهم البطانة ، وأن يَمُنَّ عليهم بتحكيم شريعة الله بين عباده والتَّحاكم إليها ونبذ ما خالفها .

● **أما العلوم الأخرى فلها شأن آخر** من استخراج المعادن، وشئون الزراعة والفلاحة وسائر أنواع الصناعات النافعة، وقد يجب منها ما يحتاجه المسلمون ، ويكون فرض كفاية ، ولولي الأمر فيها أن يأمر بما يحتاجه المسلمون ، ويُساعد أهلها في ذلك ، أي بما يعينهم على نفع المسلمين ، والإعداد لعدوهم . وعلى حسب نية العبد تكون أعماله : عبادة لله عز وجل، متى صلحت النية، وخلصت لله ، وإذا فعلها بدون

نية كانت من المباحات : أعنى أنواع الصناعات المباحة ، واستخراج المعادن والزراعة والفلاحة وغير ذلك .

وكلها أمور مطلوبة ومع صلاح النية تكون عبادة ، ومع خلُوها من ذلك تكون أموراً مباحة ، وقد تكون فرض كفاية فى بعض الأحيان ، إذا دعت الحاجة إليها ، ووجب على ولى الأمر أن يُلْزِم بذلك من هو أَهْلٌ لها ، فهى أمور لها شأنها ، ولها أحوالها الداعية إليها ، وتختلف بحسب النية ، وبحسب الحاجة .

● **أما علم الشَّرع فلابد منه**، والله خلق الثَّقلين ليعبدوه ، وليتَّقوه ولا سبيل إلى هذا إلا بعلم الشرع ، علم الكتاب والسُّنة كما تقدم . وأنتم معشر الطَّلبة بحمد الله هنا فى الجامعة الإسلامية ، جئتم من أقطار كثيرة، ومن أجناس متنوعة للتفقه فى الدين ، وتعلم أحكام الله والتبصر فى ذلك ، ولمعرفة العقيدة السَّلفية الصَّحيحة التى سار عليها الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم وسار عليها أتباعهم بإحسان ، وهى الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان بأسماء الله وصفاته ، وإمرارها كما جاءت على الوجه الذى يليق بالله سبحانه وتعالى ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا زيادة ولا نقصان .

هكذا درج أهل العلم على الطَّريقة التى درج عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودرج عليها أصحابهم وأتباعهم بإحسان.

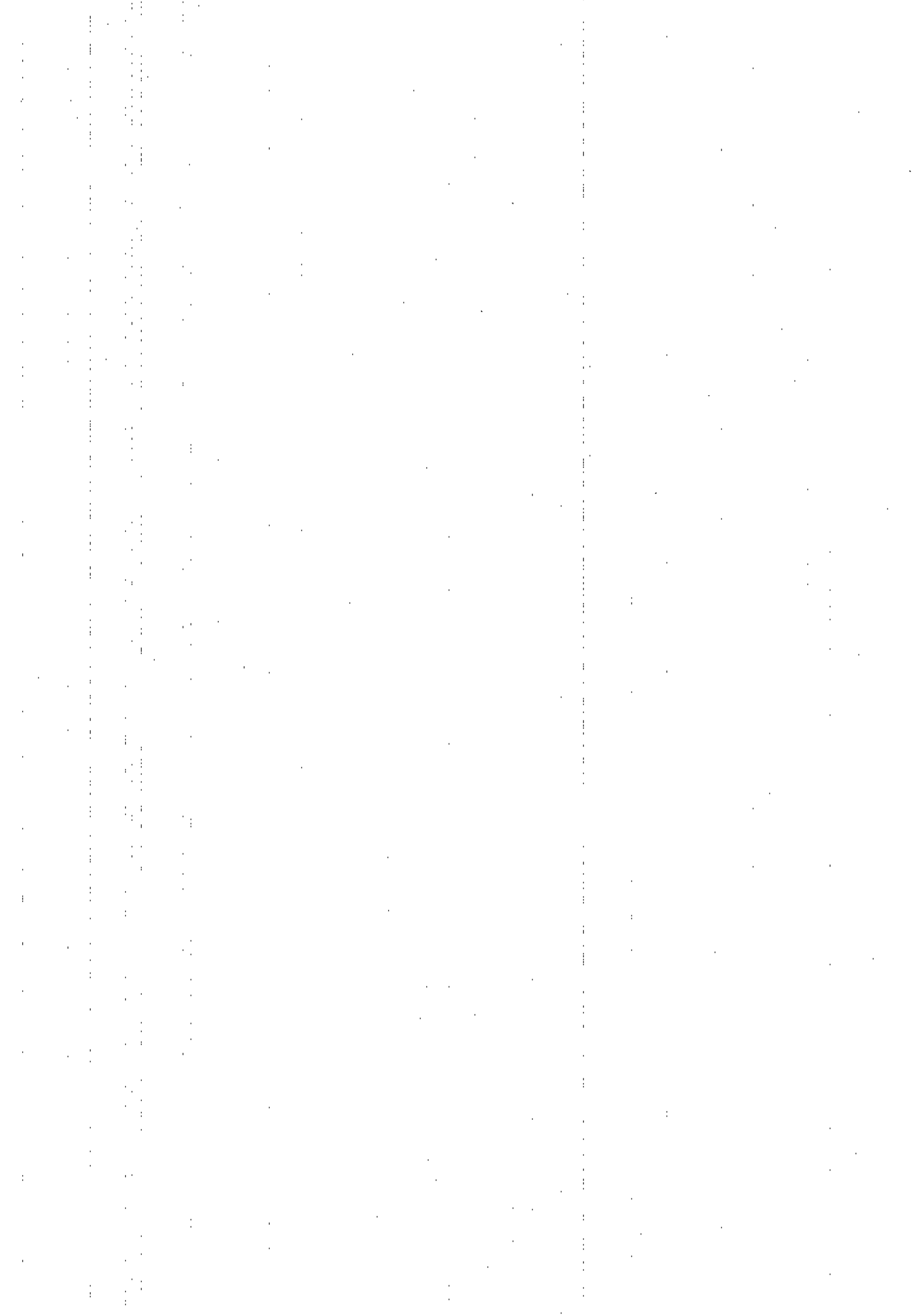
* * *

فنسأل الله أن يمنحكم التَّوفيق، وأن يعينكم على كل ما فيه رضاه،

وأن يردكم إلى بلادكم في غاية من التوفيق والتقوى والعلم والإيمان. وأن يهدي بكم العباد ، ويُصلح بكم الأحوال ، إنه جل وعلا على كل شيء قدير .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد عبد الله ورسوله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان .





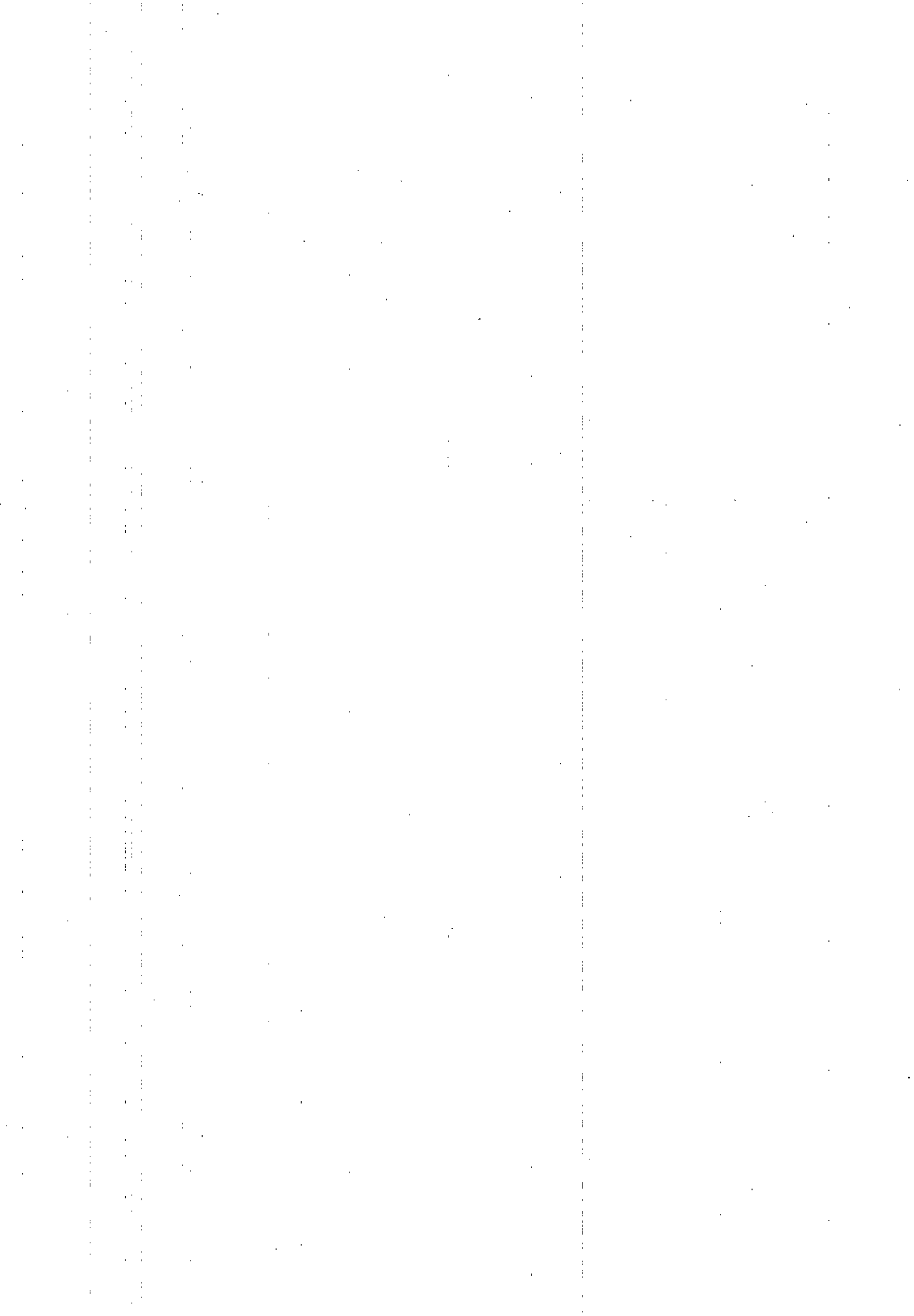
المحاضرة الثانية:

أنــواع التوحيد والشرك

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت في جامعة أم القرى بالمركز الصيفي .



أنواع
التوحيد والشرك

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخليله وأمينه على وحيه ، وصفوته من خلقه ، نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنى أشكر الله عز وجل على ما من به من هذا هذا اللقاء ، بإخوة فى الله، وبأبناء أعزاء ، أسأله سبحانه أن يجعله لقاءاً مباركاً ، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعاً ، وأن يمنحنا الفقه فى الدين والثبات عليه ، وأن يصلح أحوال المسلمين جميعاً فى كل مكان ، وأن يولِّى عليهم خيارهم ، ويصلح قادتهم ، وأن يكثر فيهم دعاة الهدى إنه جواد كريم .

ثم أشكر القائمين على هذه الجامعة : جامعة أم القرى ، وعلى هذا المركز الصيفى ، وعلى رأسهم الأخ الكريم صاحب الفضيلة الدكتور راشد بن راجح مدير الجامعة على دعوتهم لى لهذا اللقاء ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى أن يوفقنا جميعاً لما فيه صلاحنا وسعادتنا فى العاجل والآجل .

أيها الإخوة فى الله ، أيها المستمعون الكرام : سمعنا جميعاً ما قرأه علينا الطالب من سورة الحشر ، سمعنا آيات كريمات فيها عبرة وذكرى ، يقول الله جل وعلا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَت لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] إلى آخر السورة . ومن المعلوم أن كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره ، فيه الذكرى وفيه الدعوة إلى كل

(*) نشرت ضمن « مجموع فتاوى ومقالات ابن باز » (١/ ٢٨ : ٤٩) .

خير ، وفيه التذكير بأسباب النجاة والسعادة ، وفيه العظة والترغيب والترهيب .

فجدير بالمسلمين جميعاً أن يعتنوا بتدبره وتعقله ، وأن يكثروا من تلاوته لمعرفة ما أمر الله به وما نهى عنه ، حتى يعلم المؤمن ما أمر الله به فيمتثله ، ويبتعد عما نهى الله عنه .

فكتاب الله فيه الهدى والنور وفيه الدّلالة على كل خير والتحذير من كل شر، وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، والتحذير من سيء الأخلاق ، وسيء الأعمال ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] أي إلى الطريقة والسبيل التي هي أهدى السبل وأقومها وأصلحها ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾[فصلت: ٤٤] وقال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليكَ مبارك ليَدَّبَّرُوا آياته وَلِيَتَذَكَرَ أُولُوا الألباب ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] فكتاب الله فيه الهدى والنور ، وفيه العظة والذكرى فوصيتي لنفسي وللجميع ومن يسمع كلمتي أو تبلغه : العناية بهذا الكتاب العظيم ، فهو أشرف كتاب ، وأعظم كتاب ، وهو خاتم الكتب المنزلة من السَّماء ، ومن تدبره وتعقله بقصد طلب الهداية ، ومعرفة الحق ، وفقه الله وهداه .

وأهم ما اشتمل عليه هذا الكتاب العظيم ، بيان حق الله على عباده ، وبيان ضد ذلك . هذا أعظم موضوع اشتمل عليه القرآن ، وهو بيان حقه سبحانه على عباده من توحيده ، وإخلاص العبادة له ، وإفراده بالعبادة ، وبيان ضد ذلك من الشرك الأكبر ، والذنب الذى لا يغفر ، وأنواع الكفر والضلال .

ولو لم يكن فى تدبر هذا الكتاب العظيم إلا العلم بهذا الواجب العظيم ، وتدبر ما ذكره الله فى ذلك ، لكان ذلك خيراً عظيماً ، وفضلاً كبيراً ، فكيف

وفيه الدلالة على كل خير ، والترهيب من كل شر ، كما تقدم .

ثم بعد ذلك العناية بالسُّنة ؛ فإنها الأصل الثَّانى ، والوحى الثانى ، وفيها التفسير لكتاب الله والدلالة على ما قد يخفى من كلامه سبحانه ، فهى الموضحة لكتاب الله كما قال الله عز وجل ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] ويقول سبحانه : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤] فهو أنزل لدعوة الناس إلى الخير ، وتعليمهم سبيل النجاة ، وتحذيرهم من سبل الهلاك، وأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يبين للناس ما أنزل إليهم ، وأن يشرح لهم ما اشتبه عليهم . فلم يزل عليه الصلاة والسلام من حين بعثه الله إلى أن توفاه سبحانه يدعو الناس إلى ما دل عليه كتاب الله ، ويشرح لهم ما دل عليه ، ويحذرهم مما نهى عنه . وكانت المدة من حين بعثه الله إلى أن توفاه ثلاثاً وعشرين سنة ، كلها دعوة وبيان وترهيب وترغيب ، إلى أن نُقِل إلى الرفيق الأعلى عليه الصَّلاة والسلام .

ومحاضرتى هذه اللَّيلة فى أعظم موضوع ، وأهم موضوع ، وهو موضوع العقيدة ، موضوع :

التوحيد وضدّه

● **فالتوحيد** : هو الأمر الذى بعث الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب ، وخلق من أجله الثقلين، وبقية الأحكام تابعة لذلك . يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] المعنى ليَخُصُّوه سبحانه بالعبادة ، ويُفردوه جل وعلا بها ، ولم يخلقوا عبثاً ولا سُدًى، ولا ليأكلوا ويشربوا ، ولا ليُعَمروا القصور ونحوها ولا لشق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ولا لغير هذا من مهمات الدنيا، ولكنهم خلقوا ليعبدوا ربهم ، وليعظموه، وليتمسكوا بأوامره ، وينتهوا عن

نواهيه ، ويقفوا عند حدوده ، وليوجهوا العباد إليه ، ويرشدوهم إلى حقه .

وخلق لهم ما خلق من النّعم ليَسْتَعينوا بها على طَاعته ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩] وقال سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣] والله جل وعلا أنزل الأمطار ، وأجرى الأنهار ، ويسر للعباد من أنواع الرزق وأنواع النعم ما يعينهم على طاعته ، وما يكون زاداً لهم إلى نهاية آجالهم ، إقامة للحجة ، وقطعاً للمعذرة. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِ أُمَّة رَّسُولاً أَنِ اعبُدُوا اللهَ وَاجتَنبُوا الطَّاغوت﴾ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرسَلنَا مِن قبلك مِن رَّسُول إِلا نُوحِي إِلَيه أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعبُدُون﴾[الأنبياء:٢٥]، وقال سبحانه : ﴿ وَسْأَلْ مَنْ أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلنَا مِن دُونِ الرَّحمَنِ ءَالِهَةَ يُعبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال جل وعلا : ﴿وقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال سبحانه في سورة الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

إلى غير ذلك من الآيات الدَّالات على أنه سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده ، وأمرهم بذلك ، وأرسل الرسل لهذا الأمر . ليدعوا إليه ، وليوضحوه فوجب على أهل العلم خلفاء الرسل أن يبينوا للناس هذا الأمر العظيم ، وأن يكون أعظم المطلوب ، وأن تكون العناية به أعظم عناية ، لأنه متى سلم صار ما بعده تابعاً له ، ومتى لم يوجد التوحيد لم ينفع المكلف ما حصّل من أعمال وأقوال ، قال الله تعالى : ﴿وَلَو أَشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴾ [الأنعام :٨٨] وقال تعالى ﴿وَقَدِمنَا إِلَى

مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر:٦٥]، في آيات كثيرات .

ويؤيد هذا المعنى أنه عليه الصلاة والسلام ، مكث بمكة عشر سنين، يدعو الناس إلى توحيد الله ، قبل أن تفرض عليه الصلاة وغيرها، كلها دعوة إلى توحيد الله ، وترك الشرك وخلع الأوثان ، وبيان أن الواجب على جميع الثَّقلين أن يعبدوا الله وحده ، ويدعوا ما عليه آباؤهم وأسلافهم من الشرك .

ولهذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب في أيام الهُدنة ، وكان أبو سفيان في وفد من قريش في تجارة بفلسطين ، وصادف مجيء هرقل إلى القدس ، فقيل له عنهم ، فأمر بإحضارهم لسؤالهم عما يعلمون عن هذا النبي الذي بلغه خبره ، وكان ذلك في وقت الهدنة ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ، فسألهم عنه ، وعن قوله: إنه نبي؟! .

فأمر بأبي سفيان فأجلسه أمامه ، وأجلسوا أصحابه خلفه ، وقال لترجمانه قل لهم إني سائله فإن كذب فليكذبوه .

فسأل عن النبي ﷺ، وعن أشياء كثيرة معروفة في البخاري وغيره، ومما سأل عنه أن سألهم عما يَدْعوهم إليه ؟

فقالوا : يدعونا إلى أن نعبد الله وحده ، وأن نترك ما عليه آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والصلة والعفاف .

فقال لهم : إن كان كما قلتم ليملكن موضع قدمى هاتين . فكان الأمر كما قال ، فملك الله المسلمين الشام ، وأزاح عنها الروم ، ونصر الله نبيه وأيد حزبه .

والمقصود: أن هذا الأصل هو الأمر العظيم . . ولما تساهل فيه الناس- إلا من رحم الله - وقعوا فى الشرك الأكبر ، وهم يدّعون الإسلام وينكرون على من رماهم بخلافه ، وهم على الشرك بسبب جهلهم بهذا الأصل العظيم ، فقد اتخذوا كثيراً من الأموات آلهة من دون الله يعبدونهم ، ويطوفون بقبورهم ، ويستغيثون بهم ، ويسألونهم شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات ، والنصر على الأعداء ، ويقولون : هذا ليس بشرك وإنما هو تعظيم للصَّالحين ، وتوسل بهم إلى الله ، ويقولون أيضاً :

بأنّ الإنسان لا يدعو الله مباشرة إنما يدعو الله بواسطة الأولياء ، وهم كالوزراء بالنسبة إلى الرب ، كما أن الوزراء بالنسبة للملوك هم الواسطة، فشبهوا الله بخلقه ، وعبدوا خلقه من دونه . نسأل الله العافية.

فكل هذا من أسباب الجهل ، وقلة البصيرة بهذا الأصل العظيم ، فعبَّاد البدوى ، وعباد الشيخ عبد القادر ، وعباد الحسين ، وعباد غيرهم من الناس ، أصابهم البلاء من هذا السبيل ، جهلوا حقيقة التوحيد ، وجهلوا دعوة الرسل ، والتُبست عليهم الأمور ، فوقعوا فى الشرك واستحسنوه ، وجعلوه ديناً وقربة ، وأنكروا على من أنكر عليهم ، وقل أن تجد فى غالب الأمصار العالم البصير بهذا الأصل العظيم ، بل تجد

من يشار إليه بالأصابع ، ويقال إنه العالم ، وهو مع ذلك ممن يعظم القبور ، التعظيم الذى لم يشرعه الله ، ويدعو أهلها ، ويستغيث بهم وينذر لهم ونحو ذلك .

أما علماء الحق ، علماء السُّنة ، علماء التَّوحيد فهم قليل فى كل مكان. فالواجب على الطلبة فى هذه الجامعة ، وعلى جميع الطلاب فى جميع الجامعات الإسلامية أن يعتنوا بهذا الأصل ، وأن يُحْكِمُوه غاية الإحكام ، حتى يكونوا دعاة للهدى ، ومبشرين بالحق ، وحتى يكونوا مبصرين للناس بحقيقة دينهم الذى بعث الله به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، وبعث به الرسل جميعاً .

وهذه الكلمة التى أقولها لكم الآن تتعلق بأنواع التَّوحيد وأنواع الشرك.

● **والتوحيد** : مصدر وحد يوحد توحيداً يعنى وحد الله أى اعتقده واحداً لا شريك له فى ربوبيته ، ولا فى أسمائه وصفاته، ولا فى ألوهيته وعبادته ، سبحانه وتعالى . فهو واحد جلَّ وعلا وإن لم يُوحده النَّاس، وإنما سُمى إفراد الله بالعبادة توحيداً ، لأن العبد باعتقاده ذلك قد وحَّد الله عز وجل ، واعتقده واحداً فعامله على ضوء ذلك بإخلاص العبادة له سبحانه ، ودعوته وحده ، والإيمان بأنه مدبر الأمور وخالق الخلق ، وأنه صاحب الأسماء الحُسنى ، والصفات الكاملة وأنه يستحق العبادة دون كل ما سواه .

● وعند التفصيل تكون أنواع التوحيد ثلاثة :

(أ) توحيد الربوبية .

(ب) وتوحيد الألوهية .

(جـ) وتوحيد الأسماء والصفات .

● **فتوحيد الربوبية** : أقرَّ به المشركون ، ولم يُنكروه ، لكنهم لم يدخلوا به فى الإسلام لأنهم لم يخصوا الله بالعبادة ، ولم يقروا بتوحيد الإلهية، بل أقروا بأن ربهم هو الخالق الرازق ، وأن الله هو ربهم، ولكنهم لم يوحدوه بالعبادة ، فقاتلهم النبى ﷺ حتى يخلصوا العبادة لله وحده.

فتوحيد الربوبية : معناه الإقرار بأفعال الرَّب ، وتدبيره للعالم ، وتصرّفه فيه ، هذا يُسَمَّى توحيد الرُّبوبية ، وهو الإعتراف بأنه الخلاق الرزّاق مُدبر الأمور ومُصرِّفها، يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذلّ، ويحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير .

وهذا فى الجملة أقرّ به المشركون ، كما قال سبحانه : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] وقال سبحانه : ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّماوات والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر:٣٨] وقال تعالى: ﴿قُل مَن يَرزُقُكُم من السَّمَاء والأَرضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمعَ والأبصار ومَن يُخرِجُ الحَىَّ منَ المَيتِ ويُخرِجُ المَيتَ منَ الحَى ومَن يُدَبرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُل أَفَلاَ تَتَقُونَ ﴾ [يونس:٣١] .

فهم معترفون بهذه الأمور لكنهم لم يستفيدوا من هذا الإقرار فى توحيد الله بالعبادة ، وإخلاصها له سبحانه وتعالى ، بل اتخذوا معه

وسائط وزعموا أنها شفعاء وأنها تقربهم إلى الله زلفى كما قال تعالى : ﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ الـلهِ مَا لا يَضُرهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شـفعاؤنـا عِندَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، فقال سبحانه رداً عليهم : ﴿ قُل أَتُنَبئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعلَمُ فِي السمـاوات وَلا فِي الأَرضِ سُبحانهُ وتعـالى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، فهو سبحانه لا يعلم له شريكاً لا في السماء ولا في الأرض، بل هو الواحد الأحد، سبحانه وتعالى ، الفرد الصـمد ، المستحق للعبادة جل وعلا ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَاعبُدِ اللهَ مُخلصًا لَهُ الدينَ ألا لله الدينُ الخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢ ، ٣]، ثم قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ مَا نَعـبُدُهُمْ إلا لِيُقَربُونَا إلى الـله زُلـفَى﴾[الزمر:٣]، والمعـنى : يقولـون ما نعبـدهم إلا ليقربونا إلى الـله زُلفى ، يعني ما عبدناهم لأنهـم يضرون وينفعون ، أو لأنهم يـخلقون ويرزقـون ، أو لأنهم يدبـرون الأمور، ولكن عبـدناهم ليقربونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده .

كما قـالوا في الآية السـابقة من سـورة يونس : ﴿ هَؤُلاءِ شفعاؤنا عِندَ اللهِ﴾ [يونس:١٨].

وعُرِف بهذا أنهم لم يعتقدوا أن آلهتـهم تنفع وتضر ، وتحيي وتميت، وترزق وتعطي وتمنع ، وإنمـا عبدوهم ليشفعوا لهم وليـقربوهم إلى الله زلفى ، فالـلات والعزَّى ومناة والمسـيح ومريم والصالحون مـن العباد ، كل هؤلاء مـا عبدهم المشـركون الأولون لأنهـم ينفعون ويـضرون ، بل عبدوهم لأنهم يرجون شفاعتهم ، وأن يقربوهم إلى الله زلفى ، فحكم الله علـيهم بالشرك في قولـه تعالى : ﴿ قُل أَتُنَبـئُون اللـه بِمَا لا يَعلَمُ فـي السماوات وَلا فِي الأَرضِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]، وقال في

آية الزمر: ﴿ إِنَّ اللهَ يَحكُمُ بَينَهُم فِى مَاهُمْ فِيهِ يَختَلِفُونَ إِنَّ الله لا يَهدِى مَن هو كاذب كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣]، فحكم عليهم بالكفر والكذب، حين قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فبين أنهم كذبة فى زعمهم أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، كفرة بهذا العمل، وهو عبادتهم إياهم بالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة ونحو ذلك .

وقد دعاهم ﷺ عشر سنين يقول لهم : يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا فأعرض عنه الأكثرون ، ولم يهتد إلا الأقلون ، ثم أجمع رأيهم على قتله ، فأنجاه الله من شرهم ومن كيدهم ، وهاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام ، فأقام بها شريعة الله ودعا فيها إلى الله، وتقبل الدعوة الأنصار رضى الله عنهم، وجاهدوا معه عليه الصلاة والسلام وجاهد معه المهاجرون من قريش، ومن غيرهم حتى أظهر الله دينه، وأعلى كلمته وأذل الكفر وأهله.

● **وهذا النوع** الذى أقر به المشركون **هو توحيد الرُّبوبية**، وهو توحيد الله بأفعاله من خلق ورزق وتدبير وإحياء وإماتة وغير ذلك من أفعاله سبحانه كما سبق.

وهو حجة عليهم فى إنكارهم توحيد الله بالعبادة لأنه يستلزمه، ويدل عليه ويوجبه. فلهذا أقام الله الحجة عليهم بهذا الإقرار فقال : ﴿فَقل أفلا تتقُونَ ﴾ [يونس:٣١] وفى الآيات الأخرى ﴿ أَفَلا تَعقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]، ﴿أَفَلا تَذكَّرُونَ ﴾ [يونس:٣].

ومن تدبر هذا الأمر الذى أقروا به ، استفاد لو عقل أن هذا المتصف

بهذه الصفات هو المستحق لأن يُعبد، ما دام هو الخلاق وهو الرزاق وهو المحيي وهو المميت وهو المعطي وهو المانع وهو المدبر للأمور ، وهو العالم بكل شيء والقادر على كل شيء ، فيكف تصرف العبادة لغيره ، بل كيف يرجى غيره ، ويخاف غيره ، لو عقل أولئك الكفار ، ولكنهم لا يعقلون : ﴿ استَحوَذَ عَلَيهِمُ الشَّيطان فَأَنسَاهُم ذِكرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزبُ الشَّيطَان أَلا إِنَّ حِزبَ الشَّيطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩] وقال في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا يَرجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]، وهكذا أشباههم كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَد ذرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِن الجِنّ والإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفقَهُونَ بِهَا، وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُم ءَاذَانٌ لا يَسمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم أَضَل أُولئكَ هم الغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

هؤلاء هم الغافلون حقاً وهم أشباه الأنعام ، بل هم أضل منها ، كما وصفهم الله بذلك في آيات بينات ، وحجج نيرات ، وبراهين ساطعات، ومع ذلك لم يفهموها ولم يعقلوها ، واستمروا على كفرهم وضلالهم ، حتى حاربوه ﷺ يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق «يوم الأحزاب»، استمروا في كفرهم وضلالهم ، ولم تنفع فيهم الآيات ، ولم يستفيقوا من غفلتهم وإعراضهم ، ولله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى والحجة الدامغة .

ثم إنه سبحانه أظهر نبيه ، وأعزّ دينه ، وقهر الأعدا، فغزاهم ﷺ يوم الفتح ، ونصره الله عليهم ، وفتح بلادهم ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وعند ذلك أظهر عليه الصلاة والسلام توحيد الإلهية ، وقبله الناس ، ودخلوا في الحق ، ثم قامت ضده هوازن ، وأهل الطائف .

فأظهره الله عليهم ، وشتت شملهم ، واستولى عليه الصلاة والسلام على نسائهم وذرياتهم وأموالهم ، وجعل الله العاقبة والنصر لنبيه ﷺ ، ولعباده المؤمنين فالحمد لله على ذلك .

● **والنوع الثانى : توحيد الأسماء والصفات** : وهو أيضاً من جنس توحيد الربوبية ، وقد أقروا به وعرفوه . وتوحيد الربوبية يستلزمه ، لأن من كان هو الخلاق الرزاق والمالك لكل شيء ، فهو المستحق لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا ، وهو الكامل فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ، ولا شبيه له ، ولا تدركه الأبصار وهو السميع العليم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَيسَ كَمثله شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وكما قال عز وجل : ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ اللهُ الصَمَدُ لَم يَلِد وَلَم يُولَد وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١-٤]، وهم أى الكفار يعرفون ربهم بأسمائه وصفاته ، وقد كابر بعضهم فأنكر اسم الرحمن فأكذبهم الله بقوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ أَرسَلنَاكَ فِى أُمَّة قَد خَلَت مِن قَبلِهَا أُمَمٌ لِتَتلُوَا عَلَيهِمُ الَّذِى أَوحَينَا إِلَيكَ وَهُم يَكفُرُونَ بِالرَّحمَنِ قُل هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

● **النوع الثالث : هو توحيد الله بالعبادة** : وهو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها لا مَعْبُود حق إلا الله، فهى تنفى العبادة بجميع أنواعها عن غير الله ، وتثبتها لله وحده سبحانه وتعالى .

وهذه الكلمة هى أصل الدين وأساسه كله، وهى الكلمة التى دعا إليها النَّبى ﷺ، قومه ودعا إليها عمه أبا طالب فلم يُسْلم ومات على دين قومه .

وقد أوضح الله معناها فى مواضع كثـيرة من الكتاب الكريم منها قوله سبحانه ﴿وإلهكُم إِلَهٌ واحدٌ لا إِلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرحيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وقوله جل وعلا : ﴿ وَقَضَى رَبكَ ألا تَعبُدوا إلا إيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقوله تعالى : ﴿إياكَ نَعبُدُ وإياكَ نَستَعينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله: ﴿ وَما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخلصينَ لَهُ الدينَ حُنَفَاءَ . . ﴾ الآية [البينة : ٥]، إلى غير ذلك من الآيات . وكلها تـفسر هذه الكلـمة، وتوضح أن معنـاها : إبطال العبـادة لغير الله، وإثبـات العبادة بحق لله وحـده جل وعلا ، كما قال سبـحانه فى سورة الحج : ﴿ذَلكَ بِأَنَ اللـهَ هُوَ الحَق وَأَن مَا يَدعُونَ مِـن دُونهِ هُوَ البـاطل وأَنَّ اللهَ هُوَ العَلىُّ الكَبيرُ﴾ [الحج:٦٢]، وقال فى سورة لقمـان : ﴿ذَلكَ بِأَنَّ اللـهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدعُونَ مِن دُونِهِ البـاطِلُ وَأَن اللـهَ هُـوَ العَلِىُّ الكَبيـر﴾[لقمان: ٣٠].

فالله سبحانه وتعالى هـو الحق ، وله دعوة الحق ، وعبادته هى الحق دون كل ما سـواه سبحانه وتـعالى ، فلا يُستَغـاثُ إلا به ، ولا يُنذر إلا له، ولا يـتوكل إلا عـليه ، ولا يُطْلب الـشفاء إلا مـنه ، ولا يُطَافُ إلا ببيـته العتيق ، إلـى غير هذا من أنـواع العبادة . وهو الحق وديـنه الحق سبحانه وتعالى.

● **ومن أتقن هذه الأنـواع الثلاثة** : أعنى أنواع التَّوحيـد ، وحفظها واستقام على معناها ، علم أن اللـه هو الواحد حقاً ، وأنه هو المستحق للعـبادة دون جميع خلـقه ، ومن ضيَّع واحداً مـنها أضاع الجميـع فهى متلازمة ، لا إسلام إلا بـها جميعاً ، ومن أنكر صفـات الله وأسماءه ، فلا دين له ، ومن زعم أن مع الله مُصَرفاً للكون يُدبر الأمور، فهو كافر

مشرك فى الرُّبوبية بإجماع أهل العلم .

ومن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصّفات، ولكن لم يعبد الله وحده، بل عبد معه سواه من المشايخ أو الأنبياء أو الملائكة أو الجن أو الكواكب أو الأصنام أو غير ذلك فقد أشرك بالله وكفر به سبحانه. ولا تنفعه بقية الأقسام لا توحيد الربوبية، ولا توحيد الأسماء والصفات، حتى يجمع بين الثلاثة، فيقر بأن الله ربه هو الخالق الرازق المالك لجميع الأمور، ويقر بما كفر به المشركون، وحتى يؤمن بأنه سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا شبيه له، ولا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ. اللهالصَّمَدُ. لَم يَلِد. ولَم يُولَد. ولَم يكُن لَّهُ كُفُواً أحَدٌ﴾[الإخلاص: ١ـ٤] وقال سبحانه ﴿فَلاَ تَضرِبُوا لله الأَمثَالَ إنَّ اللهَ يَعلم وأنتم لا تَعلَمُونَ﴾[النحل: ٧٤] وقال عز وجل: ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السمِيعُ البَصيرُ﴾[الشورى: ١١].

وهذا النوع الثالث: وهو توحيد العبادة، هو معنى لا إله إلا الله، هو الأساس العظيم لدعوة الرُّسل لأن النوعين الآخرين لم ينكرهما المشركون كما تقدم، وإنما أنكروا هذا النوع وهو توحيد العبادة، لما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَـهاً واحداً إنَّ هَـذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ﴾[ص: ٥] وقالوا أيضاً: ﴿أئـنَّا لَتَاركُوا ءالِهَتِنَا لِشاعر مَجنُون﴾[الصافات: ٣٦]، وقبلها قوله سبحانه: ﴿إنَّهُم كَانُوا إذَا قِيل لهُم لا إله إلا الله يَستكبِرُون. ويَقُولُونَ أئـنَّا لَتَاركُوا ءَالِهَتِنَا لشَاعرٍ مجنُون﴾[الصافات: ٣٥، ٣٦]، فكذبهم الله بقوله: ﴿بَل جَاءَ بِالحَق وَصَدَّقَ المرسَلِين﴾[الصافات: ٣٧]

وهذا النوع هو توحيد العبادة، وهو الذى أنكره المشركون الأولون،

وينكره المشركون اليوم. ولا يؤمنـون به، بل عبدوا مع الله سواه، فعبدوا الأشجـار والأحجـار وعبدوا الأصـنام، وعـبدوا الأوليـاء والصـالحين، واستغاثوا بهم، ونـذروا لهم وذبحوا لهم، إلى غير هذا مما يـفعله عباد القبور وعباد الأصنام والأحجار وأشبـاههم، وهم بذلك مشركون كفار، إذا ماتوا على ذلك، لم يغفر لـهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْـفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨] وقال سبـحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِـطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يعـمَلُونَ﴾[الأنعام: ٨٨]، وقال سبـحانه ﴿إِنَّهُ مَن يُشْـرِكْ بِـاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ الـنَّارُ وَمَا لِلـظَّـالِمِينَ مِنْ أَنـصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

فلابـد من تحقيـق هذا النوع، وإفـراد الله بالعـبادة ونفى الإشـراك به سبحانـه وتعالى، والاستقامـة على ذلك، والدعوة إليـه، والموالاة فيه، والمعاداة عليه، وبسـبب الجهل بهذا النوع، وعدم البصيـرة فيه يقع الناس فى الشـرك ويحسبون أنهـم مهتدون، كما قـال عز وجل: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَـاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ االلَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ٣٠] وقال فى حق النصارى وأمـثالهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِيـنَ أَعْمَـالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَـيَاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ يَـحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْـسِنُونَ صُنْعـاً﴾[الكـهف: ١٠٣ - ١٠٤]، فالكافر لجهـله وانتكاس قلبه. يَحسَب أنه مُحسن، وهـو يعبد غير الله، ويدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويتقرب بالذبائح والنذور لغيره عز وجل، وما ذلك إلا لجهله وقلة بصيرته، وقد أنزل الله فيهم عز وجل قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الفرقان: ٤٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ

الجن وَالإنسِ لَهُم قُلُوبٌ لا يَفقَهُونَ بِهَا﴾الآية [الأعراف: ١٧٩]، فالواجب على أهل العلم، وعلى طلاب العلم أن يعنوا بهذا النوع أعظم عناية، لكثرة الجهل به، ووقوع أكثر الخلق فى ضده.

أما النوعان الآخران: فهما بحمد الله من أوضح الأشياء وأبينها، لكن هذا النوع أعنى توحيد العبادة يشتَبه علـى أكثر الناس بسبب الشبه الكثيرة الذى يُرَوجها أعداء الله، ويُلَبِّسون بها على كـثير من الناس، والأمر فيها بحمد الله واضح لمن نور الله بصيرته وهى شبه باطلة. لا وجه لها.

فالحق واضح أبلج، وهو وجوب إخلاص العبادة لله وحده، دون كل ما سواه.

كـمـا قال عـز وجـل: ﴿فَادعُوا الله مُخـلِصِينَ لَهُ الـدِّيـنَ وَلَو كَرِهَ الكَـفِرُونَ﴾[غافـر: ١٤]، وقال سـبحـانه وتـعالـى: ﴿فَلا تَدعُوا مَعَ الله أحَداً﴾[الجن: ١٨]، وقال سبـحانه: ﴿وَلاتَدعُ مِن دُونِ الله مَالا يَنـفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإن فَعَلـتَ فَإنَّكَ إذاً منَ الـظَّـلمِينَ﴾[يونس: ١٠٦]، ويقول سبـحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ الله رَبُّكُم لَهُ المُلـكُ وَالَّذِيـنَ تَدعُونَ مِن دُونِه مَا يَمـلِكُونَ مِن قِطمِير إن تَدعُوهُم لا يَسـمَعُوا دُعَاءَ كُم وَلَو سَمِعُوا مَا استَجَابُوا لَكُم ويومَ القِيَـمَةِ يَكفُرُونَ بِشرككُم وَلا يُنَبِّئُكَ مِثـلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٣]، ويقول سبـحانه: ﴿وَمَن يَدعُ مَعَ الله إلَـهـاً ءَاخَرَ لا بُرهَـنَ لَهُ بِهِ فَإنَّمَا حِسَابُهُ عِنـدَ رَبِّهِ إنَّهُ لا يُفـلِحُ الكَـفِرُونَ﴾[المؤمنون: ١١٧]، فى أيـات كـثيرات كلـها دالـة علـى وجوب إخلاص الـعبادة لله وحـده، وأن صرف العـبادة لغـير الله شرك وكـفر، وهكذا لو اعتقد أن شخصاً أو جـماداً يَصلُح أن يُعْبَد كفر وإن لم يعبده، فلو اعتـقد أن هذا الصَّنم، أو هذا الشخـص كجبرائيل أو النبـى محمد

ﷺ، أو الشيخ عبدالقادر الجيلانى أو البدوى أو الحسين، أو على بن أبى طالب، لو اعتقد أن واحداً منهم أو غيرهم يَصْلُح للعبادة، وأنه لا بأس أن يُدْعَى من دون الله، ولا بأس أن يُستغاث به صار كافراً، وإن لم يفعل شيئاً.

وهكذا لو اعتقد أنهم يعلمون الغيب، أو يتصرَّفون فى الكون كان كافراً بهذا الاعتقاد، عند جميع أهل العلم، فكيف إذا دعاهم من دون الله، أو استغاث بهم أو نذر لهم فإنه يكون بذلك مشركاً شركاً أكبر.

وهكذا إذا سجد لهم أو صلَّى لهم أو صام لهم صار بذلك مشركاً شركاً أكبر، نسأل الله السلامة من ذلك

* * *

● وضد التَّوحيد: الشِّرك، وهو أنواع ثلاثة، والحقيقة أنه نوعان:

(أ) شرك أكبر، (ب) وشرك أصغر.

فالشِّرك الأكبر: هو ما يتضمَّن صرف العبادة لغير الله أو بعضها، أو يتضمَّن جَحْد شىء مما أوجب الله من الأمور المعلومة من الدِّين بالضرورة كالصلاة، وصوم رمضان، أو يتضمَّن جحد شىء مما حرم الله، مما هو معلوم من الدين بالضَّرورة كالزنا والخمر ونحوها، أو يتضمَّن طاعة المخلوق فى معصية الخالق على وجه الاستحلال لذلك، وأنَّه يجوز أن يطاع فلان أو فلانة، فيما يخالف دين الله عز وجل، من رئيس أو وزير أو عالم أو غيرهم فكل ما يتضمن صرف بعض العبادة لغير الله كدعاء الأولياء، والاستغاثة بهم والنذر لهم، أو يتضمن

استحلال ما حرم الله، أو إسقاط ما أوجب الله، كاعتقاد أن الصلاة لا تجب أو الصَّوم لا يجب أو الحج مع الاستطاعة لا يجب، أو الزكاة لا تجب، أو اعتقد أن مثل هذا غير مشروع مطلقاً، كان هذا كفراً أكبر، وشركاً أكبر، لأنه يتضمن تكذيب الله ورسوله. وهكذا لو اعتقد حل ما حرم الله مما هو معلوم من الدِّين بالضَّرورة كاستحلال الزِّنا والخمر، وعقوق الوالدين، أو استحل قطع الطَّريق أو اللواط أو أكل الربا، وما أشْبَه ذلك من الأمور المعروف تحريمها بالنص والإجماع. إذا اعتقد حلها كفر إجماعاً، نسأل الله العافية وصار حكمه حكم المشركين شركاً أكبر.

وهكذا من استهزأ بالدِّين، وسخر به حُكْمُهُ حُكمهم، وكفره كفر أكبر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُم تَستَهزِءُونَ. لا تَعتَذِرُوا قد كَفَرتُم بَعدَ إِيمَـٰنِكُم﴾[التوبة: ٦٥ - ٦٦]، وهكذا لو استهان بشيء مما عظَّمه الله احتقاراً له، وازدراء له، كأن يَسْتَهين بالمصحف، أو يَبُول عليه، أو يطأ عليه، أو يقعد عليه، أو ما أشبه ذلك استهانة به، كفر إجماعاً، لأنه بذلك يكون مُتَنَقِّصاً لله، محتقراً له؛ لأنَّ القرآن كلامه سبحانه وتعالى، فمن استهان به فقد استهان بالله عز وجل.

وهذه الأمور قد أوضحها العلماء في باب حكم المرتد، ففي كل مذهب من المذاهب الأربعة ذكروا باباً سموه: (باب حكم المرتد) أوضحوا فيه جميع أنواع الكفر، والضَّلال وهو باب جدير بالعناية، ولاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع الرِّدة، والتَبَسَ الأمر في ذلك على كثير من النَّاس، فمن عني به حق العناية عرف نواقض

الإسلام، وأسباب الرِّدة، وأنواع الكفر والضلال.

● **والنوع الثَّانى الشرك الأصغر**: وهو ما ثبت بالنُّصوص تسميته شركاً، لكنه لم يبلغ درجة الشِّرك الأكبر، فهـذا يسمى شركاً أصغر مثل: الرِّياء والسُّمعة كمن يقرأ يرائى، أو يُصَلِّى يُرائى، أو يدعو إلى الله يُرائى ونحو ذلك. فقـد ثبت فى الحـديث أنه ﷺ قال: «أخـوف ما أخاف علـيكم الشِّرك الأصغر، فسئـل عنه فقال: الرِّياء يقول الله عز وجـل يوم القيامة للـمُرَائين: «اذهبوا إلـى من كنتـم تُراؤن فى الدُّنيـا فانظروا هـل تجدون عندهم من جزاء» رواه الإمام أحمد بإسنـاد صَحيح عن محمود بن لبيد الأشهـلى الأنصارى رضـى الله عـنه. ورواه الطَّبـرانى أيضاً والـبيهـقى وجماعة مرسلاً عـن محمود المذكور وهو صحابى صغيـر لم يسمع من النَّبى ﷺ ولكـن مرسلات الصَّحابة صـحيحة وحُجَّة عند أهـل العلم، وبعضهم حكاه إجماعاً.

ومن ذلك قول العبد: ما شاء الله وشاء فلان، أو لولا الله وفلان، أو هذا من الله ومن فلان.

هذا كـله من الـشِّرك الأصغر كـما فـى الحديث الـذى رواه أبو داود بإسناد صـحيح عن حذيفـة رضى الله عنه، عن النـبى ﷺ أنه قال: «لا تَقُولوا مَا شَاء الله وشاء فلان. ولكن قُولوا ما شاء الله ثم شاء فلان».

ومن هذا ما رواه الـنَّسائى عن قتيلـة أن اليهود قالوا لأصحـاب النبى ﷺ: إنكـم تُشركـون، تَقُولون مـا شاء الله وشاء مـحمـد، وتقـولون والكعبة فأمرهم النبـى ﷺ إذا أرادوا أن يَحلِفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة

وأن يقولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ـ وفى رواية للنَّسائى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال: يَارَسُول الله ما شاء الله وشِئت. فقال: «أجَعَلْتَنى لله نِدا ما شَاء الله وَحْده»

ومن ذلك ما ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَلا تَجعَلُوا لله أندَاداً وَأنتُم تَعلَمُونَ﴾(البقرة: ٢٢)، قال: هو الشِّرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلان وحياتى، وتقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط فى الدَّار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كله به شرك» رواه ابن أبى حاتم بإسناد حسن.

فهذا وأشباهه من جنس الشِّرك الأصغر.

وهكذا الحلف بغير الله، كالحلف بالكعبة، والأنبياء والأمانة وحياة فلان، وبشرف فلان ونحو ذلك، فهذا من الشِّرك الأصغر لما ثبت فى المسند بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَف بشىء دُون الله فقد أشرك» وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى رحمهم الله بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «مَن حَلَف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

وهذا يحتمل أن يكون شكاً من الراوى، ويحتمل أن أو بمعنى الواو، والمعنى فقد كفر وأشرك.

ومن هذا ما رواه الشِّيخان عن عمر رضى الله تعالى عنه، عن النبى

ﷺ أنَّه قال: «مَن كان حَالِفاً فَلْيَحْلِف بالله أو ليصمت». والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

● وهذه أنواع من الشِّرك الأصغر وقد يكون أكبر على حسب ما يكون فى قلب صاحبه، فإذا كان فى قلب الحالف بالنَّبى أو البدوى أو الشيخ فلان، أنه مثل الله، أو أنه يدعى مع الله، أو أنه يتصرَّف فى الكون مع الله أو نحو ذلك، صار شركاً أكبر بهذه العقيدة، أما إذا كان الحالف بغير الله لم يقصد هذا القصد، وإنما جرى على لسانه من غير هذا القَصْد لكونه اعتاد ذلك، كان ذلك شركاً أصغر.

● **وهناك شرك يقال له: الشرك الخفى**: ذكر بعض أهل العلم أنَّه قسم ثالث، واحتج عليه بقوله ﷺ فى حديث أبى سعيد الخدرى: أن النبى ﷺ قال: «ألا أنبئكم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟؟. قالوا: بلى يا رسول الله! قال: الشِّرك الخَفى: يقوم الرَّجل فَيُصَلِّى فيزين صلاته لما يَرَىٰ من نظر رجل إليه» خرجه الإمام أحمد.

والصَّواب: أن هذا ليس قسماً ثالثاً: بل هو من الشِّرك الأصغر، وهو قد يكون خفياً لأنَّه يقوم بالقلوب، كما فى هذا الحديث، وكالذى يقرأ يرائى، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يُرائى، أو يُجاهد يرائى، أو نحو ذلك.

وقد يكون خفياً من جهة الحكم الشَّرعى بالنسبة إلى بعض الناس كالأنواع التى فى حديث ابن عباس السابق.

وقد يكون خَفِياً وهو من الشرك الأكبر كاعتقاد المنافقين.. فإنهم يُراؤن

بأعمالهم الظاهرة وكفرهم خفي، لم يظهروه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ الآية [النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣] والآيات في كفرهم وريائهم كثيرة، نسأل الله العافية.

● وبما ذكرنا يعلم أن الشرك الخفي لا يخرج عن النوعين السَّابقين: شرك أكبر، وشرك أصغر، وإن سمي خفياً، فالشرك يكون خفياً ويكون جلياً.

فالجلي: دُعاء الأموات والاستغاثة بالأموات والنَّذر لهم، ونحو ذلك.

والخفي: ما يكون في قُلوب المنافقين يصلون مع الناس، ويصومون مع الناس، وهم في الباطن كفار يعتقدون جواز عبادة الأوثان والأصنام، وهم على دين المشركين. فهذا هو الشرك الخفي الأكبر، لأنه في القلوب.

وهكذا الشِّرك الخفي الأصغر كالذي يَقْصد بقراءته ثناء الناس، أو بصلاته أو بصدقته أو ما أشبه ذلك. فهذا شرك خفي، لكنه شرك أصغر.

فاتضح بهذا أن الشِّرك شركان: أكبر وأصغر وكل منهما يكون خفياً: كشرك المنافقين.. وهو أكبر، ويكون خفياً أصغر كالذي يقوم يرائي في صلاته أو صدقته أو دعائه لله، أو دعوته إلى الله أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو نحو ذلك.

فالواجب على كل مؤمن أن يحذر ذلك، وأن يبتعد عن هذه الأنواع، ولاسيما الشِّرك الأكبر، فإنه أعظم ذنب عصى الله به، وأعظم جريمة وقع فيها الخلق، وهو الذى قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿وَلَو أشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّاكَانُوا يَعمَلُونَ﴾[الأنعام: ٨٨]، وقال فيه سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّهُ مَن يُشرِكْ بِاللهِ فَقَد حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ ومأواه النَّارُ﴾[المائدة: ٧٢]، وقال فيه سبحانه أيضاً: ﴿إِنَّ اللهَ لا يغفِر أن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَادُونَ ذَلكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ١١٦].

فمن مات عليه فهو من أهل النار جزماً، والجنة عليه حرام، وهو مخلد فى النار أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك.

أما الشِّرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر، وصاحبه على خطر عظيم، لكن قد يُمْحا عن صاحبه برجحان الحَسَنات، وقد يُعَاقَب عليه ببعض العُقُوبات، لكن لا يخلد فى النار خلود الكفار، فليس هو مما يوجب الخلود فى النار، وليس مما يحبط الأعمال، ولكن يحبط العمل الذى قارنه.

فالشِّرك الأصغر يُحْبِط العمل المقارن له، كمن يُصَلِّى يرائى فلا أجر له، بل عليه إثم.

وهكذا من قرأ يُرائى فلا أجر له. بل عليه إثم. بخلاف الشِّرك الأكبر، والكفر الأكبر فإنهما يُحْبِطان جميع الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَو أشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾. [الأنعام: ٨٨]

فالواجب على الرِّجال والنِّساء. وعلى العالم والمتعلم، وعلى كل

مسلـم، أن يعنى بهـذا الأمر ويتبـصر فيه، حتـى يعلم حقـيقة التـوَّحيد بأنواعه، وحتى يعلم حقيقة الشِّرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، وحتى يبادر بالتَّوبة الـصَّادقة مما قد يقع مـنه من الشِّرك الأكبر، أو الـشِّرك الأصغر، وحتى يلزم التوحـيد، ويستقيم عليه، وحتى يـستمر فى طاعة الله، وأداء حقه، فإن التوحيد له حقوق، وهى أداء الفرائض، وترك المناهى، فلابد مع الـتَّوحيد مـن أداء الفرائـض، وترك المَنَاهى، ولابـد أيضاً مـن ترك الإشراك كله: صغيره وكبيره.

فالشِّرك الأكبر ينافى التَّوحيد، ويـنافى الإسلام كلياً. والشِّرك الأصغر ينافى كماله الواجب، فلابد من ترك هذا وهذا.

فعلينا جميعاً أن نُعنى بهذا الأمر، ونتفـقه فيه، ونبلغه للناس بكل عناية وبكل إيضاح حتى يكون المسلم على بينة من هذه الأمور العظيمة.

* * *

والله المسئول عز وجـل أن يوفقـنا وإياكـم للعـلم النـافع، والعـمل الصَّالح، وأن يمنحنا والمـسلمين جميعاً الفقه فى دينـه والثبات عليه، وأن ينصر دينه ويعلـى كلمته، ويجعلنا وإياكم من الهداة المـهتدين، إنه سميع قريب. وصلى الله وسـلم على نبينا مـحمد وعلى آله وأصحابـه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدِّين.

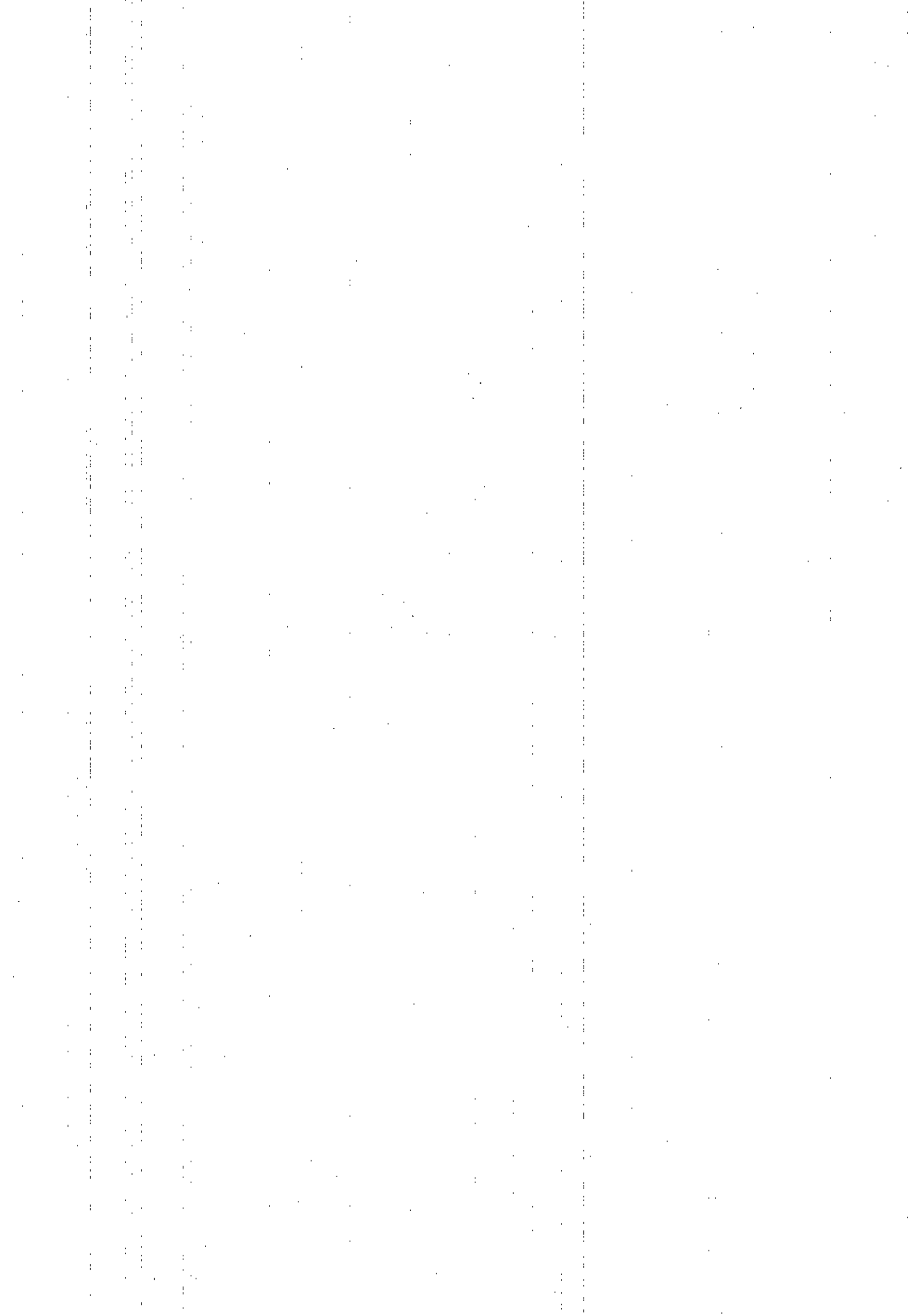
❀ ❀ ❀

المحاضرة الثالثة:

أسماء الله وصفاته
وموقف أهل السنة منها

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين



أسماء الله وصفاته
وموقف أهل السنة منها

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدى الساعة بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله حق جهاده، بلسانه، ويده، وماله، حتى أتاه اليقين فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الأخوة الحاضرون فإنى أذكركم ونفسى بما أنعم الله به على هذه البلاد من نعمة الإسلام قديماً وحديثاً، هذه البلاد التى كانت محل الرسالة رسالة محمد، ﷺ، خاتم النبيين الذى بعث إلى الناس كافة، بل إلى الجن والإنس.

هذه البلاد التى كما بدأ منها الإسلام فإليها يعود كما ثبت به الحديث عن النبى، ﷺ، حيث قال: «إنَّ الإيمانَ لَيَأرِزُ إلى المَدِينة كما تَأرِزُ الحية إلى جُحْرِها».

أيها الأخوة: إن هذه البلاد بما أنعم الله به عليها من هذه النعمة العظيمة، وهى نعمة الإسلام أولاً وأخيراً كانت مركزاً لتوجيه الضربات عليها من أجل صد أهلها عن دينهم، ليس فى الأخلاق فحسب ولكن فى الأخلاق والعقائد، ولذلك كان لزاماً على شبابها وأخص الشباب لأسباب ثلاثة:

(*) نشرت ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين (٥/ ١٤٩: ١٧٩)

لأنهم رجال المستقبل، ولأنهم أقوى عزيمة، وأشد حزماً ممن بردت أنفسهم بالشيخوخة، ولأنهم الذين تركز عليهم هذه الضربات.

إننى أوجه إلى الشباب أن يحموا بلادهم من كيد أعداءهم، فإن أعداءهم يوجهون الضربات تلو الضربات ليقضوا على هذه المنة العظيمة التى من الله بها علينا ألا وهى دين الإسلام.

أيها الشباب: استعينوا بالله سبحانه وتعالى بما علمكم من شريعته، ثم بحكمة الشيوخ ذوى الثقة، والأمانة، والعلم، والبرهان، فاستعينوا بذلك على حماية بلادكم من كيد أعدائها، واعلموا أن الدنيا تبع للدين، وأنها لن تتم النعمة، ولن تتم الحياة الدنيا، ولن تكون حياة طيبة إلا بالإيمان، والعمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]

أيها الأخوة: إن المشكلات فى عصرنا هذا كثيرة وإنى اخترت الكلام فى:

أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها

* * *

ولعل الكثير منكم يقول: لماذا اخترت هذا الموضوع بالذات ألسنا كلنا وبالأخص أهل هذه الجزيرة، ألسنا كلنا نؤمن بأسماء الله وصفاته على ما يليق به، ولا نتعرض لها بتحريف، ولا تعطيل؟! أليست العجوز منا والشيخ، والصغير، والذكر، والأنثى، كل على حد سواء لا يجول فى أفكارهم شيء من التحريف أو الإنحراف فى أسماء الله وصفاته فلماذا اخترت هذا الموضوع بالذات؟

وإن جوابى على هذا أن أقول: إننى اخترت هذا الموضوع لأمرين

هامين:

أحدهما: أهميــة هذا الموضوع، فإن هذا المــوضوع ليس كمــا يظن بعض الناس، ولا أعنى ببعض الناس عامتهم، بل حتى بعض طلبة العلم يظنون أن الـبحث فى هذا البـاب ـ فى باب أسماء الله وصفــاته ـ ليس بذى قيمــة تذكر، والحقيقة أن هــذا الفكر فكر خاطــىء، لأن معرفة الله تعالى بأسمائه وتوحيده بذلك، وصفــاته هو أحد أقسام التوحيد الثلاثة، فقد قسم أهل العلم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الربوبية.

والثاني: توحيد الألوهية.

والثالث: توحيد الأسماء والصفات.

إذن فهو عنصــر هام فى باب التوحيد يـجب علينا أن نعرفــه، كما أنه أيضــاً أعنى معــرفة الأسماء والـصفات هــو أحد أركان الإيمان بــالله فإن الإيمان بالله لا يتم إلا بأربعة أمور:

أحدها: الإيمان بوجوده تعالى.

والثاني: الإيمان بربوبيته، وعموم ملكه، وقوة سلطانه.

والثالث: الإيمان بــألوهيتــه، وأنه وحده المســتحق لــلعبادة، وأن مــا سواه فعبادته باطلة.

أما **الأمر الرابع:** من أركــان الإيمان بالله التــى لا يمكن أن يتــم الإيمان بالله إلا بها وهو موضوع محاضرتنا هذه، فهو: **الإيمان بأسماء الله وصفاته**.

إننى لا أتصــور أن أحداً يمكن أن يعبــد ربا لا يعرف أسماءه وصــفاته

وكيف يكون ذلك وهو يمد يديه له: يارب، يارب، إذا كان لا يعلم أن له صفات وأسماء يدعى بها فكيف يتخذه إلهاً قادراً، ملجئاً، ومعاذاً، ونصيراً. ولهذا قال إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]

فمعرفة أسماء الله وصفاته أمر مهم فى دين الله ولابد أن يعرفه الإنسان ويحققه.

أما **السَّبب الثَّانى** لاختيارى هذا الموضوع: فهو كثرة الكلام فيه بالباطل فى الآونة الأخيرة، كنا فى وقت الطلب نقرأه على أنه أمر بعيد عنا زمناً، ومكاناً، ولكننا وجدناه الآن فيما بيننا فى الصحف المقروءة، وكذلك فى الكتب المقررة فى بعض جهات التعليم.

إذن لابد أن نعرف موقف أهل السنة والجماعة بالنسبة لأسماء الله وصفاته، حتى نكون يقظين حذرين، وعالمين بما نحكم به فيما ينشر أو فيما يقرر.

فالكلام فى أسماء الله وصفاته فى الآونة الأخيرة كثر اللغط فيه، وكثر القول فيه بالحق تارة، وبالباطل تارات، ولهذا لابد أن نحقق هذا الأمر تحقيقاً بالغاً حتى لا تجرف بنا الأهواء أو الأفكار التى على خطأ، وليست على صواب فى هذا الأمر وإننى ألخص الكلام فى العناصر التالية:

العنصر الأول: فى موقف أهل السنة والجماعة فى الأسماء والصفات.

العنصر الثانى: فى نصوص الأسماء والصفات

العنصر الثالث: فى العدول عن هذا الموقف.

العنصر الرابع: فى أن التطرف فى التنزيه يستلزم إبطال الدين كله.

العنصر الخامس: فى أن بعض أهل التحريف، والتعطيل اعتدوا على أهل السنة فرموهم بالتشبيه، والتمثيل، والتجسيم.

العنصر السادس: فى أن أهل التحريف والتعطيل ادعوا على أهل السنة أنهم أولوا بعض النصوص ليلزموا أهل السنة بالتأويل فى بقية النصوص أو بالمداهنة وفى إبطال هذه الدعوى.

* * *

● **العنصر الأول: موقف أهل السنة فى أسماء الله تبارك وتعالى:**

أسماء الله تعالى كل ما سمى به نفسه فى كتابه، أو سماه به أعلم الخلق به رسوله محمد ﷺ، وموقف أهل السنة من هذه الأسماء أنهم يؤمنون بها على أنها أسماء لله تسمى بها الله عز وجل، وأنها أسماء حسنى ليس فيها نقص بوجه من الوجوه كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠]

فهم يثبتون الأسماء على أنها أسماء لله، ويثبتون أيضاً ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات، فمثلاً من أسماء الله «العليم» فيثبتون العليم اسماً لله سبحانه وتعالى، ويقولون: يا عليم. فيثبتون أنه يسمى بالعليم ويثبتون بأن العلم صفة له دل عليها اسم العليم، فالعليم اسم مشتق من العلم، وكل اسم مشتق من معنى فلابد أن يتضمن ذلك المعنى الذى اشتق منه، وهذا أمر معلوم فى العربية واللغات جميعاً.

ويثبتون كذلك ما دل عليه الاسم من الأثر إن كان الاسم مشتقا من

مصدر متعدى، فمثلاً «الرَّحيم» من أسماء الله يؤمنون بالرحيم على أنه اسم من أسمائه، ويؤمنون بما تضمنه من صفة الرحمة، وأن الرحمة صفة حقيقية ثابتة لله دل عليها اسم الرحيم، وليست إرادة الإحسان، ولا الإحسان نفسه، وإنما إرادة الإحسان والإحسان نفسه من آثار هذه الرحمة، كذلك يؤمنون بأثر هذه الرحمة، والأثر أنه يرحم بهذه الرحمة من يستحقها كما قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[العنكبوت: ٢١]

هذه قاعدة أهل السنة والجماعة بالنسبة للأسماء: يؤمنون بأنها أسماء تسمى الله بها فيدعون الله بها.

ثانياً: يؤمنون بما تضمنه الاسم من الصفة، لأن جميع أسماء الله مشتقة، والمشتق كما هو معروف يكون دالا على المعنى الذى اشتق منه.

ثالثاً: يؤمنون بما تضمنه الاسم من الأثر إذا كان الاسم متعدياً كالعليم، والرحيم، والسميع، والبصير.

أما إذا كان الاسم مشتقا من مصدر لازم فإنه لا يتعدى مسماه مثل الحياة فالله تعالى من أسمائه «الحى»، و«الحى» دل على صفة الحياة، والحياة وصف للحى نفسه لا يتعدى إلى غيره، ومثل «العظيم» فهذا الاسم والعظمة هى الوصف، والعظمة وصف للعظيم نفسه لا تتعدى إلى غيره، فعلى هذا تكون الأسماء على قسمين: متعدى ولازم، والمتعدى لا يتم الإيمان به إلا بالأمور الثلاثة: الإيمان بالاسم، ثم بالصفة ثم بالأثر.

وأما اللازم فإنه لا يتم الإيمان به إلا بإثبات أمرين:

أحدهما: الاسم

والثاني: الصِّفة

أما موقف أهل السنة والجماعة في الصفات فهو: إثبات كل صفة وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله محمد ﷺ، لكن إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل، سواء كانت هذه الصفة من الصفات الذاتية أم من الصفات الفعلية.

فإذا قال قائل: فرقوا لنا بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية؟.

قلنا: الصِّفات الذاتية هي التي تكون ملازمة لذات الخالق أي أنه متصف بها أزلاً وأبداً

والصِّفات الفِعْلِية هي التي تتعلق بِمَشِيئته فيفعلها الله تبعاً لحكمته سبحانه وتعالى.

مثال الأول: صفة الحياة صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال حيا، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] وفسَّرها النبى ﷺ، بقوله: «أنت الأول فليس قَبلك شيء وأنت الآخر فليس بَعْدك شيء». وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان: ٥٨]

كذلك السَّمع، والبَصَر، والقدرة كل هذه من الصفات الذاتية، ولا حاجة إلى التعداد لأننا عرفناها بالضابط: «كل صفة لم يزل الله ولا يزال مُتَّصفاً بها فإنها من الصِّفات الذاتية» لملازمتها للذات، وكل صفة تتعلق بمشيئته يفعلها الله حيث اقتضتها حكمته فإنها من الصفات الفعلية مثل: استوائه على العرش، ونزوله إلى السماء الدنيا، فاستواء الله على العرش من الصفات الفعلية لأنه متعلق بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم اللهُ

الَّذِى خَلَقَ السَّموات وَالأرْضَ فِى ستة أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]

فجعل الفعل معطوفاً على ما قبله بـ«ثم» الدالة على الترتيب، ثم النزول إلى السماء الدنيا وصفه به أعلم الخلق به رسول الله ﷺ، حيث قال: فيما ثبت عنه ثبوتاً متواتراً قال: «يَنْزِل ربنا إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثُلثُ الليل الآخرِ فيقول: من يَدْعُونى فأَستَجِب له. من يَسْأَلُنى فأُعْطِيه. من يَسْتَغْفِرنى فَأَغْفِر له». وهذا النزول من الصفات الفعلية لأنه متعلق بمشيئة الله تعالى، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، ولكنهم فى هذا الإيمان يتحاشون التمثيل، أو التكييف، أى أنهم لا يمكن أن يقع فى نفوسهم أن نزوله كنزول المخلوقين، أو استوائه على العرش كاستوائهم، أو إتيانه للفصل بين عباده كإتيانهم، لأنهم يؤمنون بأن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، ويعلمون بمقتضى العقل ما بين الخالق والمخلوق من التباين العظيم فى الذات، والصِّفات، والأفعال ولا يمكن أن يقع فى نفوسهم كيف ينزل؟ أو كيف استوى على العرش؟ أو كيف يأتى للفصل بين عباده يوم القيامة؟ أى أنهم لا يكيفون صفاته مع إيمانهم بأن لها كيفية لكنها غير معلومة لنا، وحينئذ لا يمكن أبداً أن يتصوروا الكيفية، ولا يمكن أن ينطقوا بها بألسنتهم أو يعتقدوها فى قلوبهم.

يقول تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولَئكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] ويقول: ﴿قُل إنَّما حَرَّمَ رَبِّى الفَوَاحش مَا ظَهَرَ منْها وَمَا بَطَنَ وَالإثْمَ وَالبَغى بِغَيْرِ الحَق وَأنْ تُشْرِكُوا بِالله مَا لَم ينَزلْ بِهِ سُلْطانا وَأنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَالا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]

ولأن الله أجل وأعظم من أن تحيط به الأفكار. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[طه: ١١٠]

وأنت متى تخيلت أى كيفية فعلى أى صورة تتخيلها؟! إن حاولت ذلك فإنك فى الحقيقة ضال، ولا يمكن أن تصل إلى حقيقة لأن هذا أمر لا يمكن الإحاطة به، وليس من شأن العبد أن يتكلم فيه أو أن يسأل عنه. ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله فيما اشتهر عنه بين أهل العلم حين سأله رجل فقال: يا أبا عبدالله: «الرَّحمن على العرش اسْتَوىٰ» كيف استوىٰ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحَضَاء - يعنى العرق وصار ينزف - عرقاً - لأنه سؤال عظيم. ثم قال تلك الكلمة المشهورة: «الاسْتواء معلوم، والكيف مجْهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بِدعة» وروى عنه أنه قال: «الاستِواء غير مجهول، والكيف غير مَعْقُولَ، والإيمان به واجب، والسُّؤَال عنه بِدعة»

فإذن نحن نعلم معانى صفات الله، ولكننا لا نعلم الكيفية، ولا يحل لنا أن نسأل عن الكيفية، ولا يحل لنا أن نكيف، كما أنه لا يحل لنا أن نمثل أو نشبه لأن الله تعالى يقول فى القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

فمن أثبت لله مَثيلاً فى صفاته فقد كذب القرآن، وظن بربه ظن السوء وقد تنقص ربه حيث شبهه وهو الكامل من كل وجه بالناقص، وقد قيل:

ألم تر أنَّ السَّيف يُنْقِصُ قَدْره إذا قيل إنَّ السَّيف أمْضَى من العصا

وأنا أقول: هذا على سبيل التوضيح للمعنى وإلا ففرق عظيم بين الخالق والمخلوق، فرق لا يوجد مثله بين المخلوقات بعضها مع بعض.

المهم أيها الأخوة أنه يجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ، سواء كانت تلك الصفة ذاتية أم فعلية، ولكن بدون تكييف، وبدون تمثيل:

التكييف ممتنع، لأنه قول على الله بغير علم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]

والتمثيل ممتنع؛ لأنه تكذيب لله فى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقول بما لا يليق بالله تعالى من تشبيهه بالمخلوقين.

* * *

● **العنصر الثاني: فى نصوص الأسماء والصفات:**

المعترك بين أهل السُّنة وأهل البدعة فى هذه النصوص، معترك يتبين به الفرق الشاسع بين أهل السُّنة وأهل البدعة، فأهل السنة يثبتون النصوص على حقيقتها وظاهرها اللائق بالله من غير تحريف ولا تعطيل. هذه الطريق التى مشى عليها أهل السنة والجماعة.

واخترنا كلمة «تحريف» على كلمة «تأويل» لأن التحريف معناه باطل بكل حال ذم الله تعالى من سلكه فى قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[النساء: ٤٦]

أما التأويل ففيه ما هو صحيح، مقبول، وفيه ما هو فاسد مردود، والفاسد المردود هو بمعنى التحريف، ولهذا اختار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ اختار فى العقيدة الواسطية وهى خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة اختار التحريف بدل التأويل، وإن كان يوجد فى كثير من كتب العقائد التعبير بـ(التأويل)

لكنهم يريدون بالتأويل ما هو بمعنى التحريف أى التأويل الذى لا دليل عليه، بل الدليل نقيضه وهذا فى الحقيقة تحريف.

فأهل السنة والجماعة يقولون: نحن نؤمن بهذه الآيات، والأحاديث ولا نحرفها، لأن تحريفها قول على الله بغير علم من وجهين، يتبين ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢]

قال أهل السنة والجماعة: جاء ربك أى هو نفسه يجىء سبحانه وتعالى، لكنه مجىء يليق بجلاله وعظمته لا يشبه مجىء المخلوقين، ولا يمكن أن نكيفه، وعلينا أن نضيف الفعل إلى الله كما أضافه الله إلى نفسه.

فنقول: إن الله تعالى يجىء يوم القيامة مجيئاً حقيقيا يجىء هو نفسه، وقال أهل التحريف معناه: وجاء أمر ربك.

وهذا جناية على النص من وجهين:

الوجه الأول: نفى ظاهره فأين لهم العلم من أن الله تعالى لم يرد ظاهره هل عندهم علم من أن الله لم يرد ظاهر ما أضافه لنفسه؟! والله تعالى يقول عن القرآن إنه نزل بلسان عربى مبين فعلينا أن نأخذ بدلالة هذا اللفظ حسب مقتضى هذا اللسان العربى المبين. فمن أين لنا أن يكون الله تعالى لم يرد ظاهر اللفظ؟!

فالقول بنفى ظاهر النص قول على الله بغير علم.

الوجه الثانى: إثبات معنى لم يدل عليه ظاهر اللفظ، فهل عنده علم أن الله تعالى أراد المعنى الذى صرف ظاهر اللفظ إليه؟! هل عنده علم أن الله أراد مجىء أمره؟ قد يكون المراد جاء شىء آخر ينسب إلى الله غير

الأمر.

فإذاً كل محرف أى كل من صرف الكلام عن ظاهره بدون دليل من الشرع فإنه قائل على الله بغير علم من وجهين:

الأول: نفيه ظاهر الكلام.

الثانى: إثباته خلاف ذلك الظاهر.

لهذا كان أهل السنة والجماعة يتبرؤون من التحريف، ويرون أنه جناية على النصوص، وأنه لا يمكن أن يخاطبنا الله تعالى بشىء ويريد خلاف ظاهره بدون أن يبين لنا، وقد أنزل الله الكتاب تبياناً لكل شىء والنبى ﷺ، بين للناس ما أنزل إليهم من ربهم بإذن ربهم.

أما التمثيل فمن الواضح أن القول به تكذيب للقرآن، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شىء وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ولهذا كان عقيدة أهل السنة والجماعة، بل طريقة أهل السنة والجماعة فى نصوص الصفات من الآيات، والأحاديث، هو إثباتها على حقيقتها وظاهرها اللائق بالله، بدون تحريف وبدون تعطيل، وقد حكى إجماع أهل السنة على ذلك ابن عبدالبر فى كتابه: (التَّمهيد) ونقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وكذلك نقل عن القاضى ابن يعلى أنه قال: «أجمع أهل السُّنَّة على تحريم التَّشَاغُل بتأويل آيات النُّصوص وأحاديثها، وأن الواجب إبقاؤها على ظاهرها».

* * *

● **العنصر الثالث: العدول عن هذا الموقف تطرف دائر بين الإفراط والتفريط:**

العدول عن هذا الموقف ـ أعنى موقف أهل السنة والجماعة ـ تطرف إما إفراط، وإما تفريط، لأن الناس انقسموا فى هذا الباب إلى ثلاثة أقسام: طرفان، ووسط طرف غلافى التنزيه حتى نفى ما أثبته الله لنفسه، وطرف آخر غلافى الإثبات حتى أثبت ما نفاه الله عن نفسه.

فإن من أهل البدع من أثبت النصوص على ظاهرها، ولكنه جعل هذا الظاهر من جنس صفات المخلوقين والعياذ بالله. فأثبت النقص لربه بإلحاقه بالمخلوق الناقص، وأخطأ فى ظنه أن ظاهرها التمثيل.

أثبت أن لله تعالى سمعاً، وأن لله تعالى وجهاً، وأن لله تعالى عيناً، وأن له يداً لكنه جعل ذلك كله من جنس صفات المخلوقين، غلا فى الإثبات حتى بلغ به إلى التمثيل. وقد قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ولا شك أنه كافر وأن الله سبحانه وتعالى لم يرد بهذه النصوص هذا الظاهر الذى ادعاه هذا الممثل.

وقد يقول القائل: أين دليلك على أن الله ما أراده؟

فأقول: الدليل عندى نقلى، وعقلى:

أما النقلى: فآيات متعددة تنفى المماثلة عن الله وأصرحها وأبينها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١]

وأما **الدليل العقلى**: فإنه لا يمكن أبداً أن يكون الخالق مماثلاً للمخلوق فى أى صفة من صفاته لظهور الفرق العظيم بينهما فى الذات، والصفات، والأفعال.

ومن أهل البدع من حرف النصوص عن ظاهرها، ونفى مدلولها

اللائق بالله، وهؤلاء المحرفون أنقسموا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم غلا فى ذلك غلوا عظيماً حتى نفى النقيضين فى حق الله، فقال: لا تقل إن الله موجود ولا تقل غير موجود، إن قلت موجود شبهته بالموجودات، وإن قلت غير موجود شبهته بالمعدومات. ولا ريب أن هذا تنكره العقول كلها، لأن رفع أحد النقيضين أمر مستحيل، والتقابل بين الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن اجتماعهما ولا ارتفاعهما.

القسم الثَّانى: من قال نثبت السَّلب ولا نثبت الإيجاب فلا نصف الله بصفات ثبوتية، ولكن نصفه بالأسلوب والإضافات ونثبت الأسماء مجردة عن المعانى، وهذا ما عليه عامة الجهمية والمعتزلة.

القسم الثَّالث: من يقول: نثبت بعض الصفات لدلالة العقل عليها، وننكر بعض الصفات، لأن العقل لا يثبتها، وبعضهم يقول لأن العقل ينكرها. وكل هذه الأقسام الثلاثة ـ وإن كانت تختلف من حيث البعد عن الحق ـ كلها على غير صواب فهى متطرفة، فالقول الوسط ما عليه أهل السنة والجماعة: أن نثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات، ولكنه إثبات مجرد عن التكييف، وعن التمثيل، وبذلك نكون عملنا بالنصوص الشرعية من الجانبين، ولم ننظر بعين أعور، وبذلك نكون قد تأدبنا مع الله ورسوله فلم نقدم بين يدى الله ورسوله، وإنما التزمنا غاية الأدب سمعنا وآمنا، وأطعنا ما أثبته الله لنفسه أثبتناه، وما أثبته له رسوله أثبتناه، وما نفاه الله عن نفسه نفيناه، وما نفاه عنه رسوله نفيناه وما سكت عنه سكتنا عنه.

* * *

● **العنصر الرابع: التطرف فى التنزيه يستلزم إبطال الدين كله:**

ذكرنا أن من الناس من تطرف في التنزيه حتى أنكر الصفات، أو أنكر بعضها، أو أنكر الإيجابية منها، أو أنكر الإيجابي والسلبي فأقول: إن التطرف فى التنزيه فى كل أقسامه يؤدى إلى إبطال الدين كله.

مثال ذلك: إذا كان المنزه يثبت بعض الصفات وينكر بعضها قلنا له: لماذا تثبت ولماذا تنكر؟

قال: أثبت هذه الصفات لأن العقل دل عليها، وأنكر هذه الصفات لأن العقل لم يدل عليها أو دل على نفيها.

فيقول له القوم الآخرون: نحن ننكر جميع الصفات لأن العقل لا يدل عليها، أو لأن العقل دل على نفيها. فلا يستطيع الأول أن يرد على هؤلاء لأنه إذا رد عليهم بأن العقل يثبت ذا وينكر ذا أو لا يثبته قال: أنا عقلى لا يثبت ما تثبت وما دام المرجع هو العقل فإن ما أنكرته أنت بحجة العقل فأنا أنكر ما أنكر بحجة العقل ولكن الأمر لا ينتهى عند موضوع الصفات.

بل يأتينا أهل التخييل الذين أنكروا اليوم الآخر، وأنكروا رسالة الرسل بل أنكروا وجود الله رأساً ـ والعياذ بالله ـ فيقولون: عقولنا لا تقبل أن تحيا العظام وهى رميم، لا تقبل وجود جنة ولا نار، فيحتجون بالعقل كما احتج هؤلاء بالعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وإثبات الصفات فى القرآن والسنة أكثر من إثبات المعاد، فأى إنسان ينكر الصفات فإنه لا يمكن أن يدفع إنكار من أنكر المعاد، ولا ريب أن إنكار المعاد، وإنكار الشرائع

إبطال للدين كله، والخلاص من هذا هو اتباع طريق السلامة أن نثبت ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، وننفى ما نفاه الله عن نفسه من الصفات، ونسكت عما سكت عنه وبهذا لا يمكن لأى إنسان أن يفحمنا، لأننا قلنا إن هذه المسائل الغيبية إنما تدرك بالشرع والمنقول عن المعصوم والعقول مضطربة ومختلفة. وكل إنسان من مدعى العقل يدعى وجوب ما يدعى الآخر أنه ممتنع، أو ما يدعى الآخر أنه من الممكنات لا من الواجبات.

* * *

● **العنصر الخامس: أن بعض أهل التحريف والتعطيل قالوا: إن أهل السنة مشبهة ومجسمة وممثلة:**

من الغرائب أن يدعى على الإنسان ما ينكره، فأهل السنة والجماعة ينكرون التشبيه، وينكرون التمثيل، ويقولون من شبه الله بخلقه فقد كفر، فكيف يمكن أن يلزموا بما هم معترفون بإنكاره؟! هذا عدوان محض.

أهل السنة والجماعة يقولون نحن لا نشبه، ولا نمثل، وإنما نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله بدون تمثيل، وبدون تكييف. فما بالكم تشوهون طريقنا وتقولون أنتم ممثلة ومشبهة؟! ولكن لا غرو أن يرمى أهل السنة والجماعة بمثل هذه الألقاب السيئة، لأن رمى أهل الحق بالألقاب السيئة أمر موروث عن أعداء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالأنبياء قيل: إنهم سحرة. وقيل: إنهم مجانين ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ﴾[الذاريات: ٥٢] ولكن هل الحق يغيض بمثل هذه الألقاب؟ لا. بل يفيض، ويزداد قوة، ويزداد وضوحاً

وبياناً ـ ولله الحمد ـ أهل السنة والجماعة متبرءون من هذه العيوب التى يصمهم بها من يحرفون الكلم عن مواضعه.

كذلك يقولون أنتم مجسمة، كيف مجسمة وما معنى مجسمة؟! هذه الكلمة كلمة «التَّجسيم» لو قرأت القرآن من أوله إلى آخره ومررت على ما جاء عن النبى ﷺ، من السنة من أولها إلى آخرها لم تجد لفظ «الجسم» مثبتاً لله ولا منفياً عنه فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ، فما بالنا نتعب أذهاننا وأفكارنا، ونظهر ذلك بمظهر سوء بالنسبة لمن أثبت لله صفات الكمال على الوجه الذى أراد الله.

إذا كانت كلمة «الجسم» غير واردة فى الكتاب، ولا فى السنة، فإن أهل السنة والجماعة يمشون فيها على طريقتهم يقفون فيها موقف الساكت فيقولون: لا نثبت الجسم ولا ننكره من حيث اللفظ، ولكننا قد نستفصل فى المعنى فنقول للقائل: ماذا تريد بالجسم؟ إن أردت الذات الحقيقية المتصفة بالصفات الكاملة اللائقة بها، فإن الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال حياً عليماً، قادراً، متصفاً بصفات الكمال اللائقة به، وإن أردت شيئاً آخر كجسمية الإنسان التى يفتقر كل جزء من البدن إلى الجزء الآخر منه، ويحتاج إلى ما يمده حتى يبقى فهذا معنى لا يليق بالله عز وجل، وبهذا نكون أعطينا المعنى حقه.

أما اللفظ: فلا يجوز لنا أبداً أن نثبته، أو ننفيه، ولكننا نتوقف فيه؛ لأننا إن أثبتنا قيل لنا: ما الدليل؟ وإن نفينا. قيل لنا: ما الدليل؟ وعلى هذا فيجب السكوت من حيث اللفظ.

أما من حيث **المعنى**: فعلى التفصيل الذى بيناه.

* * *

● **العنصر السادس: ادعى أهل التحريف والتعطيل على أهل السنة أنهم أولوا بعض النصوص ليلزموهم بتأويل البقية أو المداهنة فيها:**

هذه دعوى تلبيس، وتشكيك، وقد نشرت فى الصحف نشرها من نشرها وقال: أنتم يا أهل السنة تشنعون علينا تقولون أنتم تأولون، وأنتم يا أهل السنة قد أولتم فما بالكم تشنعون علينا بالتأويل وأنتم تسلكونه؟!

حقيقة إن هذه الحجة حجة قوية إذا ثبتت لأنه لا يحق لأى إنسان أن يتحكم فيما يمكن تأويله أو يجب وفيما لا يمكن، ولكن أهل السنة والجماعة يقولون هذه دعوى تلبيس، وتشكيك فإننا لسنا على هذه الطريقة وأنتم رميتمونا بذلك إما لإلزامنا أن نقول بالتأويل كما قلتم به، وإما لإلزامنا أن نسكت عن تحريفكم ونداهن، ولكننا بعون الله لن نسكت على ما نرمى به ونحن منه بريئون.

وهذا التأويل الذى ادعاه بعض أهل التأويل ورمى به أهل السنة والجماعة لنا عنه جوابان:

الجواب الأول: أن نمنع أن يكون طريق أهل السنة فى ذلك تأويلاً، لأن التأويل فى إصطلاح المتأخرين - وهو الذى يعنيه هؤلاء - هو صرف اللفظ عن ظاهره.

وأهل السنة يقولون: ظاهر الكلام ما دل عليه الكلام باعتبار السياق، أو باعتبار حال المتكلم به هذا هو ظاهر الكلام وليس للكلمات معنى خلقت له لا تستعمل فى غيره، ولكن معنى الكلمات إنما يظهر بسياقها

وبحال المتكلم بها، نحن كنا قرأنا فى البلاغة أو بعض منا قرأ فى البلاغة ورأى أن الاستفهام يأتى لعدة معانى، وقرأنا فى حروف الجر ومعانيها، وعلمنا أن بعض الحروف يأتى لعدة معانى، فما الذى يعين هذه المعانى؟ أليس السياق؟ إذن فحقيقة الكلام ما دل عليه سياقه، وظاهره ما دل عليه سياقه، وذلك باعتبار نظم الكلام وباعتبار حال المتكلم به فهذا الجواب، جواب مجمل أن نقول: لا نسلم بأن ظاهر الكلام خلاف ما دل عليه سياقه أو حال المتكلم به، بل ما دل عليه السياق فهو حقيقة الكلام وظاهره مطلقاً، حتى لو استعملت هذه الكلمة فى غير هذا الموضع لمعنى آخر، فإن استعمالها فى هذا الموضع للمعنى الذى دل عليه السياق هو فى الواقع حقيقتها هذا جواب.

الجواب الثانى: لو سلمنا أن فى اللفظ إخراجاً له عن ظاهره، فإن أهل السنة والجماعة لا يمكن أبداً أن يخرجوا لفظاً عن ظاهره إلا بدليل من الكتاب، أو السنة متصل، أو منفصل، وأنا أتحدى أى واحد يأتى إلى بدليل من الكتاب، أو السنة فى أسماء الله وصفاته أخرجه أهل السنة عن ظاهره، إلا أن يكون لهم دليل بذلك من كتاب الله، أو من سنة رسوله ﷺ، وحينئذ إذا كان ما أخرجه إليه أهل السنة من المعنى ثابتاً بدليل من الكتاب والسنة فإنهم فى الحقيقة لم يخرجوا عما أراد الله به، لأنهم علموا مراد الله به من الدليل الثانى من الكتاب والسنة، وليسوا بحمد الله يخرجون شيئاً من النصوص عما يقال إنه ظاهره من أجل عقولهم حتى يتوصلوا إلى نفى ما أثبته الله لنفسه وإثبات ما لم يدل عليه ظاهر الكلام. هذا لا يوجد ولله الحمد فى أى واحد من أهل السنة، والأمر إذا شئتم فارجعوا إليه فى كتبهم المختصرة والمطولة، ونحن نضرب

لذلك بعض الأمثلة لا كل الأمثلة لأننا لو تتبعنا الأمثلة كلها التى قيل إن أهل السنة والجماعة صرفوها عن ظاهرها لطال بنا الكلام لكننا نذكر عدة أمثلة فقط:

***المثال الأول:** قال أهل التأويل: أنتم يا أهل السنة أولتم قول الله عز وجل ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾[البقرة: ٢٩] فقلتم: إن معنى الاستواء هنا «القصد والإرادة»، وقلتم: إن معنى الاستواء فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] «العلو والارتفاع»، وما هذا إلا تأويل منكم لأحد النصين لا يمكن أن تخرجوا عنه ومعلوم أن استوى على كذا ظاهرة جدا فى العلو عليه، يبقى استوى إلى كذا معناها القصد، إذن أخرجتم كلمة استوى. عن ظاهرها.

وجوابنا على ذلك أن نقول: «استوى» كلمة يتحدد معناها بحسب متعلقها فمثلاً: «استوى على العرش» معناها العلو على وجه يليق بجلاله، ولا يشبه استواء المخلوق على المخلوق.

«استوى إلى السماء» اختلف الحرف فكان «إلى»، و«إلى» للغاية، وليست للعلو، ومعلوم أنها إذا كانت للغاية فإن الفعل مضمن معنى يدل على الغاية وهو: القصد والإرادة، وإلى هذا النحو ذهب بعض أهل السنة فقالوا: «استوى إلى السماء» أى قصد إلى السماء، والقصد إذا كان تاما يعبر عنه بالاستواء، لأن الأصل فى اللغة العربية أن مادة الاستواء تدل على الكمال كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾[القصص: ١٤].

وجواب آخر أن نقول: «اسْتَوى إلى السماء» بمعنى ارتفع. قال

البغوى: وهو مروى عن ابن عباس وأكثر المفسرين، ولكن هذا يجب أن لا نظن أن الله سبحانه وتعالى قد انتفى عنه العلو حين خلق الأرض، بل إنه سبحانه وتعالى لم يزل، ولا يزال عالياً، لأن العلو صفة ذاتية ولكن الاستواء هنا وإن كان بمعنى الارتفاع، إلا أننا لا نعلم كيفيته وهذا جواب آخر عن الآية.

والخلاصة الآن: أننا إذا فسرنا «استوى إلى السماء» بمعنى قصد إليها على وجه الكمال فإننا لم نخرج عن ظاهر اللفظ، وذلك لاختلاف حرف الجر الذى تعلق باستوى فى قوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾(الأعراف: ٥٤) وفى قوله: ﴿اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاءِ﴾[البقرة: ٢٩] وإذا قلنا بالقول الثانى الذى هو مروى عن ابن عباس وأكثر المفسرين بأنه ارتفع، فإنه لا يجوز لنا أن نتوهم بأن الله تعالى لم يكن عالياً من قبل.

* **أما المثال الثانى:** قال أهل التأويل: أنتم يا أهل السنة فسرتم قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بأعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٤] أى بمرأى منا وهذا خلاف ظاهر اللفظ.

نقول لهم: ماذا تفهمون من هذا اللفظ؟ هل أحد يمكن أن يفهم أن الباء للظرفية، وأن سفينة نوح تجرى فى عين الله؟! أبداً لا أحد يفهم هذا إطلاقاً، وإتيان الباء للظرفية فى بعض المواضع وارد، لكن فى هذه الآية لا يمكن أبداً أن يكون كذلك.

إذن فهذا الظاهر الذى زعمتم أنه ظاهر الآية لا نسلم أبداً أنه ظاهرها، لكن الذين فسروا ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٤] بمرأى منا هؤلاء فسروا اللفظ بلازمه، وذلك صحيح، وليس خروجا باللفظ عن ظاهره،

لأن دلالة اللفظ على معناه: إما دلالة مطابقة، أو دلالة تضمن، أو دلالة التزام، وكل من الدلالات لا يخرج اللفظ عن ظاهره. هذه الدلالات الثلاث أوضحها بالمثال:

«البيت» يعنى الدار تدل على جملة الدار وكتلتها جميعاً بالمطابقة، أى تدل على بناء مكون من حجر، وغرف، وساحات وغيرها بالمطابقة.

وتدل على كل حجرة أو كل غرفة، أو كل ساحة بالتضمن.

وتدل على أن هذا البيت لابد له من بان بناه بالالتزام.

فنحن نقول: تجرى بأعيننا إذا كان الله تعالى يراها بعينه ويرعاها فإنها تجرى بمرأى منه، وهذا معنى صحيح، ويمكن أن نجيب بجواب آخر بأن معناها: تجرى مرئية بأعيننا، والمهم أن نثبت من هذه الآية أن لله سبحانه وتعالى عينا لا تشبه أعين المخلوقين، ولا يمكن أن نتصور لها كيفية، وبذلك لم نخرج عن ظاهر اللفظ.

وقد فسر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه: ٣٩] أنها العين الحقيقية والمعنى أن موسى ﷺ، يربى على عين الله أى: على رؤية بعين الله سبحانه وتعالى.

* **المثال الثالث:** قال أهل التأويل: أنتم يا أهل السنة أولتم قوله تعالى: ﴿وَنَحنُ أَقْرَبُ إِليه مِنْكُمْ﴾[الواقعة: ٨٥] إلى أن المراد أقرب بملائكتنا وهذا تأويل، لأنا لو أخذنا بظاهر اللفظ لكان الضمير ﴿نَحْنُ﴾ يعود إلى الله، وأقرب خبر المبتدأ، وفيه ضمير مستتر يعود على الله، فيكون القرب لله عز وجل، ومعلوم أنكم أهل السنة لا تقولون بذلك، لا تقولون إن الله تعالى يقرب من المحتضر بذاته حتى يكون فى مكانه، لأن هذا أمر لا

يمكن أن يكون، إذ أنه قول أهل الحلول الذين ينكرون علو الله عز وجل، ويقولون إنه بذاته فى كل مكان وأنتم أهل السنة تنكرون ذلك أشد الإنكار. إذن ماذا تقولون أنتم يا أهل السنة ألستم تقولون نحن أقرب إليه أى إلى المحتضر بملائكتنا، أى الملائكة تحضر إلى الميت وتقبض روحه؟! هذا تأويل!!.

قلنا : الجواب على ذلك سهل ولله الحمد فإن الذى يحضر الميت هم الملائكة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١] ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣] فالذى يحضر إلى المحتضر عند الموت هم الملائكة ، وأيضاً فى نفس الآية ما يدل على أنه ليس المراد قرب الله سبحانه وتعالى نفسه فإنه قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٥] .

فهذا يدل على أن هذا القريب حاضر ، لكن لا نبصره ، وذلك لأن الملائكة عالم غيبى الأصل فيهم الخفاء وعدم الرؤية . وعلى هذا فنحن لم نخرج بالآية عن ظاهرها لوجود لفظٍ فيها يعين المراد ، ونحن على العين والرأس ، والقلب نقبل كل شيء كان بدليل من كتاب الله ، ومن سنة رسول الله ﷺ .

* **المثال الرابع** : قال أهل التأويل : أنتم يا أهل السنة أولتم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَينمَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد:٤] فقلتم : وهو معكم بعلمه، وهذا تأويل فإن الله تعالى يقول ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد:٤] والضمير في قوله ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد:٤] يعود إلى الله . فأنتم يا أهل السنة أولتم هذا النص وقلتم : إنه معكم بالعلم . فإذن كيف تنكرون علينا التأويل ؟

قلنا : نحن لم نؤول الآية ، بل إنما فسرناها بلازمها وهو : العلم ، وذلك لأن قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا يمكن لأى إنسان يعرف قدر الله عز وجل ويعرف عظمته ، أن يتبادر إلى ذهنه أنه هو ذاته مع الخلق فى أمكنتهم ، فإن هذا أمر مستحيل ، كيف يكون الله معك فى البيت ، ومع الآخر فى المسجد ، ومع الثالث فى الطريق ، ومع الرابع فى البر، ومع الخامس فى الجو ، ومع السادس فى البحر . . إلخ ؟! لو قلنا بهذا فكم إلهاً يكون لو قلنا بهذا لزم أن يكون الله إما متعدداً ، أو متجزئاً- تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - وهذا أمر لا يمكن ولهذا نقول : من فهم هذا الفهم فهو ضال فى فهمه ومن اعتقده فإنه ضال إن قلد غيره بذلك ، وكافر إذا بلغه العلم ، وأصر على قوله ، ومن نسب إلى أحد من السلف أن ظاهر الآية أن الله معهم بذاته فى أمكنتهم ، فإنه بلاشك كاذب عليهم .

إذن أهل السنة والجماعة يقولون : نحن نؤمن بأن الله تعالى فوق عرشه ، وأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، وأنه مع خلقه كما قال فى كتابه ، ولكن مع إيماننا بعلوه . ولا يمكن أن يكون مقتضى معيته إلا الإحاطة بالخلق علماً ، وقدرة ، وسلطاناً ، وسمعاً ، وبصراً ، وتدبيراً، وغير ذلك من معانى الربوبية ، أما أن يكون حالاً فى أمكنتهم، أو مختلطًا بهم كما يقول أهل الحلول والاتحاد ، فإن هذا أمر باطل لا يمكن أن يكون هو ظاهر الكتاب والسنة ، وعلى هذا فنحن لم نؤول الآية ولم نصرفها عن ظاهرها ، لأن الذى قال عن نفسه ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤] هو الذي قال عن نفسه ﴿ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهو الذى قال عن نفسه ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٨] إذن فهو فوق

عباده ، ولا يمكن أن يكـون فى أمكنتهم ، ومع ذلك فهو مـعهم محيط بهم علمًا ، وقدرة ، وسلطاناً ، وتدبيراً وغير ذلك.

وإذا أضيفت المعية إلى من يستحق النصر من الرسل وأتباعهم اقتضت مع الإحاطة علماً وقدرة ، اقتضت نصـراً وتأييدًا ، فنحن ولله الحمد ما خرجنا بهذا اللفظ عن ظاهره حتى يلزمونا بذلك .

وقد بين شيخ الإسلام - رحمه الله - فى كـتبه المختصرة والمطولة أنه لا تعارض بين معنى المعية حقيقة وبين علو الله سبحانه وتعالى ، قال :

« لأن الله سبحانه لـيس كمثله شيء ، فى جميع صفـاته ، فهو على فى دنوه قريب فى علوه » .

وقال : « إن الناس يقولون مازلنا نسير والقمر معنا ، مع أن القمر فى السماء ، وهم يقولون معنا فإذا كـان هذا ممكناً فى حق المخلوق كان فى حق الخالق من باب أولى » .

والمهم أننا نحن معشر أهل السـنة ما قلنا أبداً ولا نقول أن ظاهر الآية هو ما فهمتوه وأننا صرفناها عـن ظاهرها ، بل نقول إن الآية معناها أنه سبحانه مع خلقـه حقيقة ، معية تليق به ، محيـط بهم علماً ، وقدرة ، وسلطاناً ، وتدبـيراً ، وغير ذلك لأنه لا يمكن الجمع بـين نصوص المعية وبين نـصوص العلـو إلا على هذا الـوجه الذى قلـناه ، والله سبحـانه وتعالى يفسر كلامه بعضه بعضاً .

* **المثال الخامس** : قال أهل التـأويل : إنه ثبت عن الـنبى ، ﷺ ، أنه قال : قـال الله تـعالى : « مَنْ عَادَى لِي وليـا فقد آذنـته بالحـرب ، وما تقرب إليّ عـبدي بشيء أَحَبّ إِليَّ مما افترضـت عليه ، ولا يَزَال عَبْدى

يتقرب إِلىّ بالنَّوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سَمْعَهُ الذى يَسْمَعُ به، وَبصَره الذى يُبْصِر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه» .

وأنتم يا أهل السنة هل تقولون إن الله يكون سمع ، وبصر ، ويد ، ورجل من يحبه حقيقة ؟ إن لم تقولوا بذلك فقد صرفتم الحديث عن ظاهره ،لأن الله يقول : « كنت سَمْعَه الذى يَسْمَعُ به ، وَبَصَره الذى يُبْصِر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وجوابنا : أنه لا أحد يفهم أن ظاهر الحديث هو هذا ، أى أن الله يكون سمع الإنسان وبصره ، ورجله ، ويده حقيقه ، لا أحد يفهم هذا، إلا من كان بليد الفهم ، أو مظلم القلب بالتقليد ، أو بالدعوى الباطلة . فالحديث لا يدل على أن حقيقه سمع الإنسان ، وبصره ، ورجله ، ويده هو الله عز وجل وحاشاه عز وجل عن ذلك لا يدل على هذا بأى وجه من الوجوه .اقرأ الحديث : « مَنْ عَادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » . « وَمَا تَقَرَّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه».

فأثبت عابداً ومعبوداً ، ومتقرباً ومتقرباً إليه ، « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » فأثبت محبا ومحبوباً ، « ولئن سألنى لأعطينه» فأثبت سائلاً ومسؤولاً، ومعطى ومعطى «ولئن استعاذنى لأعيذنه» فأثبت مستعيذًا ومستعاذًا به ، ومن المعلوم أن كل واحد من هذين هو غير الآخر بلا ريب .

إذا تقرر هذا فكيف يمكن أن يفهم أحد من قوله تعالى فى هذا الحديث القدسى : « كنت سَمْعَهُ » أن الله سيكون جزءاً فى هذا

المخلوق الذى يتقرب إليه ، والذى يستعيذ به ، والذى يسأله ، هذا لا يمكن أحداً أن يفهمه أبداً من سياق الحديث ، وبهذا يكون معنى الحديث، وظاهر الحديث وحقيقة الحديث : أن الله سبحانه وتعالى يسدد هذا الإنسان فى سمعه ، وبصره ، وسعيه ، فلا يسمع إلا بالله ، ولله، وفى الله ، ولا ينظر إلا لله ، وبالله ، وفى الله ، ولا يبطش إلا لله ، وبالله ، ولا يمشى إلا لله ، وبالله ، وفى الله ، هذا هو معنى الحديث، وحقيقته وظاهره ، وليس فيه ولله الحمد أى شيء من التأويل.

* **المثال السادس:** قال أهل التأويل : إنكم يا أهل السنة أولتم قول الرسول ﷺ : « إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن » . حيث قلتم : إن المراد أن الله سبحانه وتعالى متصرف فى القلوب ، ولا يمكن أن تكون القلوب بين إصبعين من أصابع اليد ، فإن هذا يقتضى الحلول وأن أصابع الله حالة فى صدر كل إنسان .

قلنا : هذا كذب على السلف ، والسلف ما أولوا هذا التأويل ، ولا قالوا إن الحديث كناية عن سلطان الله تعالى ، وتصرفه فى القلوب . بل قالوا : نثبت أن لله تعالى أصابع ، وأن كل قلب من بنى آدم فهو بين إصبعين من أصابعه على وجه الحقيقة، ولا يلزم من ذلك الحلول أبداً، فإن البينية بين شيئين لا يلزم منها المماسة والمباشرة ، أرأيتم قول الله تعالى : ﴿ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] هل يلزم من ذلك التعبير أن يكون السحاب لاصقاً بالسماء والأرض ؟! لا يمكن فقلوب بنى آدم كلها ، كما قال نبينا ، ﷺ ، وهو أعلم الخلق بالله « بين إصبعين من أصابع الرحمن » ولا يلزم من ذلك أن يكون

مماساً لـهذه القلـوب بل نقول كمـا قال نبينـا ، ونقول هذا عـلى وجه الحقيقة وليس فيه تأويل .

ونثبت مع ذلك أيضاً أن الله تعالى يتصرف في هذه القلوب كما يشاء كما جاء فـى الحديث ونقول : الله مـصرف القلوب صرف قلـوبنا إلى طاعتك .

* **المثال السابع والأخير** : فهو «الحجر الأسـود يمين الله فى الأرض»، قال أهـل التأويـل : إنكم تأولـون هذا الحديـث ، لأنكم لا يمـكن أن تقولوا أن الحجر هو يد الله .

ونقول: هذا حق ، لا يمكن لأحد أن يقـول إن الحجر الأسود هو يد الله عز وجل ، ولـكن قبل أن نجيب على هذا نـقول : إن هذا الحديث باطل ولا يثبت عن النبى ، ﷺ .

قال ابن العربى : إنه حديث باطل .

وقال ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » : إنه حديث لا يصح .

وقال شيـخ الإسلام ابن تيـمية - رحمـه الله - « روى عن الـنبى ، ﷺ، بإسناد لا يثبت » .

وعلى هذا فإنه ليس وارداً على أهل الـسنة والجماعة لأنه لا يصح عن النبى ﷺ . ولكن قال شيخ الإسلام إنه مشهور عن ابن عباس ، ولكنه مع ذلك لا يـعطى المعـنى الذى قالـه هؤلاء ، وأن الحجر الأسـود يمين الله، لأنه قال : « يمين الله فى الأرض فقيده » . قال شيخ الإسلام ابن

تيمية - رحمه الله - والكلام إذا قيد ليس كالكلام المطلق ما قال : يمين الله وسكت . قال : في الأرض . ومعلوم أن يمين الله ليست في الأرض، كذلك أيضاً قال في نفس الحديث كما رواه شيخ الإسلام ابن تيمية « فمن صافحه فكأنما صافح الله » ، والتشبيه يدل على أن المشبه به ليس هو المشبه ، وإنما هو غيره .

وخلاصة القول:

أن أهل السنة والجماعة - ولله الحمد - لا يمكن أن يخرجوا الكلام عن ظاهره ، لأن ظاهر الكلام وحقيقته ما دل عليه سياقه وهو مختلف بحسب السياق ، وبحسب الأحوال ، فإن لم يمكن ذلك وأبى إنسان إلا أن يجعل معنى الكلمة معنى ذاتيا لها ، فإننا نقول لا يمكن لأهل السنة والجماعة أن يتركوا هذا المعنى الذى ادعى أنه ذاتي لها إلا بدليل من الكتاب والسنة ، ومتى دل الكتاب والسنة على شيء وجب القول به سواء وافق ما يقال إنه ظاهر اللفظ، أو خالفه . ونحن كلنا نلتمس ما قاله الله عن نفسه ، وما قاله عنه رسوله، ﷺ، ويدلكم لهذا ما ثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى يقول : « عَبْدِي جُعْتُ فلم تُطْعِمني ، عَبْدِي مَرِضْتُ فلم تَعُدْنِي ، فيقول كيف أطعمك وأنت رَبّ العالمين ، كيف أَعُودُك وأنت رب العالمين . فيقول الله عز وجل : أَمَا عَلِمتَ أَنَّ عبدى فلان جاع فلم تُطْعِمه مرض فلم تَعُدْه » .

هذا الحديث يدلنا دلالة ظاهرة على أن ما جاء في الكتاب والسنة مما أضافه إلى نفسه فهو حق على ظاهره، ما لم يرد عن الله ورسوله صرفه

عن ذلك ، فإن ورد صرفه عن ظاهره فإننا آخذون به ، وهذا الحديث الأخير دليل واضح على منع التأويل الذى ليس له دليل من الكتاب والسنة ولعلنا نقتصر على هذا خوفاً من التطويل .

* * *

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

❁ ❁ ❁

المحاضرة الرابعة:

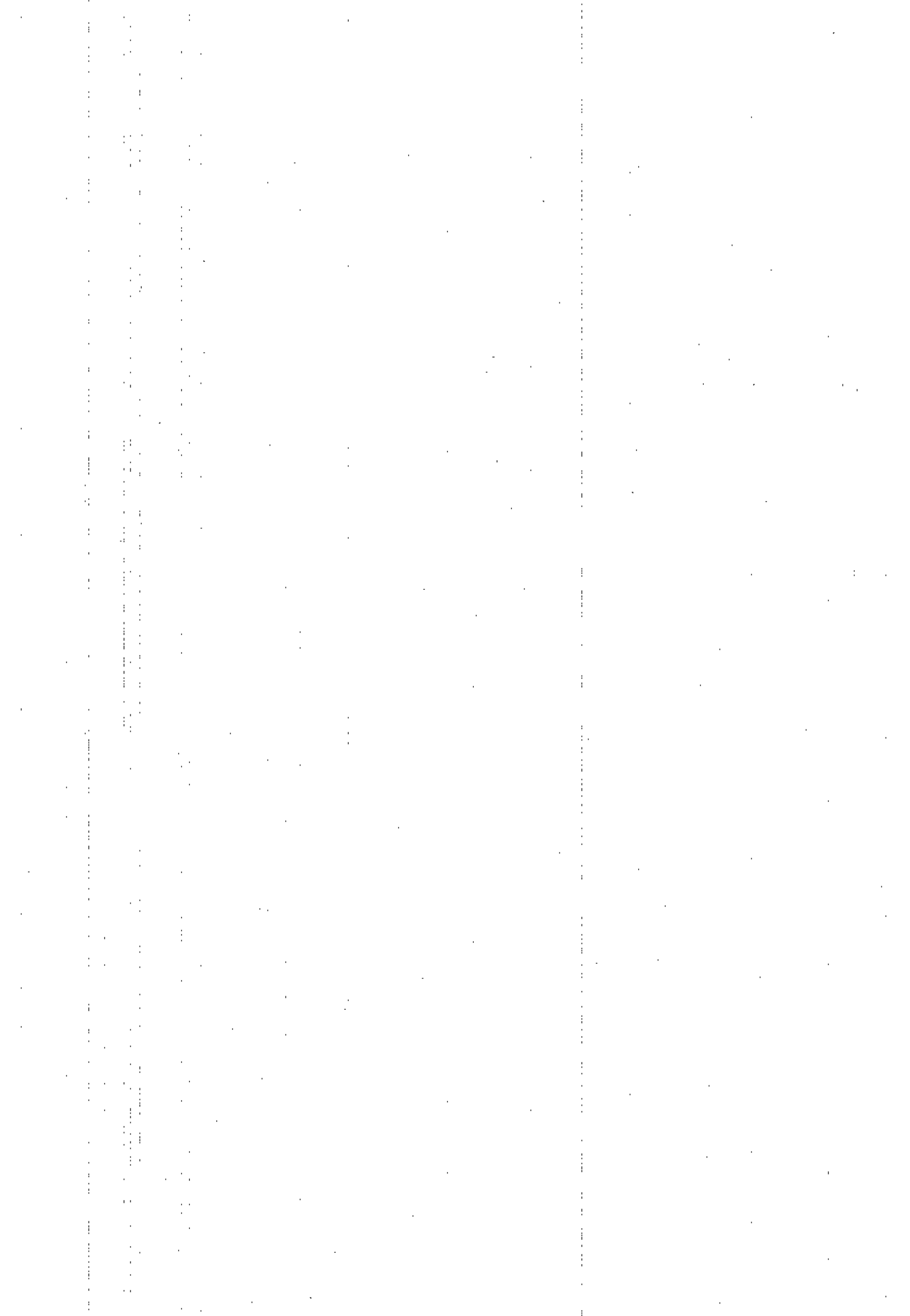
منهاج أهل السنة والجماعة

في

العقيدة والعمل

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين



منهاج أهل السُّنه والجماعة فى العقيدة والعمل

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل لـه، ومَن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله تعالى بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم من نَّفْس واحدَة وَخَلَقَ منْها زَوْجَها وَبَثَّ منْهُما رجَالاً كَثيراً وَنساءً واتَّقُوا الله الَّذى تساءَلون به وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيباً ﴾ [النساء:١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلا سَديداً يُصْلحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠ , ٧١] .

المراد بأهل السنة والجماعة وبيان طريقهم

أهل السنة والجماعة هم الذين هداهم الله تعالى لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكلنا نعلم أن رسول الله، ﷺ ، بعث بالهدى ودين الحق ، الهدى : الذى ليس فيه

(*) نشرت ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين (١٨١/٥ : ٢١٢) .

ضلالة، ودين الحق : الذى ليس فيه غواية ، وبقى الناس فى عهده على هذا المنهاج السليم القويم ، وكذلك عامة زمن خلفائه الراشدين، ولكن الأمة بعد ذلك تفرقت تفرقاً عظيماً متبايناً ، حتى كانوا على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ، وهى ما كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه ، بهذا نقول إن هذه الفرقة هى فرقة أهل السنة والجماعة وهذا الوصف لا يحتاج إلى شرح فى بيان أنهم هم الذين على الحق ؛ لأنهم أهل السنة المتمسكون بها ، وأهل الجماعة المجتمعون عليها ولا تكاد ترى طائفة سواهم إلا وهم بعيدون عن السنة بقدر ما ابتدعوا فى دين الله سبحانه وتعالى ، ولا تجد فرقة غيرهم إلا وجدتهم فرقة متفرقين فيما هم عليه من النحلة .

وقد قال سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

إذن لا حاجة لنا إلى التَّطويل بتعريف أهل السنة والجماعة . لأن هذا اللقب يبرهن على معناه برهاناً كاملاً وأنهم المتمسكون بالسنة المجتمعون عليها ونحن نلخص الكلام فى نقاط رئيسية هى:

أولاً : بيان طريق أهل السنة والجماعة فى أسماء الله تعالى وصفاته مع أمثلة توضح تلك الطريقة :

أهل السنة والجماعة طريقتهم فى أسماء الله وصفاته أنهم يعتبرون أن ما ثبت من أسماء الله وصفاته فى كتاب الله ، أو فيما صح عن

رسول الله ﷺ ، وهو حق على حقيقته يراد به ظاهره ولا يحتاج إلى تحريف المحرفين وذلك لأن تحريف المحرفين مبنى على سوء فهم ، أو سوء قصد حيث ظنوا أنهم إذا أثبتوا تلك النصوص ، أو تلك الأسماء والصفات على ظاهرها ظنوا أن ذلك إثبات للتمثيل ، ولهذا صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه ، وقد يكونون ممن لم يفهموا هذا الفهم ولكن لهم سوء قصد فى تفريق هذه الأمة الإسلامية شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن ما سمى الله به نفسه وما وصف الله به نفسه فى كتابه ، أو على لسان رسوله ، ﷺ ، فهو حق على حقيقته وعلى ظاهره ، ولا يحتاج إلى تحريف المحرفين بل هو أبعد ما يكون عن ذلك ، وهو أيضاً لا يمكن أن يفهم منه مالا يليق بالله عز وجل من صفات النقص أو المماثلة بالمخلوقين، بهذه الطريقة المثلى يسلمون من الزيغ والإلحاد فى أسماء الله وصفاته ، فلا يثبتون لله إلا ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ، ﷺ ، غير زائدين فى ذلك ولا ناقصين عنه ، ولهذا كانت طريقتهم أن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يمكن لأحد أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه ، أو أن يصف الله بما لم يصف به نفسه.

فإن أى إنسان يقول أن من أسماء الله كذا ، أو ليس من أسماء الله ، أو أن من صفات الله كذا ، أو ليس من صفات الله بلا دليل لأنه لاشك قول على الله بلا علم وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبغْىَ بِغَيْرِ الحَق وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وقالَ تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُل أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦].

ثم إن طريقتهم فى أسماء الله تعالى أن ما سمى الله به نفسه فإن كان من الأسماء المتعدية فإنهم يرون من شرط تحقيق الإيمان به ما يلى :

١ - أن يؤمن المرء بذلك الاسم اسمًا له عز وجل .

٢ - أن يؤمن بما دل عليه من الصفة سواء كانت الدلالة تضمناً أو التزاماً .

٣ - أن يؤمن بأثر ذلك الاسم الذى كان مما دل عليه الاسم من الصفة ونحن هنا نضرب مثلاً :

من أسماء الله تعالى : « السميع » يجب على طريق أهل السنة والجماعة أن يثبت هذا الاسم من أسماء الله فيدعى الله به ويعبد به فيقال مثلاً عبد السميع ويقال يا سميع يا عليم وما أشبه ذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠].

وكذلك أيضاً يثبت ما دل عليه هذا الاسم من الصفة وهى السمع فنثبت لله سمعًا عاما شاملاً لا يخفى عليه أى صوت وإن ضعف.

كما نثبت أيضاً أثر هذه الصفة وهى أن الله تبارك وتعالى يسمع كل شىء وبهذا نتفع انتفاعاً كبيراً من أسماء الله لأنه يلزم من هذه الأمور الثلاثة التى أثبتناها فى الإسم إذا كان متعدياً أن نتعبد الله بها فنحقق قول الله عز وجل : ﴿ وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠].

فأنت إذا آمنت بأن الله يسمع فإنك لن تُسمع ربك ما يغضبه عليك

لن تسمعه إلا ما يكون به راضياً عنك ، لأنك تؤمن أنك مهما قلت من قول سواء كان سرا أم علنًا فإن الله تبارك وتعالى يسمعه ، وسوف ينبئك بما كنت تقول فى يوم القيامة ، وسوف يحاسبك على ذلك على حسب ما تقتضيه حكمته فى كيفية من يحاسبهم تبارك وتعالى ، إذاً القاعدة عند أهل السنة والجماعة أن الاسم من أسماء الله إذا كان متعدياً فإنه لا يمكن تحقيق الإيمان به إلا بالإيان بهذه الأمور الثلاثة :

١ - أن نؤمن به اسمًا من أسماء الله فنثبته من أسمائه .

٢ - أن نؤمن بما دل عليه من صفة .

٣ - أن نؤمن بما يترتب على تلك الصفة من الأثر .

وبهذا يتحقق الإيمان بأسماء الله تبارك وتعالى المتعدية .

أما إذا كان الاسم لازماً فإنهم يثبتون هذا الاسم من أسماء الله ، ويسمون الله به ويدعون الله به ، ويثبتون مادل عليه الاسم من صفة على الوجه الأكمل اللائق بالله تعالى ، ولكن هنا لا يكون أثر ، لأن هذا الاسم مشتق من شيء لا يتعدى موصوفه فلذلك لا يكون أثر ، ونضرب مثلاً بـ «الحى» فإن الحى من أسماء الله عز وجل ، نثبته اسمًا لله فنقول من أسماء الله تعالى : « الحى » وندعو الله به فنقول : « يا حى ، يا قيوم» .

ونؤمن بما دل عليه من صفة ، سواء كان ذلك تضمناً ، أو التزاماً وهى الحياة الكاملة التى تتضمن كل ما يكون من صفات الكمال فى الحى من علم ، وقدرة ، وسمع ، وبصر ، وكلام وغير ذلك ، فعلى

هذا نقول إذا كـان الاسم من أسماء الله غـير متعد فإن تحقـيق الإيمان به يكون بأمرين .

أحدهما : إثباته اسماً من أسماء الله .

والثانى: إثبات ما دل عليه من الصفـة على وجه الكمال اللائق بالله تبارك وتعالى .

أما الصفات فإننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه سواء ذكر الصفة وحدها بدون أن يـتسمى بما دلت علـيه ، أو كانت هذه الصـفة مما دلت عليها أسماؤه ، فإنه يجب علينا أن نؤمـن بهذه الصفة على حقيقتها مثال ذلك : أثبـت الله تبـارك وتعالى لنـفسه أنه اسـتوى على عـرشه. وهو يخاطبنا بالقرآن النازل باللسان العربى المبين وكل الناس الذين لهم ذوق فى اللغة العربية يعلمون معنـى استوى فى اللغة العربية ولهذا قال الإمام مالك رحـمه الله تـعالى وقد سئـل عن قوله تـعالى : ﴿الرَّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] كيـف استوى ؟ فـقال : «الاسـتواء معـلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . هذا هو اللفظ المشهور عـنه واللفظ الذى نقل عنه بالسـند قال : « الاستواء غير مجهـول ، والكيف غـير معقول ، والإيمـان به واجب ، والسـؤال عنه بدعة » . وهـذا اللفظ أدق من الـلفظ الذى سـقناه قبل ، لأن كـلمة « الكيف غير معقول » تدل على أنه إذا انتفـى عنه الدليلان النقلى والعقلى فإنه لا يمكن التكلم به .

هذه الصفة من صفات الله لم يرد اسم من أسماء الله مشتق منها فلم يرد من أسمـائه المستوى ، ولكننـا نقول إنه استوى على الـعرش ونؤمن

بهذه الصفــة على الوجه اللائق به ونــعلم أن معنى الاستواء هــو العلو، فهو علو خاص بالعرش ، ليس العلو المطلق على جميع المخلوقات، بل هو عــلو خاص ولهــذا نقول فــي قوله تعــالى : ﴿اسْتَوى عَلَى الـعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] أي علا واستقــر على وجه يليــق بجلاله وعظمــته ، وليس كاستواء الإنسان عــلى البعير والكرسي مثلاً ؛ لأن اســتواء الإنسان على البعير والكرســي استواء مفتقر إلى مكانه الذى يستــوى عليه، أما استواء الله جل ذكره فــإنه ليس استواء مفتــقر ، بل إن الله تبارك وتعــالى غنى عن كل شــيء ، كل شيء مفتــقر إلى الله ، واللــه تبارك وتعالــى غنى عنه.

ومن زعم أنــه بحاجة إلى عــرش يقله فقــد أساء بربه عز وجــل فهو سبحانه وتعالى غير مفتقر إلى شيء من مخلوقاته ، بل جميع مخلوقاته مفتقرة إليه ، كذلك النزول إلى سماء الدنيا حينما يبقى ثلث الليل الآخر نؤمن به على أنه نزول حقيقى ، لكنــه يليق بالله عز وجل لا يشبه نزول المخلوقين ، ومن هنا نــقول أنه يجب على المؤمن أن يتحاشــى أمرًا يلقيه الشيطــان فى باله أمرًا خطــيراً للغاية - وهــو أمر حمل أهل البــدع على تحريف النــصوص من أجل هذا الأمر الذى يــجعله الشيطــان فى قلوب الناس - ألا وهو تخيل كيفية صفة من صفات الله ، أو تخيل كيفية ذات الله عز وجل .

فاعلم أنه لا يجوز أبدًا أن يتخيل كيــفية ذات الله ، أو كيفية صفة من صفاته ، واعلم أنك إن تخيلت أو حاولت التخيل فإنك لابد أن تقع فى أحد محذورين :

إما التحريف والتعطيل ، وإما التمثيل والتشبيه ولهذا يجب عليكم أيها الأخوة أن لا تتخيلوا أى شىء من كيفية صفات الله عز وجل ، لا أقول لا تثبتوا المعنى لأن المعنى يجب أن يثبت لكن تخيل كيفية تلك الصفة لا يمكن أن تتخيلها وعلى أى مقياس تقيس هذا التخيل .

لا يمكن أبداً أن تتخيل كيفية صفات الله عز وجل لا بالتقدير ولا بالقول يجب عليك أن تتجنب هذا لأنك تحاول ما لا يمكن الوصول إليه بل تحاول ما يخشى أن يوقعك فى أمر عظيم لا تستطيع الخلاص منه إلا بسلوك التمثيل والتعطيل وذلك لأن الرب جلت عظمته لا يمكن لأحد أن يتخيله على كيفية معينة لأنه إن فعل ذلك فقد قفا ما ليس له به علم وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء : ٣٦].

وإن تخيله على وصف مقارب بمثيل فقد مثل الله والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

وبهذا نعلم أن من أنكر صفات الله أنكرها لأنه تخيل أولاً ، ثم قالوا هذا التخيل يلزم منه التمثيل ثم حرفوا ، ولهذا نقول إن كل معطل ومنكر للصفات فإنه ممثل سبق تمثيله تعطيله . مثَّل أولاً وعطَّل ثانيًا ولو أنه قدر الله حق قدره ولم يتعرض لتخيل صفاته سبحانه ما احتاج إلى هذا الإنكار وإلى هذا التعطيل.

* * *

ثانياً : طريقة أهل السنة والجماعة فى عبادة الله :

طريقتهم أنهم يعبدون الله ، لله ، وبالله ، وفى الله .

أما كونهم يعبدون الله لله فمعنى ذلك الإخلاص يخلصون لله عز

وجل لا يـريدون بعبـادتهم إلا ربهـم لا يتقـربون إلى أحد سـواه ، إنما يبتغون إلى ربهـم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمتـه ويخافون عذابه ، ما يعبـدون الله لأن فلاناً يراهم ، وما يـعبدون الله لأنهم يعـظمون بين الناس ، ولا يعـبدون الله لأنهم يـلقبون بلقب الـعابد لكن يعـبدون الله لله.

وأمَّا كونهـم يعبدون الـله بالله أى مـستعينـين به لا يمكن أن يـفخروا بأنفسهم ، أو أن يروا أنهم مستقلون بعبادتهم عن الله ، بل هم محققون لقول الله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] يعبدون الله لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] يعبدون الله بالله. فيستعينونه على عبادته تبارك وتعالى .

ـ وأما كونهم يعـبدون الله فى الله أى فى دين اللـه، فى الدين الذى شرعه عـلى ألسنـة رسله ، وهم وأهـل السنة والجـماعة فى هـذه الأمة يعبدون الله بما شرعه على لسان رسوله محمد، ﷺ، لا يزيدون فيه ولا ينقصون منه ، فهم يعبدون الله فـى الله فى شريعته فى دينه لا يخرجون عنه لا زيادة ولا نقصًا لذلك كانت عبادتـهم هى العبادة الحقة السالمة من شوائب الشرك والبـدع ، لأن من قصد غير الله بعبـادته فقد أشرك به ، ومن تعبد الله بغير شريعته فقد ابتدع فى دينه والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

فعبادتهم لله فى دين الله لا يبتـدعون ما تستحسنه أهوائهم لا أقول ما تستحسنه عقولهم لأن العقول الصحيحة لا تستحسن الخروج عن شريعة

الله لأن لـزوم شريعة الـله مقتضـى العقل الصـريح ، ولهذا كـان الله سبحانه وتعالى ينعى على المـكذبين لرسوله عقولهم ويقول ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

لو كنا نتعبد لله بما تهواه نفوسنا وعلى حسب أهوائنا لكنا فرقاً وشيعاً كل يستـحسن ما يريد فـيتعبد للـه به وحينئذ لا يـتحقق فينـا وصف الله سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمتكُم أُمَّة وَاحِدة﴾ [المؤمنون : ٥٢].

وللنظر إلى هؤلاء الـذين يتعبدون لله بالبدع التـى ما أذن الله بها ولا أنزل بهـا من سلطـان ، كيف كانـوا فرقاً يكفـر بعضهـم بعضاً ويـفسق بعضهم بعضاً ، وهم يقولون إنهم مسـلمون لقد كفر بعض الناس ببعض فى أمـور لا تخرج الإنسـان إلى الكفـر ولكن الهـوى أصمهم وأعـمى أبصارهم .

نحن نقول أننـا إذا سرنا على هذا الخط لا نعبد الـله إلا فى دين الله فإننـا سوف نكون أمة واحـدة ، لو عبدنا اللـه تعالى بشـرعه وهداه لا بهوانا لكنا أمة واحدة فشريعة الله هى الهدى وليست الهوى .

إذًا لو أن أحدًا من أهل البدع ابتدع طريقة عقيدة (أى تعود للعقيدة) أو عملية (تعود إلى العمل) من قول أو فعل ، ثم قال إن هذه حسنة . والنـبى ، ﷺ ، يـقول : « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سـنَّة حَسَنَة فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَن عَمِل بِها إِلى يوم القـيامة » . قلنا له بكل بسـاطة هذا الحسن الذى ادعيت أنـه ثابت فى هذه البـدعة هل كان خافيـاً لدى الرسول، عليه الصـلاة والسلام ، أو كان معلوماً عنـده لكنه كتمه ولم يطـلع عليه

أحد من سلف الأمة حتى ادخر لك علمه ؟! .

والجواب : إن قال بالأول فشر وإن قال بالثانى فأطم وأشر .

فإن قال : إن الرسول ، عليه الصلاة والسلام لا يعلم حسن هذه البدعة ولذلك لم يشرعها .

قلنا : رميت رسول الله ، ﷺ ، بأمر عظيم حيث جهلته فى دين الله وشريعته.

وإن قال إنه يعلم ولكن كتمه عن الخلق .

قلنا له : وهذه أدهى وأمر لأنك وصفت رسول الله ، ﷺ ، الذى هو الأمين الكريم وصفته بالخيانة وعدم الجود بعلمه ، وهذا أشر من وصفه بعدم الجود بماله، مع أنه ، ﷺ ، كان أجود الناس ، وهنا شر قد يكون احتمالاً ثالثاً بأن الرسول، ﷺ ، علمها وبلغها ولكن لم تصل إلينا ، فنقول له وحينئذ طعنت فى كلام الله عز وجل لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] وإذا ضاعت شريعة من شريعة الذكر فمعنى ذلك أن الله لم يقم بحفظه بل نقص من حفظه إياه بقدر ما فات من هذه الشريعة التى نزل من أجلها هذا الذكر.

وعلى كل حال فإن كل إنسان يبتدع ما يتقرب به إلى ربه من عقيدة أو عمل قولى أو فعلى فإنه ضال لقول رسول الله ، ﷺ ، « كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَة» وهذه كلية عامة لا يستثنى منها شىء إطلاقاً فكل بدعة فى دين الله فإنها ضلالة وليس فيها من الحق شىء فإن الله تعالى يقول : ﴿فَمَاذَا

بَعْدَ الحَق إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : ٣٢].

ثم نقول إن الحديث لا يدل على كل بدعة بل قال : « من سن فى الإسلام » وما خرج عن شريعة الرسول ليس من الإسلام بل قد قال : « من سن فى الإسلام سنة حسنة» وبهذا نعرف أنه لابد أن تكون هذه السنة مما أثبته الإسلام وإلا ليست سنة فى الإسلام ومن علم سبب الحديث الذى ذكرناه علم أن المراد بالسنة المبادرة بالعمل أو السبق إلى تنفيذ سنة كان أسبق الناس بها لأن سبب الحديث معلوم وهو أن جماعة جاؤا إلى النبى ، ﷺ ، وكانوا فقراء فحث المسلمين على التصدق عليهم فأتى رجل من الأنصار بصرة قد أثقلت يده فوضعها بين يديه، ﷺ، فقال : « مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّه حَسَنَة فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَن عَمِلَ بها » . وبهذا عرفنا المراد أن من سنها ليس من شرعها لكن من عمل بها أولاً لأنه بذلك أى بعمله أولاً يكون هو إماماً للناس فيها فيكون قدوة خير وحسنة فيكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ولا يرد على ذلك ما ابتدع من الوسائل الموصلة إلى الأمور المشروعة فإن هذه وإن تلجلج بها أهل البدع وقعدوا بها بدعهم فإنه لا نصيب لهم منها ، إلا أن يكون الراقم على الماء له نصيب من الحروف بارزة فى الماء. أقول أن بعض الناس يستدلون على تحسين بدعهم التى ابتدعوها فى دين الله والتى يلزم منها ما سبق ذكره بما أحدث من الوسائل لغايات محمودة.

احتجوا على ذلك بجمع القرآن ، وبتوحيده فى مصحف واحد وبالتأليف ، وببناء دور العلم وغير ذلك مما هو وسائل لا غايات ،

فهناك فرق بين الشـىء الذى يكون وسيلة إلى غاية محمـودة مثبتة شرعاً لكنها لا تتحقق إلا بفعل هذه الوسيلـة فهذه الوسيلة طبعاً تتجدد بتجدد الزمن وتختلف باختلاف العصور ، هاهو قوله عز وجل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] وإعداد الـقوة علـى عهده عـليه الـصلاة والسلام غير إعداد القوة فى زمننا هذا فإن مـا أحدثنا عملاً معيناً نتوصل به إلى إعداد القوة فإن هذه بدعة وسيلة وليست بدعة غاية يتقرب بها إلى الله ولـكنها بـدعة وسيلة ، ومـن القواعد المقـررة عند اأهل الـعلم أن للوسائل أحكام المقاصد وبهذا نعرف أن ما تلجلج به مبتدع الحوادث فى دين الله باستدلالـهم بمثل هذه القضايا أنه ليس لهـم فيها دليل أبدًا لأن كل ما حصل فهو وسائل لغايات محمودة .

فجمـع القرآن من تـصنيف وما أشـبه ذلك كلـه وسائل لغـايات هى مشروعة فى نفسها فيجب على الإنـسان أن يفرق بين الغاية والوسيلة فما قصد لـذاته فقد تم تشريـعه من عند الرسـول عليه الصلاة والـسلام بما أوحاه الله إليه من الـكتاب العظيم ومن السنة المطهرة ولـدينا ولله الحمد آية نتلوها فى كتاب الـله. وهى قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فلو كـان فى المحدثات ما يكمل به الدين لكانت قد شرعت وبينت وبلغت وحفظت، ولكن ليس فيها شىء يكون فيه كمال الدين بل نقص فى دين الله .

قد يقول بعض الناس أننا نجد فـى هذه الحوادث نجد عاطفة دينية ورقة قلبية واجـتماعاً عليها فنقـول إن الله تعالى أخبر عن الشـيطان أنه قال : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾

[الأعراف:١٧] يزينها الشيطان فى قلب الإنسان ليصده عما خلق له ، عن عبادة الله التى شرع فترضخ النفس بواسطة تسلط الشيطان على المرء حتى يصده عن دين الحق ، وقد أخبر الرسول ، ﷺ ، بأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، بل فى القرآن قبل ذلك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٩٩ ، ١٠٠] فجعل الله للشيطان سلطاناً على من تولاه وأشرك به أى جعل لله شريكاً به بواسطة الشيطان وكل من جعل له متبوعاً فى بدعة من دين الله فقد أشرك بالله عز وجل وجعل هذا المتبوع شريكا لله تعالى فى الحكم .

وحكم الله الشرعى والقدرى لاشريك له فيه أبداً ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاه ﴾ [يوسف: ٤٠] وركزت على هذا الأمر لكى يعلم أهل الإحداث المحدثون أنه لا حجة لهم فيما أحدثوه ، واعلم رحمك الله أنه لا طريق إلى الوصول إلى الله عز وجل وإلى دار كرامته إلا من الطريق الذى وضعه هو سبحانه وتعالى على لسان رسوله ، ﷺ .

﴿ لِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠] لو أن ملكاً من الملوك فتح بابًا للدخول عليه وقال من أراد أن يصل إلىَّ فليدخل من هذا الباب فما ظنكم بمن ذهب إلى أبواب أخرى هل يصل إليه . كلا بالطبع .

والملك العظيم ، ملك الملوك ، وخلق الخلق جعل طريقًا إليه خاصا بما جاءه به رسله وعلى رأسهم خاتمهم محمد ،ﷺ ، الذى بعد بعثه لا يمكن لأى بشر أن ينال السعادة إلا من طريقه ، ﷺ .

والحقيقة أن تعظيم الرسول ، ﷺ ، وأن الأدب مع الرسول ، ﷺ، أن نسلك ما سلك ، ونذر ما ترك ، وأن لا نتقدم بين يديه فنقول في دينه ما لم يقل ، أو نحدث في دينه ما لم يشرع .

هل من محبة الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيمه أن نحدث في دينه شيئاً يقول هو عنه « كل بِدْعة ضَلالَة » . ويقول : « مَن عَمِلَ عَملاً لَيْسَ عَلَيْه أمْرُنَا فَهُو رَدٌّ» . هل هذا من محبة الرسول ؟! هل هذا من محبة الله عز وجل ؟! أن تشرع في دين الله مالم يشرع ؟ ﴿قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحببكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] .

* * *

ثالثاً : طريقة أهل السنة والجماعة في حق الرسول ﷺ:

من المعلوم أنه لا يتم الإسلام إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والشهادة لا تتحقق إلا بثلاثة أمور :

١ - عقيدة في القلب .

٢ - نطق في اللسان .

٣ - عمل في الأركان .

ولهذا يقول المنافقون للرسول عليه الصلاة والسلام إذا جاؤه نشهد إنك لرسول الله . ويقول الباري جل ذكره فيهم : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] لماذا؟ لأن هذه الشهادة فقد منها أعظم ركن فيها وهو العقيدة فهم يقولون بألسنتهم مالا يعتقدونه في قلوبهم ، فمن قال أشهد أن محمداً رسول الله ولكن قلبه خال من هذه الشهادة فإنه لم

يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله .

ومن اعتقد ذلك ولم يقله بلسانه فإنه لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .

ومن قال ذلك لكن لم يتبعه في شريعته فإنه لم يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله . وكيف تخالفه وأنت تعتقد بأنه رسول رب العالمين وأن شريعة الله هو ما جاء به ؟! .

كيف تقول إنك شهدت أن محمداً رسول الله على وجه التحقيق . لهذا نعتقد أن كل من عصى الله ورسوله فإنه لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .

لست أقول إنه ما يشهد ولكنه لم يحقق وقد نقص من تحقيقه إياه بقدر ما حصل منه من مخالفة .

إذًا طريقة أهل السنة والجماعة في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام الشهادة له بقلوبهم ، وألسنتهم ، وأعمالهم أنه رسول الله كذلك أيضاً يحبونه حب تقدير وتعظيم حبا تابعا لمحبة الله عز وجل .

وليسوا يحبونه من باب التعبد له بمحبته لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتعبد لله به - أي بشرعه - ولكنه لا يعبد هو .

فهم يحبون الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه رسول رب العالمين . ومحبتهم له من محبة الله تبارك وتعالى، ولولا أن الله أرسل محمدًا بن عبد الله القرشي الهاشمي لكان رجلاً من بني هاشم لا يستحق هذه المرتبة التي استحقها بالرسالة .

إذًا نحن نحبه ونعظمه لأننا نحب الله ونعظمه فمن أجل أنه رسول الله وأن الله تبارك وتعالى هدى به الأمة حينئذ نحبه فالرسول عليه الصلاة والسلام عند أهل السنة والجماعة محبوب ، لأنه رسول رب العالمين ، ولا شك أنه أحق الناس ، بل أحق الخلق وأجدرهم بتحمل هذه الرسالة العظيمة عليه الصلاة والسلام .

كذلك أيضاً يعظمون الرسول عليه الصلاة والسلام حق التعظيم ويرون أنه أعظم الناس قدرًا عند الله عز وجل .

لكن مع ذلك لا ينزلونه فوق منزلته التى أنزله الله ، يقولون إنه عبد الله ، بل هو أعبد الناس لله عز وجل حتى إنه يقوم حتى تتورم قدماه فيقال كيف ذلك وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول : « أفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شكُورًا » .

من يحقق العبادة كتحقيق الرسول عليه الصلاة والسلام ولهذا قال : « إِنِّى وَالله أَخْشَاكُم للهِ وأَعْلَمُكم بِمَا أَتَّقِى » . فهو بلاشك أعظم العابدين عبادة وأشدهم تحقيقاً لها صلى الله عليه وسلم ، ولهذا حين تحدث عن البصل والكراث قال المسلمون حرمت فقال : « أيها النَّاس إِنَّه ليس لى تَحْرِيم مَا أَحَلَّ الله » .

انظروا إلى هذا الأدب مع الله عز وجل هكذا العبودية ، ولهذا هم يقولون إن رسول الله ، ﷺ ، عبد من عباد الله ، وهو أكمل الناس فى عبوديته لله .

ويؤمنون أيضاً بأن الرسول ، ﷺ ، لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله

عليه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعًا ولا لـغيره والله تعالى قد أمره أن يبلغ ذلك إلى الأمة فقال : ﴿ قُلْ لا أقُولُ لكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللـه ولا أعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ومـا هى وظـيـفـته ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . ومـن زعـم أن الرسول عليـه الصلاة والسلام يعلم شيـئاً من الغيب غير ما أطـلعه الله عليه فهو كافر بالله ورسوله ، لأنه مكذب لله ورسوله .

فإن الرسول أمر أن يقول وقال : قال قولاً يتلى إلى يوم القيامة قوله: ﴿قُلْ لا أقولُ لكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ولا أقُولُ لكُمْ إنى مَلَكٌ﴾.

وبمناسبة هذه الآية الكريمة أود أن أقـول إن القرآن الكريم أحياناً تصدر الأخبار فيه بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ وكل شيء صدر بـهذه الكلمة معـناه أن الله سبـحانه وتعـالى اعتنـى به عنايـة خاصة لأن الرسـول ، عليه الـصلاة والسلام، قد أمر أن يقول كل القرآن . ﴿ يَا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن ربكَ ﴾ [المائدة:٦٧] لكن هذا الذى خص بكلمة ﴿قُلْ﴾ فيه عناية خاصة استحق أن يـصدر بالأمر بالتبلـيغ على وجه الخصوص ، مـثل هذه الآية ومثلها فى الأحكام ﴿ قُلْ للمؤْمنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ﴿وَقُلْ للمُؤمِنَاتِ يغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] والأمثلة كثيرة فى القرآن. إذن الرسول ، علـيه الصلاة والسلام لا يعـلم الغيب إلا ما أطلـعه الله ولا يملك لنفسه ضرا ولا نـفعًا بل ولا لغيره أيضاً ﴿ قُلْ إِني لا أَمْلكُ لَكُمْ ضَرا وَلا رَشَدًا ﴾ [الجن:٢١] ﴿ قُلْ إِنى لَن يُجِيرنِى مِنَ الـلهِ أَحَدٌ ﴾ [الجن:٢٢] لو أراد الله بى شيئاً ما أجارنى أحد منه ولن أجد من دونه ملتحداً .

ويعتقدون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، بشر ليس له من شئون الربوبية شيء ولا يعلم الغيب إلا ما أطلعه عليه حتى إنه عليه الصلاة والسلام يسأل أحياناً عن شيء من الأحكام الشرعية فيتوقف حتى يأتيه الوحى ، حتى إنه أحياناً يصدر القول فيأتيه الإستثناء أو الاستدراك من عند الله عز وجل فقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الشهادة هل تكفر كل شيء ؟ فقال : « نعم » . ثم قال : «أين السائل ؟ » فقال: « إلا الدَّين أخبرنى بذلك جبريل آنفًا » . أحياناً يجتهد عليه الصلاة والسلام ولكن يأتيه الوحى من الله عز وجل بأن الخير فى كذا وكذا خلاف ما اجتهد فيه ﷺ . إذن الرسول عليه الصلاة والسلام عبد عابد لله عز وجل وليس له من شئون الربوبية شيء هذا هو قول أهل السنة والجماعة فى رسول الله ﷺ .

يعتقد أهل السنة والجماعة أيضاً أن رسول الله ، ﷺ ، بشر تجوز عليه كل الخصائص البشرية والجسدية فينام ، ويأكل ، ويشرب ، ويمرض، ويتألم، ويحزن، ويرضى، ويغضب عليه الصلاة والسلام، ويموت كما يموت الناس. ﴿إِنَّكَ مَيتٌ وَإِنَّهُم ميتُونَ ثُمَّ إنكم يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِل انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ولا ريب أن رسول الله ، ﷺ ، قد مات ميتة جسدية . فارقت روحه جسده فيها ، وقام أهله وأصحابه بما يقومون به فى غيره من شئون الموتى، سوى أنه عليه الصلاة والسلام لم يجرد عند تغسيله والمعروف أنه لم يُصَلَّى عليه جماعة إنما كان الناس يصلون عليه

أفرادًا لأنه الإمام عليه الصلاة والسلام .

ومن زعم أنه حى فى قبره حياة جسدية لا حياة برزخية وأنه يصلى ويصوم ويحج وأنه يعلم ما تقوله الأمة وتفعله فإنه قد قال قولاً بلا علم فالرسول عليه الصلاة والسلام انقطع عمله بموته كما قال هو نفسه : «إذا مَاتَ الإنسان انْقَطَع عَمَلُه إلا من ثَلاث، صَدَقَةٌ جَارِية، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ به، أو ولد صَالِحٌ يَدْعو له » .

فعمله الذى يعمله بنفسه انقطع بموته ولكن لا شك أن كل علم علمناه من شريعة الله فإنه بواسطته عليه الصلاة والسلام وحينئذ فيكون منتفعاً من كل هذه العلوم التى علمناها بعد موته ﷺ ، وكذلك الأعمال الصالحة التى نعملها كانت بدلالته ﷺ ، فيكون له مثل أجر العاملين.

* * *

رابعاً : طريقة أهل السنة والجماعة فى حق الصحابة رضى الله عنهم:

أهل السنة والجماعة يعرفون للصحابة قدرهم ، وأنهم خير القرون بشهادة النبى ، ﷺ ، فإنه ﷺ ، قال : فيما ثبت عنه من حديث عمران بن حصين : « خَير النَّاس قَرْنـى ، ثمَّ الَّذين يَلُونهم ، ثُمَّ الذين يَلُونَهم ، ثم الذين يَلونَهم » فالصحابة خير هذه الأمة بلاشك ولكنهم على مراتب بعضهم أفضل من بعض .

قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَة مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلوا وكُلا وَعَدَ اللهُ الحُسنَى﴾ [الحديد: ١٠]

وقال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِى القَاعدُونَ مِنَ المُؤْمِنينَ غَيْرُ أُولى الضَّرَرِ

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

ولكن هذه المراتب وهذه الفضائل يـجب أن نعرف أن الواحد فيهم له مرتبة على الإطلاق وله مرتبة خـاصة . أى أنه قد يكون أفضل من غيره على سبيل العـموم والإطلاق ويكون فى غيره خصلة هو أفـضل منه فيها وأهل السـنة والجماعة يـقولون : إن أفضل الصـحابة الخلفـاء الأربعة ، وأفضلـهم أبو بكـر ، ثم عمر ، ثم عـثمان ، ثم علـى يرتبونـهم فى الفضل حـسب ترتيبهم فى الخـلافة ، ولكن لا يلزم من كـون أبى بكر أفضل الصحابة ألا يتميز أحد من الصحابة عن أبى بكر بمنقبة خاصة .

وقد يكون لـعلى بن أبى طالب منـقبة ليست لأبى بكـر ، وقد يكون لعمر منقبـة ليست لأبى بكر ، كذلك قد يكون لعـثمان ، ولكن الكلام على الفضـل المطلق والمرتبة الكليـة العامة فإن مراتب الصحابـة تختلف اختلافاً اتفق عليه أهل السنـة والجماعة وهو دلالة القرآن ، ودلالة السنة أيضاً .

فإن خالـد بن الوليـد وعبد الرحـمن بن عوف تـنازعا فى أمـر فقال النـبى، ﷺ ، لخالـد : « لا تَسُبُّوا أَصْحَابِى فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُد ذَهبا مَا بَلَغ مدّ أَحَدِهِم وَلا نَصِيفه » .

كذلك أيضاً أهل السنة والجماعة يـقولون : إن بعض الصحابة له مزية ليست لغيرهم فيجب أن ننزلهم فى منازلهم ، فإذا كان الصحابى من آل بيت الـرسول عليه الـصلاة والسلام كعـلى بن أبى طالـب ، وحمزة ، والعباس ، وابن عباس وغـيرهم فإننا نحبه أكثر من غـيره من حيث قربه

من الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا على سبيل الإطلاق . فنعرف له حقه بقرابته من رسول الله ، ﷺ ، ولكنه لا يلزم من ذلك أن نفضله على غيره تفضيلاً مطلقاً ممن له قدم راسخ فى الإسلام أكثر من هذا القريب من الرسول ﷺ ، لأن المراتب والفضائل هى صفات يتميز الإنسان بصفة منها لا يتميز بها الآخر .

وأهل السنة والجماعة فى آل البيت لا يغلون غلو الروافض، ولا ينصبون العداوة لهم نصب النواصب ، ولكنهم وسط بين طرفين ، يعرفون لهم حقهم بقرابتهم من الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم لا يتجاوزون بهم منزلتهم .

* * *

خامساً : طريقة أهل السنة والجماعة فى حق الأولياء والأئمة :

أئمة هذه الشريعة الإسلامية ولله الحمد أئمة مشهورون أثنت عليهم الأمة وعرفت لهم قدرهم ، ولكنها لا تعتقد فيهم العصمة ، فليس عند أهل السنة والجماعة أحد معصوم من الخطأ ولا من الإقرار على الخطأ إلا الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه معصوم من الإقرار على الخطأ . أما غيره مهما بلغت إمامته فإنه ليس معصوماً أبدًا ، كل يخطىء وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ، ﷺ ، الذى أمرنا الله تعالى بطاعته على الإطلاق .

فهم يقولون لاشك أن فى هذه الأمة أئمة ، ولاشك أن فيها أولياء ولكننا لا نريد بذلك أن نثبت العصمة لأحد من هؤلاء الأئمة ، ولا أن

نثبت لأحد من الأوياء أنه يعلم الغيب أو يتصرف فى الكون ، وهم أيضاً لا يجلعـون الولى من قال عن نفسـه أنه ولى أو أتى بالدعايات الـباطلة لأجل أن يجلب الناس إليه يقولون إن الولى بينه الله تعالى بقوله :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ، ٦٣] هؤلاء الأولياء : الذين آمنوا ، وكانوا يتقون . فالإيمان: العقيدة . والتقوى : العمل قولاً كان أو فعلاً ، وأخذ شيخ الإسلام من هذه الآية عبـارة طيبة وهى قوله : « من كـان مؤمنًا تقيا كان لـله وليا » هذا الولى حقيقة ، لا الولى الذى يجـلب الناس إليه ، ويجمع الحاشية ويقول أنا أفعل ويستعين بالشياطين على معرفة الخفى ، ثم يبهر الناس بما يقـول فيقولـون هذا ولى. لا لأن الـولاية تكـون باتباع الـرسول علـيه الصلاة والسلام، وبإيمانه وتقواه . فإن كان مؤمناً تقيا فهو ولى .

ولكن هؤلاء الأولياء أيضاً لا يلزم فى كل ولى أن يجعل الله له كرامة فما أكثر الأولياء الذين لا كرامة لـهم ، لأن الكرامة فى الغالب لا تأتى إلا لنصر حق أو دفع باطل لا لتثبيـت شخص بعينه فلا يلزم إذًا أن يكون لكل ولى كرامة . قد يحيى الولـى ويموت وليس له كرامة وقد يكون له كرامات متعددة وهذه الكرامات كما قال أهل العلم كل كرامة لولى فإنها آية للنـبى الذى اتبعه ، ولا أقـول «معجزة» لأن الأولى أن تسـمى آية ، لأن هذا التعبير الـقرآنى والآية أبلغ من المعجزة لأن الآية معـناها العلامة على صدق ما جاء به هذا الرسول، والمعجزة قد تكون على يد مشعوذ أو على يد إنسان قوى يفعل ما يعجز عنه غيره ، لكن التعبير بـ « الآية » أبلـغ وأدق وهى التـعبيـر القرآنى فـنسمـى المعجـزات بالآيات هـذا هو

الصواب .

يوجد أناس حسب مـا نسمع فى هذه الأمة يدعون أنهـم أولياء ولكن من تأمل حالهـم وجد أنهم بعيدون عن الولاية ، وأنه لاحـظ لهم فيها لكن لهم شياطين يعينونهم علـى ما يريدون فيخدعون بذلك البسطاء من الناس .

* * *

سادساً : طريقة أهل السنة والجماعة فى إصلاح المجتمع :

يرى أهل السنـة والجماعة أن المجتمع الإسلامى لا يـكمل صلاحه إلا إذا تمشـى مع ما شرعـه الله سـبحانـه وتعالى لـه ، ولهذا يـرون الأمر بالمعروف والـنهى عن المنكـر، والمعروف : كل ما عرفـه الشرع وأقره ، والمنكر : كل ما أنكره الشرع وحـرمه فهم يرون أن المجتمع الإسلامى لا يصلح إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المـنكر . لأننا لو فقدنا هذا المقوم لحصل التفـرق ، كما يشير إليه قـول الله عز وجل: ﴿ وَلْتَكُن منـكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخيـر وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِيـنَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَـلَفُـوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم الـبَيِّنـاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ، ١٠٥].

وهذا المـقوم ولـلأسف فـى هذا الـوقت ضـاع أو كاد لأنـك لا تجد شخصًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنـكر حتى في المحيط القليل المحصور إلا ما ندر .

وإذا ترك الناس هكذا كل إنسان يعمـل ما يريد تفرق الناس ولكن إذا

تآمروا بالمعـروف وتناهوا عن المنكر صاروا أمة واحـدة ولكن لا يلزم إذا رأيت أمرًا معروفـاً أن يكون معروفًا عند غيـرك ، إلا فى شىء لا مجال للاجتـهاد فيه إنما ما لـلإجتهاد فيـه مجال فقد أرى أن هذا مـن المعروف ويرى الآخر أنه ليس منه وحينئذ يـكون المرجع فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله ، ﷺ .

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْء فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُول إِنْ كُنـتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ﴾ [النساء:٥٩] ولكـن طريقـة أهل السنـة والجماعـة فى هذا الـباب العظيم الذى فضلت فيه هذه الأمة على غيرها أنهم يرون الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكـر من مقومات المجـتمع الإسلامى ولـكنه يحـتاج إلى أمور:

أولاً : أن يكون الإنسان عالماً بالحكم بحيث يعرف أن هذا معروف وأن هذا منكر، أما أن يأتى عن جهل ثم يأمر بشىء يراه معروفاً فى ظنه وهو ليس بمـعروف فهذا قـد يكون ضره أكبـر من نفعـه ، لذلك لو فـرضنا شخصـاً تربى فى مـجتمع يـرون أن هذه البدعـة معروف ثم يـأتى إلى مجتمع جديد غيـره يجدهم لا يفعلونها فيقوم وينكر عـليهم عدم الفعل ويأمرهم بها فهذا خطأ ، فلا تأمر بشىء إلا حيث تعرف أنه معروف فى شريعة الله ، ليس بعقيدتك أنت ومـا نشأت عنه فلابد من معرفة الحكم وأن هذا معروف حتى تأمر به وكذلك المنكر .

ثانياً : لابد أن تعلم أن هذا المعروف لم يفعل ، وأن هذا المنكر قد فعل ، وكم من إنسان أمر شـخصاً بمعروف فإذا هو فاعله فـيكون فى هذا الأمر عبئاً على غيره وربما يضع ذلك من قدره بين الناس .

وإذا رأينا هدى النبى ، ﷺ ، وجدنا أن هـذه طريقته دخل رجل يوم الجمعة والنـبى ، ﷺ ، يخطب وجلس فقال النـبى ، ﷺ : « أصليت ؟» قال لا . قال: «فـقم فَصَل ركعتين» صلاة الـركعتين لداخل المسجد من المعروف ولاشك ولـكن الرسول ، عليه الصلاة والـسلام ما أمره به مباشرة حتى علم أنه لم يفعله فأنت قد تأمر هذا الرجل أن يفعل شىء، وإذا هو قد فـعله فتـتسبب إلى الـتعجل وعـدم التريث وتحـط من قدرك ولكن اسأل وتحقق إذا لم يفعل حينئذ تأمر به .

وكذلك أيضاً بالنسبة للمعاصى فبعض الناس قد ينهى شخصاً عما يراه منكرًا وليس بمنكر .

مثال ذلك:

رأيت رجلاً يصـلى الفريضة وهو جالـس فنهيته بأن لـيس له حق أن يصلى وهو جالس . فهذا غير صـحيح لكن اسأل أولاً لماذا جلس ، قد يكون له عذر فى جلوسه وأنت لا تعلم حينئذ تكون متسرعاً ويكون ذلك ناقصًا من قدرك ، هذا أمر أيضاً لابد منه . أن تعرف الحكم الشرعى ، وأن تعرف الحال التى علـيها المأمور والمنهى حتى تكون عـلى بصيرة من أمرك .

ثالثاً : أن لا يـترتب على فعل المعـروف ما هو منكر أعظـم مفسدة من منفعة المعروف ، فإن ترتب على فـعل المعروف منكر هو أشد ضرراً من المنفعة الحاصلة بهذا المعروف فـإن درأ المفاسد أولى من جلب المصالح ، وهذه الكلمة المعروفة هى القاعدة التى دل عليها القرآن ليست أيضاً على

إطلاقها أى أنه ليست كل مفسدة درؤها أولى من جلب مصلحة ، بل إذا تكافئت مع المصلحة فدرء المفسدة أولى ، وإذا كانت أعظم من المصلحة فدرء المفسدة أولى ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدعُونَ مِن دونِ اللـه فَيَسُبُّوا اللـه عَدْوا بِغَيْرِ عِلْم ﴾ [الأنعام:٥٢] فَسَبُّ آلهة المشركين كُل يعلم أنه مصلحة وأن فيه خيراً لكن إذا تضمنت هذه المصلحة ما هو أنكر - وأنكر من باب التفاضل الذى ليس فى الطرف الآخر منه شىء - إذا تضمن مفسدة عظيمة فإنها تترك ، لأننا إذا سببنا آلهتهم ونحن نسبها بحق سبوا الله عدواً بغير علم .

فهذه نقطة ينبغى أن نتفطن لها عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،أما إذا كانت المفسدة تنغمر فى جانب المصلحة ، فإننا نفضل المصلحة ولا يهمنا وهذا عليه شىء كثير من أحكام الله الشرعية والكونية.

فمثلاً هذا المطر الذى ينزل وفيه مصلحة عامة لكن فيه ضرراً على إنسان بنى سقفه الآن وجاء المطر فأفسده لكن هذه المفسدة القليلة منغمرة فى جانب المصلحة العامة . وهكذا أيضاً الأحكام الشرعية كالأحكام الكونية وهذا أمر ينبغي التنبه له ، وهو أننا قد لا يكون من المصلحة أن ننهى عن هذا المنكر لأنه يتضمن مفسدة أكبر ولكننا نتريث حتى تتم الأمور.

ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بالتدرج فى التشريع حتى يقبلها الناس شيئاً فشيئاً ، وهكذا المنكر لابد أن نأخذ الناس فيه بالمعالجة حتى يتم الأمر هذه هى الثلاثة الأمور :

١ - العلم بالحكم .

٢ - العلم بالحال .

٣ - أن لا يترتب على فعل المعروف منكر أعظم مفسدة .

* * *

سابعاً : قول أهل السنة والجماعة فى الإيمان:

الإيمان حقيقته عند أهل السنة والجماعة هو : « اعتقاد القلب، وقول اللسان ، وعمل الجوارح » . ويستدلون لقولهم هذا بقول النبى ، ﷺ: « إنَّ الإيمان بِضْع وَسَبْعُون شعبة أَعْلاها قول لا إله إلا الله ، وأدْنَاها إمَاطة الأذى عن الطَّريق ، والحياء شُعْبَة من الإيمان » . فالقول قول اللسان « لا إله إلا الله » ، وعمل الجوارح وعمل القلب « الحياء » «وإماطة الأذى عن الطريق » .

أما عقيدة القلب فقوله ، ﷺ : « الإيمانُ أن تُؤمن بِاللهِ وَمَلائكَته وكُتبه وَرُسله ، وَاليوم الآخِرِ ، والقَدَر خَيْره وَشَرّه » .

وهم أيضاً يقولون إن الإيمان يزيد وينقص ، فالقرآن قد دل على زيادته والضرورة العقلية تقتضى أن كل ما ثبت أنه يزيد فهو ينقص إذ لا تعقل الزيادة بدون نقص ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ المدثر:٣١] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إِيمَانًا ﴾ [التوبة:١٢٤] ولاشك فى ذلك ، ومتى قلنا إن الإيمان قول وعمل فإنه لا شك أن الأقوال تختلف فليس من قال : «سبحان الله والحمد لله ، والله أكبر » مرة كمن قالها أكثر ، وكذلك أيضاً نقول إن الإيمان الذى هو عقيدة القلب يختلف قوة وضعفاً وقد قال إبراهيم عليه

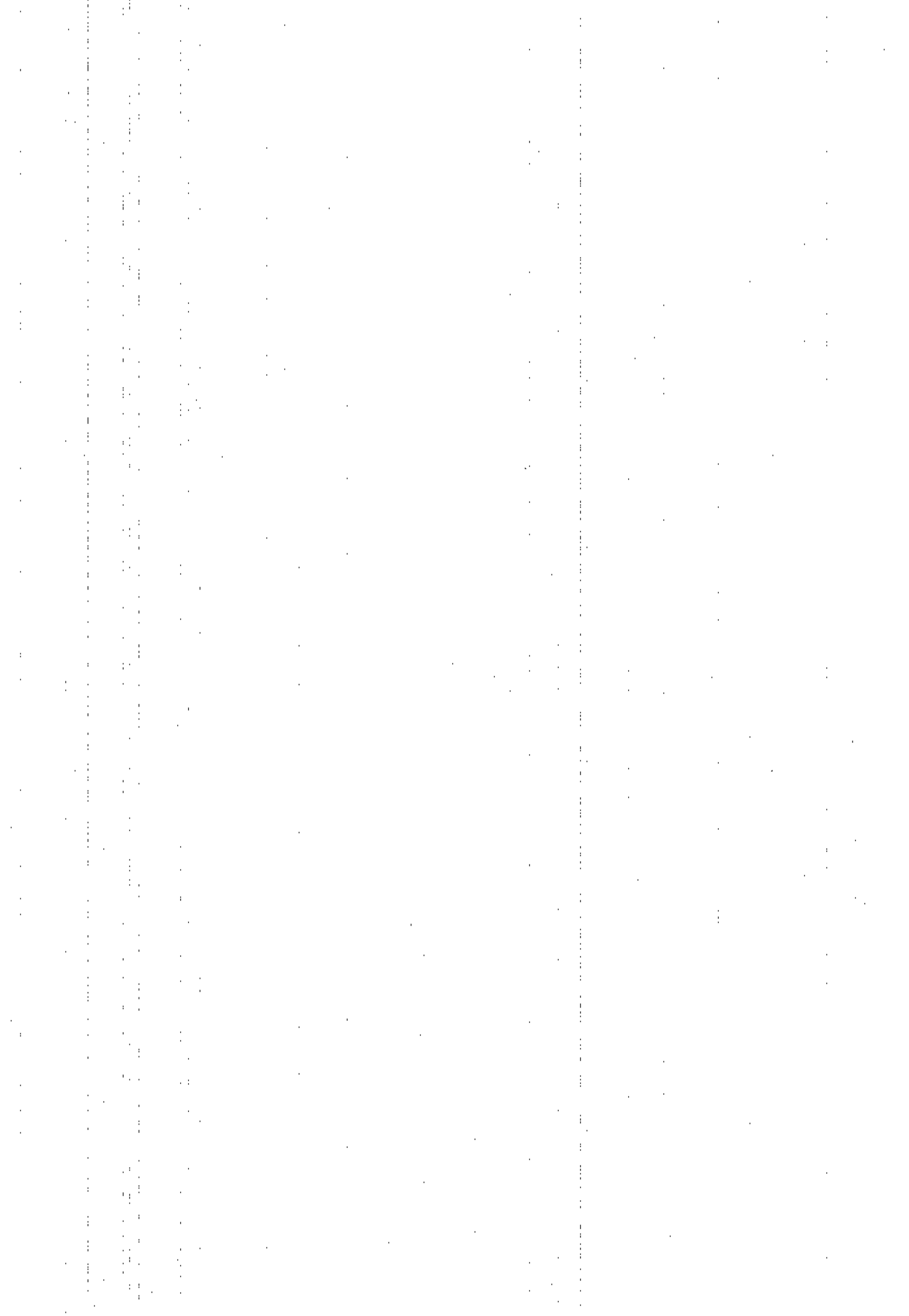
الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فإنه ليس الخبر كالمعاينة والمشاهدة .

رجل أخبر بخبر أخبره رجل واحد حصل عنده شيء من هذا الخبر فإذا جاء ثان ازداد قوة فيه ، وإذا جاءه الثالث ازداد قوة وهلم ، وعليه نقول : الإيمان يزيد وينقص حتى في عقيدة القلب وهذا أمر يعلمه كل إنسان من نفسه ، وأما من أنكر زيادته ونقصانه فإنه مخالف للشرع والواقع . فهو يزيد وينقص .

* * *

وبهذا تم ما أردنا الكلام عليه ، والله الموفق ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .



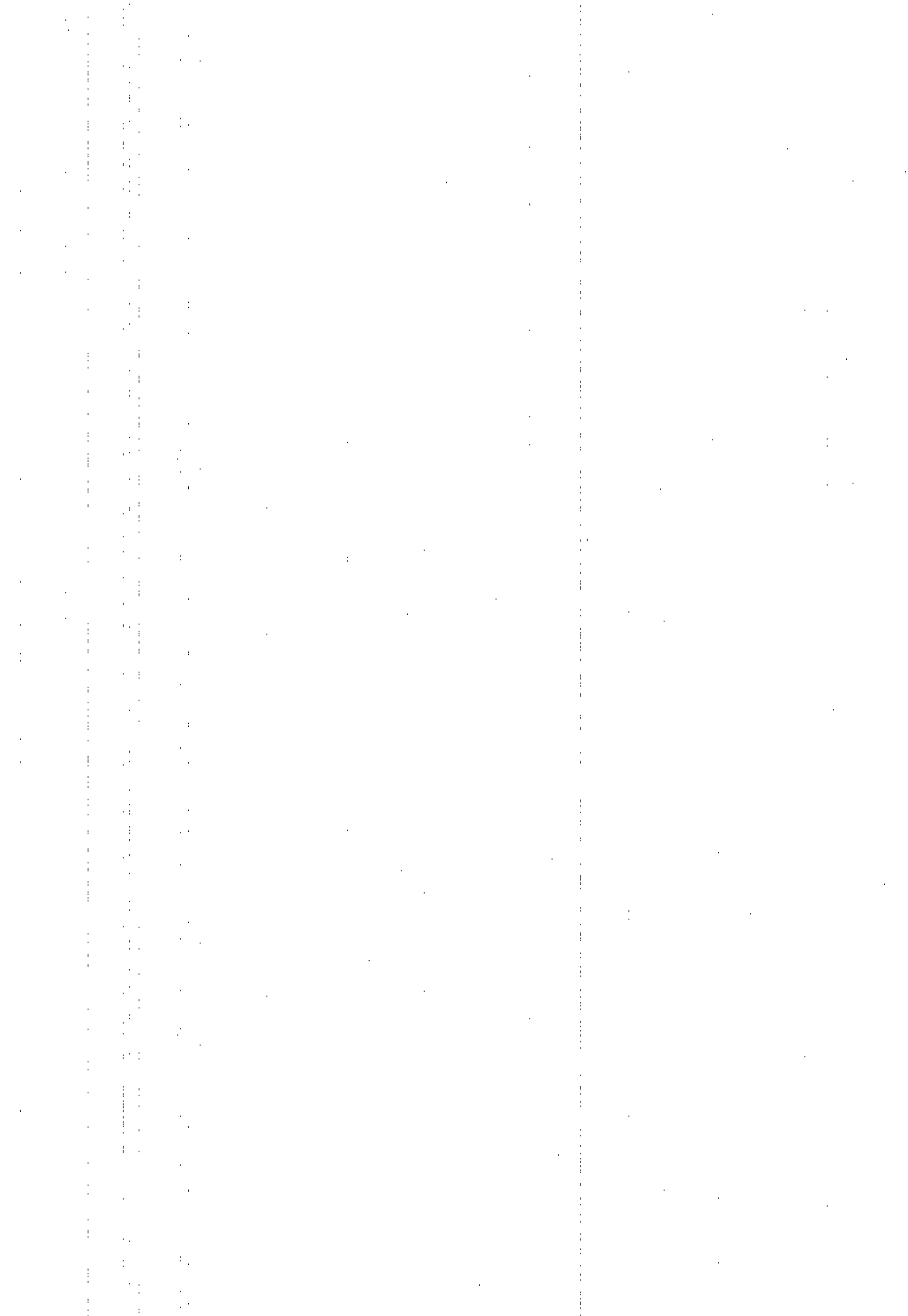


المحاضرة الخامسة:

القضاء والقدر

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين



القضاء والقدر

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدى الساعة بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد..

فأيها الإخوة الكرام إننا فى هذا اللقاء الذى نرجو أن يفتح الله علينا فيه من خزائن فضله ورحمته، وأن يجعلنا من الهداة المهتدين، ومن القادة المصلحين، ومن المستمعين المنتفعين، نبحث فى أمر مهم يهم جميع المسلمين ألا وهو «قضاء الله وقدره» والأمر ولله الحمد واضح، ولولا أن التساؤلات قد كثرت، ولولا أن الأمر اشتبه على كثير من الناس، ولولا كثرة من خاض فى الموضوع بالحق تارة وبالباطل تارات، ونظراً إلى أن الأهواء انتشرت وكثرت وصار الفاسق يريد أن يبرر لفسقه بالقضاء والقدر لولا هذا وغيره ما كنا نتكلم فى هذا الأمر.

* * *

والقضاء والقدر مازال النزاع فيه بين الأمة قديماً وحديثاً. فقد رُوِى أن النبى ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون فى القدر، فنهاهم عن ذلك وأخبر أنه ما أهلك الذين من قبلكم إلا هذا الجدال.

(*) نشرت ضمن «مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٥/ ٢١٣ : ٢٢٧).

ولكن فتح الله على عباده المؤمنين السلف الصَّالح الذين سلكوا طريق العدل فيما علموا وفيما قالوا، وذلك أن قضاء الله تعالى وقدره من ربوبيته سبحانه وتعالى لخلقه فهو داخل فى أحد أقسام التوحيد الثلاثة التى قسّم أهل العلم إليها توحيد الله عز وجل:ـ

القسم الأول: توحيد الألوهية وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

القسم الثانى: توحيد الربوبية وهو إفراد الله تعالى بالخلق، والملك، والتدبير.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات وهو توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته.

فالإيمان بالقدر هو من ربوبية الله عز وجل، ولهذا قال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: «القدر قُدْرة الله». أ. هـ. لأنه من قدرته ومن عمومها بلا شك، وهو أيضاً سر الله تعالى المكتوم الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، مكتوب فى اللوح المحفوظ فى الكتاب المكنون الذى لا يطلع عليه أحد، ونحن لا نعلم بما قدره الله لنا أو علينا، أو بما قدره الله تعالى فى مخلوقاته إلا بعد وقوعه أو الخبر الصادق عنه.

أيها الإخوة إن الأمة الإسلامية انقسمت فى القدر إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: غلوا فى إثبات القدر وسلبوا العبد قدرته واختياره وقالوا: إن العبد ليس له قدرة ولا اختيار وإنما هو مسير لا مخير كالشجرة فى مهب الريح، ولم يفرقوا بين فعل العبد الواقع باختياره وبين فعله الواقع بغير اختياره. ولا شك أن هؤلاء ضالون، لأنه مما يعلم بالضرورة من الدين، والعقل والعادة أن الإنسان يفرق بين الفعل

الاختيارى والفعل الإجبارى.

القسم الثانى: غلوا فى إثبات قدرة العبد واختياره حتى نفوا أن يكون لله تعالى مشيئة، أو اختيار، أو خلق فيما يفعله العبد، وزعموا أن العبد مستقل بعمله، حتى غلا طائفة منهم فقالوا إن الله تعالى لا يعلم بما يفعله العباد إلا بعد أن يقع منهم، وهؤلاء أيضاً غلوا وتطرفوا تطرفاً عظيماً فى إثبات قدرة العبد واختياره.

القسم الثالث: وهم الذين آمنوا فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق وهم أهل السنة والجماعة سلكوا فى ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعى وعلى الدليل العقلى، وقالوا: إن الأفعال التى يحدثها الله تعالى فى الكون تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يجريه الله تبارك وتعالى من فعله فى مخلوقاته فهذا لا اختيار لأحد فيه، كإنزال المطر، وإنبات الزرع، والإحياء، والإماتة، والمرض، والصحة وغير ذلك من الأمور الكثيرة التى تشاهد فى مخلوقات الله تعالى. وهذه بلا شك ليس لأحد فيها اختيار وليس لأحد فيها مشيئة وإنما المشيئة فيها لله الواحد القهار.

القسم الثانى: ما تفعله الخلائق كلها من ذوات الإرادة فهذه الأفعال تكون باختيار فاعليها وإرادتهم، لأن الله تعالى جعل ذلك إليهم قال الله تعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير: ٢٨] وقال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[آل عمران: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩] والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختياره وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار، فالإنسان ينزل من السطح

بالسلم نزولاً اختيارياً يعرف أنه مختار، ولكنه يسقط هاوياً من السطح ويعرف أنه ليس مختاراً لذلك، ويعرف الفرق بين الفعلين وأن الثانى إجبار والأول اختيار وكل إنسان يعرف ذلك.

وكذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض سلس البول فإن البول يخرج منه بغير اختياره، وإذا كان سليماً من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره ويعرف الفرق بين هذا وهذا، ولا أحد ينكر الفرق بينهما وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختياراً وبين ما يقع اضطراراً وإجباراً، بل إن من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو باختيار العبد ولكن لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسى والنائم يقول الله تعالى فى قصة أصحاب الكهف: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾[الكهف: ١٨] وهم الذين يتقلبون ولكن الله تعالى نسب الفعل إليه لأن النائم لا اختيار له ولا يُؤاخذ بفعله فنسب فعله إلى الله عز وجل، ويقول النبى ﷺ، «مَن نَسِي وَهُو صَائِم فَأَكَلَ، أَوْ شَرِبَ فَلْيُتِمَّ صَوْمَه فإنما أطْعَمَه الله وَسَقَاه» فنسب هذا الإطعام وهذا الاسقاء إلى الله عز وجل، لأن الفعل وقع منه بغير ذكر فكأنه صار بغير اختياره، وكلنا يعرف الفرق بين ما يجده الإنسان من ألم بغير اختياره وما يجده من خفة فى نفسه أحياناً بغير اختياره، ولا يدرى ما سببه، وبين أن يكون الألم هذا ناشئاً من فعل هو الذى اكتسبه، أو هذا الفرح ناشئاً من شيء هو الذى اكتسبه وهذا الأمر ولله الحمد واضح لا غبار عليه.

أيها الإخوة: إننا لو قلنا بقول الفريق الأول الذين غلوا فى إثبات القدر لبطلت الشريعة من أصلها لأن القول بأن فعل العبد ليس له فيه اختيار يلزم منه أن لا يحمد على فعل محمود، ولا يُلام على فعل مذموم لأنه

فى الحقيقـة بغير اختيار وإرادة منـه وعلى هذه فالنتيـجة إذن أن الله تبارك وتعالى يـكون ـ تعالى عن ذلك علـواً كبيراً ـ ظالماً لمن عـصى إذا عذبه وعاقبه على معصيته لأنه عاقـبه على أمر لا اختيار له فيه ولا إرادة، وهذا بلا شك مخالف للقرآن صراحة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْـقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّار عَنِيد مَّنَّاع لِلْخَيْرِ مـعْتَد مُرِيب الَّذِى جَعَلَ مَعَ الله إِلـهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الـعَذَاب الشديد قَالَ قَرِيـنُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتـهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلال بَعِيـد قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدمت إِلَيْكُم بِالـوَعِيدِ مَا يُبـدلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أنا بِظَلَّام لِلْعَبِيدِ﴾[ق: ٢٣ ـ ٢٩] فبين سبحانه أن هذا الـعقاب منه ليس ظلماً بل هو كمال العدل لأنه قد قدم إليهم بالوعيد، وبين لهم الطرق، وبين لهم الحق، وبين لهم الباطل فلـم يبق لهم حجة عند الله عز وجل ولو قلنا بهذا القول الباطل لبطل قول الله تعالى: ﴿رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلـنَّاسِ عَلَى الله حُجّة بَعْدَ الـرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥] فإن الله تـبارك وتعالى نفى أن يكون للناس حجة بعد إرسال الرسل لأنهم قامت عليهم الحجة بذلك فلو كان القدر حجة لهم لـكانت هذه الحجة باقية حتى بعد بعث الـرسل لأن قدر الله تعالى لـم يزل ولا يزال موجوداً قـبل إرسال الرسل وبعـد إرسال الرسل، إذن فهذا القول تـبطله النصوص، ويـبطله الواقع كما فصلنا بالأمثلة السابقة.

أما أصحاب القول الثانى: فإنهم أيضاً ترد علـيهم النصوص والواقع؛ ذلك لأن النـصوص صريحة فى أن مـشيئة الإنسـان تابعة لمشيـئة الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾[التكوير: ٢٨ ـ ٢٩] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨] ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَـى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَـى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيـم﴾[يونس: ٢٥]

والذين يقولـون بهذا القول هم فى الحقـيقة مبطلون لجانـب من جوانب الربـوبية، وهم أيـضاً مُدَّعُون بأن فـى ملك الله تـعالى مالا يـشاؤه ولا يخلقـه، والله تبارك وتعالى شاء لـكل شيء، خالق لكـل شيء، مقدر لكل شيء، وهم أيضـاً مخالفون لما يعلم بالاضطـرار من أن الخلق كله ملك لله عز وجـل ذواته وصفاته، لا فرق بين الصـفة والذات، ولا بين المعنى وبين الجسد. إذن فالكل لله عـز وجل ولا يمكن أن يكون فى ملكه ما لا يريد تبارك وتعالى ولكن يبقى علينا إذا كان الأمر راجعاً إلى مشيئة الله تبارك وتعالى وأن الأمـر كله بيده فما طريق الإنسـان إذن؟ وما حيلة الإنسان إذا كان الله تعالى قدقدر عليه أن يضل ولا يهتدى؟

فنقول الجواب عن ذلك: أن الله تبارك وتعالى إنما يهدى من كان أهلاً للهداية ويضل من كان أهلاً للضلالة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥] ويقول تـعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[المائدة: ١٣] فبين الله تبارك وتعالى أن أسـباب إضلاله لمن ضل إنما هو بسبب من العبد نفسه، والعبد كما أسلفنا آنفاً لا يدرى ما قدر الله تعالى له، لأنه لا يعلم بالقدر إلا بعـد وقوع المقدور فهو لا يدرى هل قدر الله له أن يكون ضالاً أم أن يكون مهتدياً؟ فمـا باله يسلك طريق الضلال ثم يحتـج بأن الله تعالى قـد أراد له ذلك، أفلا يـجدر به أن يسلـك طريق الهداية ثم يقول إن الله تعالى قد هدانى للصراط المستقيم؟! أيجدر به أن يكون جبرياً عند الضلالة قدرياً عند الطاعة.

كلا لا يليق بالإنـسان أن يكون جبرياً عند الضلالة والمـعصية فإذا ضل أو عصى الله قال هذا أمر قد كُتب علـى وقُدر علىّ ولا يمكننى أن أخرج

عما قضى الله وقدر، وإذا كان في جانب الطاعة ووفقه الله تعالى للطاعة والهداية زعم أن ذلـك منه ثم مَنَّ به على الله وقال أنا أتيـت به من عند نفسى، فيكون قدرياً فى جانب الطاعة جبرياً فى جانب المعصية، هذا لا يمكن أبداً، فالإنسان فى الحقيقة لـه قدرة وله اختيار، وليس باب الهداية بأخفى من باب الرزق وبأخفى من أبواب طلب العلم، والإنسان كما هو معلوم لدى الجميع قد قُدِّر له ما قُدِّر من الرزق ومع ذلك هو يسعى فى أسباب الـرزق فى بلده وخـارج بلده يمينـاً وشمالاً، لا يـجلس فى بـيته ويقول إن قُدِّر لى رزق فإنه يأتينى بل هو يسعى فى أسباب الرزق مع أن الرزق نفسه مقرون بالعمل كمـا ثبت ذلك عن النبى ﷺ من حديث ابن مسعود رضى الله عنه: «إنَّ أحدكم يُجمع خـلقهُ فى بطن أمه أربعين يَوماً نطفة، ثم يكون عَلَقَةً مثل ذلك، ثمَّ يكون مُضْغة مثل ذلك ثُمَّ يُبعثُ إليه الملك فيُؤمَرُ بأربع كلمات بِكَتْبِ رِزْقِه، وأَجَلِه، وعَمَلِه، وشَقِى أمْ سَعِيد» فهذا الرزق أيضاً مكتوب كما أن العـمل من صالح أو سىء مكتوب فما بالك تذهب يميناً وشمالاً وتجوب الأرض والـفيافى طلباً لرزق الدنيا ولا تعمل عملاً صالحاً لطلب رزق الآخـرة والفوز بدار النعيم؟!، إن البابين واحد ليس بينهـما فرق فكما أنك تسعى لرزقك وتسـعى لحياتك وامتداد أجلك فـإذا مرضت بمرض ذهبت إلـى أقطار الدنيـا تريد الطبيـب الماهر الذى يداوى مرضـك ومع ذلك فإن لك ما قدر مـن الأجل لا يزيد ولا ينقص ولسـت تعتمد على هذا وتقـول أبقى فى بيتى مريـضاً طريحاً وإن قدر الله إلى أن يمتـد الأجل امتد. بل نجدك تسـعى بكل ما تستـطيع من قوة وبحث لتبحث عن الطـبيب الذى ترى أنه أقرب الناس أن يُقدِّر الله الشفاء عـلى يديه فلماذا لا يكـون عملك فى طريق الآخرة وفـى العمل

الصالح كطريقك فيما تعمل للدنيا؟!. وقد سبق أن قلنا إن القضاء سر مكتوم لا يمكن أن تعلم عنه فأنت الآن بين طريقين، طريق يؤدى بك إلى السلامة وإلى الفوز، والسعادة، والكرامة، وطريق يؤدى بك إلى الهلاك، والندامة، والمهانة وأنت الآن واقف بينهما ومخير ليس أمامك من يمنعك من سلوك طريق اليمين ولا من سلوك طريق الشمال، إذا شئت ذهبت إلى هذا وإذا شئت ذهبت إلى هذا فما بالك تسلك طريق اليمين وتقول إنه قد قُدِّر لى؟! فلو أنك أردت السفر إلى بلد ما وكان أمامك طريقان أحدهما معبد قصير آمن، والآخر غير معبد وطويل ومخوف، لوجدنا أنك تختار المعبد القصير الآمن ولا تذهب إلى الطريق الذى ليس بمعبد وليس بقصير وليس بآمن هذا فى الطريق الحسى إذن فالطريق المعنوى مواز له ولا يختلف عنه أبداً، ولكن النفوس والأهواء هى التى تتحكم أحياناً فى العقل وتغلب على العقل، والمؤمن ينبغى أن يكون عقله غالباً على هواه وإذا حكَّم عقله فالعقل بالمعنى الصحيح يعقل صاحبه عما يضره ويدخله فيما ينفعه ويسره.

بهذا تبين لنا أن الإنسان يسير فى عمله الاختيارى سيراً اختيارياً ليس إجبارياً وأنه كما يسير لعمل دنياه سيراً اختيارياً وهو إن شاء جعل هذه السلعة أو تلك تجارته فكذلك أيضا هو فى سيره إلى الآخرة يسير سيراً اختياريا بل إن طرق الآخرة أبين بكثير من طرق الدنيا لأن الذى بين طرق الآخرة هو الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فلابد أن تكون طرق الآخرة أكثر بياناً وأجلى وضوحاً من طرق الدنيا ومع ذلك فإن الإنسان يسير فى طرق الدنيا التى ليس ضامناً لنتائجها، ولكنه يدع طرق الآخرة التى نتائجها مضمونة معلومة لأنها ثابتة بوعد الله، والله

تبارك وتعالى لا يخلف الميعاد.

بعد هذا نقول: إن أهل السنة والجماعة قرروا هذا وجعلوه عقيدتهم ومذهبهم أن الإنسان يفعل باختياره وأنه يقول كما يريد ولكن إرادته واختياره تابعان لإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته، ثم يؤمن أهل السنة والجماعة بأن مشيئة الله تعالى تابعة لحكمته وأنه سبحانه وتعالى ليست مشيئته مطلقة مجردة ولكنها مشيئة تابعة لحكمته لأن من أسماء الله تعالى «الحكيم» والحكيم هو الحاكم المُحْكم الذى يحكم الأشياء كوناً وشرعاً، ويحكمها عملاً وصنعاً، والله تعالى بحكمته يقدر الهداية لمن أرادها لمن يعلم سبحانه وتعالى أنه يريد الحق وأن قلبه على الاستقامة، ويقدر الضلالة لمن لم يكن كذلك لمن إذا عرض عليه الإسلام يضيق صدره كأنما يصعد فى السماء فإن حكمة الله تبارك وتعالى تأبى أن يكون هذا من المهتدين إلا أن يجدد الله له عزماً ويقلب إرادته إلى إرادة أخرى والله تعالى على كل شىء قدير، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن تكون الأسباب مربوطة بها مسبباتها.

ومراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة أربع مراتب:

المرتبة الأولى: **العلم** وهى أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن الله تعالى بكل شىء عليم وأنه يعلم ما فى السموات والأرض جملة وتفصيلاً سواءً كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته، وأنه لا يخفى على الله شىء فى الأرض ولا فى السماء.

المرتبة الثانية: **الكتابة** وهى أن الله تبارك وتعالى كتب عنده فى اللوح المحفوظ مقادير كل شىء.

وقد جمع الله تعالى بين هاتين المرتبتين فى قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج: ٧٠] فبدأ سبحانه بالعلم وقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أى أنه مكتوب فى اللوح المحفوظ كما جاء به الحديث عن رسول الله ﷺ «إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم قال له اكتب قال رَب ماذا أكتب؟ قال اكْتُب ما هو كائن فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» ولهذا سُئِل النبى ﷺ عما نعمله أشىء مستقبل أم شىء قد قُضِى وفُرغ منه؟ قال إنه قد قضى وفرغ منه. وقال أيضاً حين سُئِل أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الأول؟ قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» فأمرهم النبى ﷺ بالعمل، فأنت يا أخى اعمل وأنت ميسر لما خُلقت له.

ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

المرتبة الثالثة: المشيئة وهى أن الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معدوم فى السموات أو فى الأرض، فما وُجد موجود إلا بمشيئة الله تعالى، وما عُدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى وهذا ظاهر فى القرآن الكريم وقد أثبت الله تعالى مشيئته فى فعله ومشيئته فى فعل العباد فقال الله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير: ٢٨ ـ ٢٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام: ١٣٧] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فبيَّن الله تعالى أنَّ فعل الناس كائن بمشيئته، وأما فعله تعالى فكثير قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[السجدة: ١٣] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

[هود:١١٨] إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة فى فعله تبارك وتعالى، فلا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة لكل موجود أو معدوم، فما من معدوم إلا وقد شاء الله تعالى عدمه وما من موجود إلا وقد شاء الله تعالى وجوده، ولا يمكن أن يقع شىء فى السموات ولا فى الأرض إلا بمشيئة الله تعالى.

المرتبة الرابعة: الخلق أى أن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شىء فما من موجود فى السموات والأرض إلا الله خالقه حتى الموت يخلقه الله تبارك وتعالى وإن كان هو عدم الحياة يقول الله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ الموت والحياةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك: ٢] فكل شىء فى السموات أو فى الأرض فإن الله تعالى خالقه لا خالق إلا الله تبارك وتعالى. وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله سبحانه وتعالى بأنه مخلوق له فالسموات، والأرض، والجبال، والأنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، والإنسان، والبهائم كلها مخلوقات الله وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات، وتقلبات، وأحوال كلها أيضاً مخلوقة لله عز وجل. ولكن قد يشكل على الإنسان كيف يصح أن نقول فى فعلنا وقولنا الاختيارى إنه مخلوق لله عز وجل؟ فنقول نعم يصح أن نقول ذلك لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين:

أحدهما: القدرة

والثانى: الإرادة

فإذا كان فعل العبد ناتجاً عن إرادته وقدرته فإن الذى خلق هذه الإرادة وجعل قلب الإنسان قابلاً للإرادة هو الله عز وجل، وكذلك الذى خلق

فيه القدرة هو الله عز وجل ويخلق السبب التام الذى يتولد عنه المسبب نقول إن خالق السبب التام خالق للمسبب أى أن خالق المؤثر خالق للأثر، فوجه كونه تعالى خالقاً لفعل العبد أن نقول: إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما:

(١) الإرادة

(٢) القدرة

فلولا الإرادة لم يفعل، ولولا القدرة لم يفعل، لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل، لعجزه عن الفعل وإذا كان قادراً ولم يرد لم يكن الفعل، فإذا كان الفعل ناتجاً عن إرادة جازمة وقدرة كاملة فالذى خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله، وبهذا الطريق عرفنا كيف يمكن أن نقول إن الله تعالى خالق لفعل عبده، وإلا فالعبد هو الفاعل فى الحقيقة فهو المتطهر وهو المصلى، وهو المزكى، وهو الصائم، وهو الحاج، وهو المعتمر، وهو العاصى، وهو المطيع لكن هذه الأفعال كلها كانت ووجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل والأمر ولله الحمد واضح.

وهذه المراتب الأربع المتقدمة يجب أن تثبت لله عز وجل، وهذا لا ينافى أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوى الإرادة.

كما إننا نقول النار تحرق والذى خلق الإحراق فيها هو الله تعالى بلا شك فليست محرقة بطبيعتها بل هى محرقة بكون الله تعالى جعلها محرقة ولهذا لم تكن النار التى ألقى فيها إبراهيم محرقة لأن الله قال لها: ﴿كُونِى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً

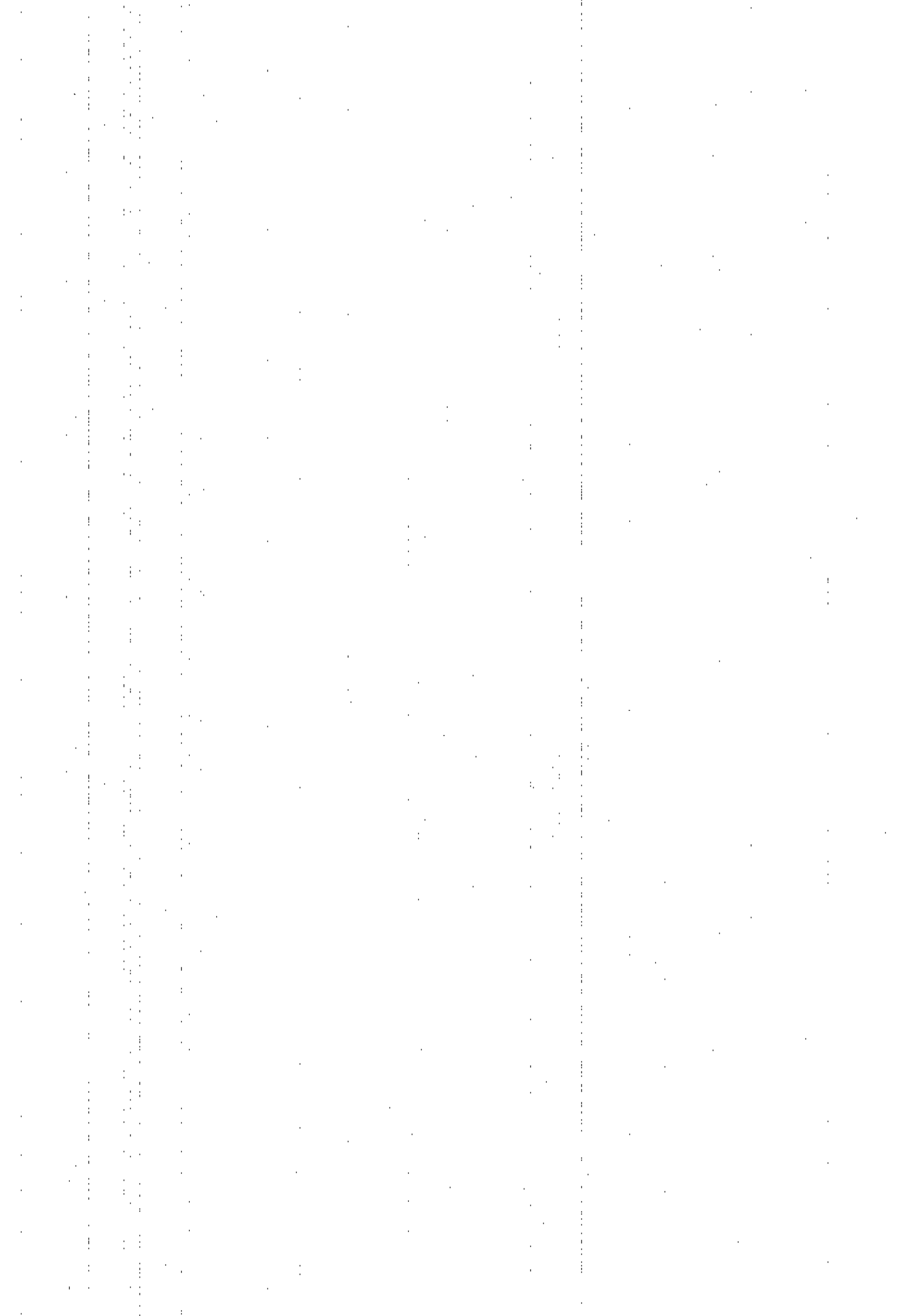
على إبـراهيم، فالـنار بذاتها لا تحـرق ولكن الله تعالـى خلق فيـها قوة الإحراق، وقوة الإحراق هى فـى مقابل فعل العباد كإرادة الـعبد وقدرته فبالإرادة والقدرة يكون الفعل، وبـالمادة المحرقة فى النار يكون الإحراق، فلا فرق بين هذا وهذا، ولكن العبد لما كان له إرادة، وشعور، واختيار، وعمل صار الـفعل ينسب إلـيه حقيقة وحـكماً وصار مؤاخذاً بـالمخالفة معاقباً عليها لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار.

وأخيراً نقول: على المؤمـن أن يرضى بالله تعالى ربـا، ومن تمام رضاه بالـربوبية أن يـؤمن بقضـاء الله وقدره، ويعلـم أنه لا فرق فى هـذا بين الأعمال التـى يعملها وبين الأرزاق الـتى يسعى لها، وبـين الآجال التى يدافعها، الكـل بابه سواء، والكل مكتوب، والكـل مقدر، وكل إنسان ميسر لما خلق له.

* * *

أسأل الله عز وجـل أن يجعلـنا ممن يُسرون لـعمل أهل الـسعادة وأن يكتب لنا الصلاح فى الدنيـا والآخرة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

❀ ❀ ❀



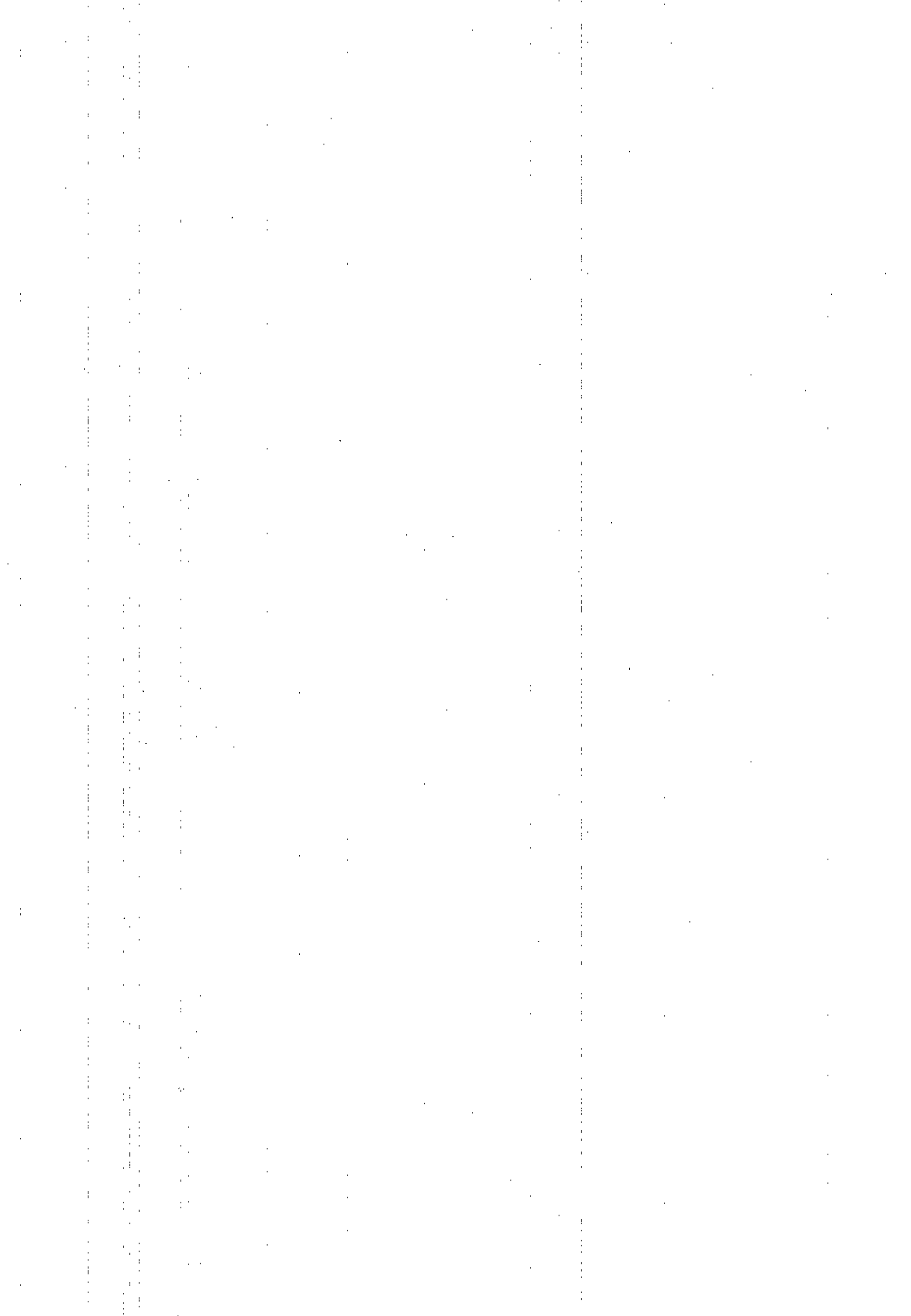
المحاضرة السادسة:

وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والتحذير مما يخالفهما

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت في افتتاح الموسم الثقافي لرابطة العالم الإسلامي لحج عام ١٤٠٦هـ بمكة المكرمة مساء السبت ١٩/١١/١٤٠٦هـ



وجوب الإعتصام بالكتاب والسنة والتحذير مما يخالفهما

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وأمينه على وحيه، وصفوته من خلقه، نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله، واهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد..

فإن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق. كما قال سبحانه في سورتي التوبة والصف ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[الصف:٩] وقال في سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح: ٢٨] قال علماء التفسير رحمهم الله «الهدى» هو ما بعث الله به نبيه ﷺ من العلوم النَّافعة، والأخبار الصَّادقة و«دين الحق» هو ما بعثه الله به من الأعمال الصالحة، والأحكام العادلة، وقد بين الله سبحانه أن الإيمان بما بعث به نبيه ﷺ من الهدى ودين الحق، والعمل بذلك، هو الصراط المستقيم الذى من سار عليه، واستقام عليه، وصل إلى شاطىء السَّلامة، وفاز بالجنة والكرامة، ومن حَادَ عنه واتبع هواه، باء بالصَّفقة الخاسرة، وسُوء المصير، وقد أمر الله عز وجل جميع العباد باتِّباع الصِّراط المستقيم، ونهاهم عن اتِّباع السُّبل التى تُفضى بهم إلى صراط الجحيم، فقال عز وجل فى سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣] وأشار بقوله «وأنَّ هَذَا» إلى ما سبق أن أمر نبيه ﷺ أن يتلوه على الناس، ويُبيِّنهُ لهم، ليعْقِلوا ويَتَذكَّروا، وذلك فى قوله

سبحانه: ﴿قُل تَعَالَوا أتلُ مَا حَرَّمَ ربُّكُم عَلَيكُم ألا تُشرِكُوا به شَيئاً وَبِالوَالِدَينِ إحساناً وَلا تقتُلُوا أولَدكُم من إملَقٍ نَحنُ نرزُقُكُم وإياهُم وَلا تَقربُوا الفوَاحِشَ مَا ظَهَرَ منهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتى حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَق ذَلكُم وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُم تعقلون وَلا تَقربُوا مَالَ اليَتِيم إلا بِالَّتى هِى أحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ وَأوفُوا الكَيلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسطِ لا نُكَلفُ نَفساً إلا وُسعَهَا وَإذَا قُلتُم فَاعدلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبِعَهدِ اللهِ أوفُوا ذَلِكُم وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذكَّرُونَ﴾[الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢] ثم قال سبحانه: ﴿وَأنَّ هَذَا صِرَاطِى مُستَقِيماً فَاتَّبِعوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣] فبيَّن عز وجل بهذا: أن امتثال هذه الأوامر والنواهى، هو الصِّراط المستقيم الذى أمر باتباعه، وبدأها سبحانه بالتَّحذير من الشرك وبيان تحريمه على الأمة، وذلك لأنه أعظم الذُّنوب وأشهر الجرائم، ولأنَّ ضده وهو التَّوحيد هو أعظم الفرائض وأهم الواجبات، وذلك هو أساسُ الملة، وقاعدة الصِّراط المستقيم، وهو الذى بعث الله به جميع الرسل، وأنزل به جميع الكتب، وخَلَق من أجله الثّقلين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَد بَعَثنَا فِى كُل أمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا اللهَ وَاجتَنِبُوا الطَّغُوتَ﴾[النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إلا نُوحِى إليهِ أنَّهُ لا إلَهَ إلا أنَا فَاعبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقد أمر الله عباده بذلك فى مواضع كثيرة من كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ قال تعالى: ﴿يَأيهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١] وقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعبُدُوا إلا إيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَمَا أمِرُوا إلا لِيَعبُدُوا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة: ٥] وأرشد عباده فى سورة الفاتحة، أن يُقِروا بذلك لله

سبحانه فقال: ﴿الحَمدُ لله رَب العَـٰلَمينَ الرَّحمَـٰنِ الـرَّحِيمِ مَـٰلِكِ يَومِ الدينِ إياكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَسـتعِينُ﴾[الفـاتحة: ٢ ـ ٥] والآيات فـى هذا المعنـى كثيـرة. وفى الصَّحيـحين عن ابن عبـاس رضى الله عنهـما أن النبى ﷺ قـال لمعاذ: «أتدرى ما حَق الله عـلى العبـاد، وما حقُّ العـباد على الله؟ قـال معاذ قلت: الله ورسولـه أعلم فقال ﷺ: حقُّ الله علـى العباد أن يَعْبُدوه ولا يُشركوا به شـيئاً» الحديثَ وقال ﷺ: «من مات وهـو يدعو لله نِدا دخل النَّار» خرَّجه البخارى فى صحيحه.

والأحاديث فى هذا المعنى كثـيرة، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، فإن معنـاها لا مَعْبُود حق إلا الله، فهى تـنفى جميـع أنواع العبادة عــن غير الله، وتثبتها بحق لله وحده.

كمال قال الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحَق وأنَّ مَا يَدعُونَ مِن دُونِهِ البَـٰطِلُ﴾[لقمان: ٣٠] ثم ذكر سبحانه حق الوالـدين، وهو الإحسان إليهما وعدم عقوقهما، ثم نهى عــن قتل الأولاد من أجل الإملاق، وهو الفقر وأخبر أنه سبحانه هو الذى يرزق الوالدين والأولاد.

وكان من عادة بـعض أهل الجاهلية قتـل أولادهم خشية الفقـر، فنهى عباده عــن فعل ذلك، لما فيـه من الظُّلم والعدوان وسُوء الـظَّن بالله عز وجل، ثم نَهَى عن قـربان الفواحش ظاهـرها وباطنها، وهـى المعاصى كلها، ثم خص من ذلك قتل النفس بغير حق لعظم هذه الجريمة، وسوء عاقبتها أكثر من غيرها مــن المعاصى التى دون الشِّرك، ثم نهى عن قُربان مال اليـتيم إلا بالـتى هى أحسن، حـتى يبلـغ أشده، وذلك حين يــبلغ ويرشد، ثــم أمر بالوفـاء بالكيل والمـيزان بالقـسط وهو العـدل، لما فى بخس المكيال والميزان من الظلم والعدوان. وأكل المال بالباطل.

ثم أمر بالعدل فى القول بعد ما أمر بالعدل فى الفعل، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُم فَاعدِلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى﴾[الأنعام: ١٥٢] والمعنى: أن العدل فى جميع الأقوال والأفعال مع القريب والبعيد، والحبيب والبغيض طاعة لله سبحانه، وتنفيذ لحكمه، وضده هو الظلم فى القول والعمل، ثم أمر عباده سبحانه بالوفاء بعهده الذى عهد إليهم فى كتابه المبين وعلى لسان رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، وذلك يشمل جميع ما شرعه لعباده من الفرائض، والأحكام والأقوال والأعمال، وما نهاهم عنه سبحانه، كما نص على ذلك أئمة التفسير.

ثم قال عز وجل بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِه﴾[الأنعام: ١٥٣] فعلم بهذا أن صراطه سبحانه هو العمل بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، والإيمان بكل ما جاء به رسوله ﷺ، من العلوم النافعة، والأخبار الصادقة، والشرائع والأحكام، ظاهراً وباطناً، خلافاً لأهل النفاق، وقد أرشد سبحانه عباده فى سورة الفاتحة، إلى أن يسألوه الهداية إلى هذا الصراط لشدة ضرورتهم إلى ذلك، وبين سبحانه أنه هو طريق المنعم عليهم، المذكورين فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[النساء: ٦٩].

وقد دلت الأحاديث المرفوعة، والآثارعن الصَّحابة رضى الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان، على أن السُّبل التى نهى الله عن اتباعها، هى البدع والشُّبهات والشَّهوات المُحَرَّمة، والمذاهب والنحل المنحرفة عن الحق، وسائر الأديان الباطلة، ومن ذلك: ما رواه الإمام أحمد والنسائى بإسناد صحيح،عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: «خطَّ رسول الله

ﷺ خطا بيده» ثم قال: «هذا سَبيل الله: مُستقيماً». وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُّبل ليس منها سبيل إلا عليه شَيطان يَدْعُو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٢] ومما يَحْسُن التَّنبيه عليه أنَّه عز وجل ذكر في ختام الآية الأولى من الآيات الثلاث المذكورة آنفا: ﴿ذَٰلِكُم وَصَّـٰكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥١] وفي ختام الآية الثانية: ﴿ذَٰلِكُم وَصَّـٰكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٢] وفي ختام الآية الثالثة ﴿ذَٰلِكُم وَصَّـٰكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣].

قال بعض علماء التَّفسير: الحكمة في ذلك والله أعلم، أن من تَدَبَّر كتاب الله عز وجل، وأكثر من تلاوته، حصل له التَّعَقُّل للأوامر والنَّواهي. والتَّذَكر لما تشتمل عليه من المصالح العظيمة، والعواقب الحميدة، في الدنيا والآخرة، وبذلك ينتقل إلى التَّقوىٰ، وهي: فعل الأوامر وترك النَّواهي، اتقاءاً لغضب الله وعقابه، ورغبة في مغفرته ورحمته والفوز بكرامته، وهذا معنى عظيم، وذلك من أسرار كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لكونه تنزيلا من حكيم حميد، لا تخفى عليه خافية، ولا يعجزه شيء، وهو العالم بأحوال عباده ومصالحهم، لا إله غيره ولا رب سواه، وقد أخبر سبحانه أنما أوحى الله به إلى نبيه ﷺ، هو روح تحصل به الحياة الطَّيبة، ونور تحصل به البَصيرة والهداية كما أخبر أن رسوله الكريم يهدي إلى صراطه المستقيم، الذي أوضحه في الآيات الثلاث التي ذكرنا آنفا، وذلك في قوله عز وجل في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحاً مِن أَمرِنَا مَا كُنتَ تَدرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلنَـٰهُ نُوراً نَهدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِن

عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهدِى إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ صِرَاطِ الله الَّذِى لَهُ، مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرضِ ألا إِلـى الله تَصِيرُ الأمُورُ﴾[الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] فأوضح سبحانه أن الوحى الـذى أوحاه إلى نبـيه ﷺ من الكتـاب والسنة، روح تحـصل به الحياة الطَّيبة، السـعيدة الحميدة، ونور تَحْصل به الهداية والـبصيرة، كما قال عز وجل فـى سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيتاً فَأَحـيَينَـــهُ وَجَعَلنَا لَهُ نُوراً يمشِى بِهِ فى النَّاسِ كَمَن مَّثَلهُ فِى الظُّلُمَـتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِنهَا﴾الآية [الأنعام: ١٢٢].

فأخبر سبحانه أن الكافر ميت منغمس فى الظلمات، لا خروج له منها إلا إذا أحياه الله بالإسلام والعلم النافع.

وقال عـز وجل فى سورة الانـفال: ﴿يَـأَيهَا الَّذِيـنَ ءَامَنُوا استَجِيـبُوا لله وَلِلـرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحـيِيـكُم﴾ الآية [الأنفال: ٢٤] فأخـبر سبحـانه أنَ الاستجابـة لله وللرسول هى الحيـاة، وأن من لم يستجـب لله وللرسول فهو ميت مع الأموات.

وقال عز وجل فى سورة النحل: ﴿مَن عَمِلَ صَـلِحاً مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طَيبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧] فأبـان سبحانـه فى هذه الآيـة الكريمـة أن من عمل صـالحاً من الـذكور والإناث، وهو مـؤمن بالله ورسوله، أحيـاه الله حياة طيبة، وهـى الحياة التـى فيهـا راحة القـلب، والضمـير، مع الـسَّعادة العـاجلة والآجـلة، لاستقامـة صاحبها على شرع مـولاه سبحانه، وسيره عـلى ذلك إلى أن يَلْقَاهُ عز وجل، ثم أخبر سبحانه أنه يـجزيهم فى الآخرة أجرهم بأحسن ما كانـوا يعملـون، فجمع لهـم سبحانـه بين الحياة الطـيبة فى الـدنيا، والسعادة الكـاملة فى الآخرة، وذلك فضل الله يؤتـيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، ومعلوم أنه لا يحصل هذا الخير العظيم، إلا لمن اعتصم

بكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ قولاً وعملاً وعقيدة، واستمر على ذلك حتى يلقى ربه عز وجل.

كما قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسلِمُون. وَاعتَصِمُوا بِحَبلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرقُوا﴾[آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣] أمر الله سبحانه في هاتين الآيتين أهل الإيمان، بأن يتقوا الله في جميع حياتهم، حتى يموتوا على ذلك، وأمرهم بالاعتصام بحبله، وهو دينه الذي بعث به نبيه ﷺ، وهو الإسلام وهو التمسك بالقرآن والسنة، ونهى عن التفرق في ذلك لما يفضي إليه التفرق من ضياع الحق، وسوء العاقبة، واختلاف القلوب، وقال سبحانه في سورة الحجر يخاطب نبيه ﷺ: ﴿فَاصدَع بِمَا تُؤمَرُ وَأَعرِض عَنِ المُشرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَسَبح بِحَمدِ رَبكَ وَكُن منَ السَّجِدِينَ. وَاعبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩] فأمره سبحانه أن يبلغ رسالاته، ويصدع بذلك، ويعرض عمن خالفه، ثم أمره أن يسبح بحمده، وأن يكون من الساجدين له عز وجل، وأن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين، وهو الموت، فعلم بذلك أن الواجب على جميع العباد، أن يستقيموا على شرع الله، وأن يعتصموا بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وأن يستمروا في ذلك، ويلزموه ولا يبالوا بمن خالفه، حتى تنزل بهم آجالهم، وقد أمر الله سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وفي أحاديث كثيرة مما صحَّ عن رسول الله ﷺ، باتباع كتابه الكريم، والاعتصام به واتباع السنة وتعظيمها، والحذر مما خالفهما فمن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَّبكُم وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون﴾[الأعراف: ٣] وقال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿وَهَذَا كِتَاب أنزلناه مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥] وقال في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَـٰذَا القُرءَانَ يَهدِى لِلَّتِى هِىَ أَقوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُم أَجراً كَبِيراً﴾[الإسراء: ٩] وقال في سورة ص: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلنَـٰهُ إِلَيكَ مُبَـٰرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَـٰتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلبَـٰبِ﴾[ص: ٢٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة وقال سبحانه في سورة النساء لما ذكر تفصيل الميراث:

﴿تِلكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلهُ جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ وَمَن يَعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدخِلهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤] وقال فيها أيضاً: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمرِ مِنكُم فَإِن تَنَـٰزَعتُم فِى شَىءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيرٌ وَأَحسَنُ تَأوِيلاً﴾[النساء: ٥٩]

فأمر سبحانه في هذه الآية العظيمة بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ وأولى الأمر، وأمر عند التنازع بالرد إليه سبحانه وإلى رسوله ﷺ وقد بين أهل العلم أن الرد إليه سبحانه هو الرد إلى كتابه الكريم، وأن الرد إلى الرسول ﷺ، هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته. وأخبر عز وجل أن هذا الرد خير للعباد في دنياهم وأخراهم، وأحسن تأويلا أى عاقبة، وبهذا يعلم أن الواجب على جميع أهل الإسلام أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في كل أمورهم، وأن يردوا ما تنازعوا فيه إليهما، وأن ذلك خير لهم وأحسن عاقبة في العاجل والآجل.

أما طاعة أولى الأمر فهي واجبة في المعروف، كما صحَّت بذلك السُّنة عن رسول الله ﷺ، وهذا الموضوع من المواضع التي قُيد فيها

مُطلق الكتاب بما يصح فى السنة عن الرَّسول ﷺ، لأنه هو المُبَلِّغ عنه، والدَّال على شريعته بأمره سبحانه، كما قال عز وجل فى سورة النحل: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذكرَ لتُبَينَ للنَّاسِ مَا نُزلَ إليهم ولَعَلَّهُم يَتفكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤] وقال فيها سبحانه: ﴿ومَا أنزلنَا عَلَيكَ الكتَاب إلا لتُبَينَ لَهُمُ الَّذى اختَلَفُوا فيه وَهُدى وَرَحمَةً لقَوم يُؤمنُونَ﴾[النحل: ٦٤] وقال سبحانه فى سورة النساء أيضاً: ﴿مَّن يُطعِ الرَّسُول فَقَد أطَاعَ اللهَ وَمَن تَولَّى فَمَا أرسَلنَاكَ عَلَيهِم حَفيظاً﴾[النساء: ٨٠] وبين سبحانه فى سورة الأعراف أن أنصاره وأتباعه هم المفلحون وبين عز وجل أن الهداية معلقة باتباعه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿فَالَّذينَ ءَامَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذى أنزل معه أولئك هم المفلحون قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى لَهُ مُلكُ السَّمَوات والأَرضِ لا إلَه إلا هُوَ يُحْيى وَيُميتُ فَآمنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبى الأمى الَّذى يُؤمِنُ بالله وكَلمَته وَاتَّبعُوهُ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨] وقال فى سورة الأنفال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُوا أَطيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوا عَنهُ وأَنتُم تَسمَعُونَ﴾[الأنفال: ٢٠] إلى أن قال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذين ءَامَنُوا استَجيبُوا لله وَللرَّسُولِ إذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم﴾الآية [الأنفال: ٢٤]

وسبق أن هذه الآية العظيمة تدل على أن الحياة بالاستجابة لله وللرسول ﷺ، وأن من لم يستجب لله ورسوله فهو من الأموات، وإن كان حياً بين الناس، حياة البَهَائم.

وقال عز وجل فى سورة النور: ﴿قُل أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُول فَإن تَوَلَّوا فَإنَّمَا عَلَيهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيكُم مَّا حُمِّلتُم وَإن تُطيعُوهُ تَهتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبينُ﴾[النور: ٥٤] فأبان سبحانه فى هذه الآية الكريمة أن الهداية فى طاعته، واتباع ما جاء به، ولا شك أن طاعته ﷺ طاعة لله عز

وجل، واتباع لكتابه العظيم كما قال سبحانه: ﴿من يُطِعِ الرَّسُول فَقَد أطَاعَ الله﴾الآية [النساء: ٨٠]

وقال فى آخر سورة النور: ﴿فَلَيَحذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن أمرِهِ أن تُصِيبَهُم فتنة أو يُصِيبَهُم عَذَاب ألِيمٌ﴾[النور: ٦٣] وهذا وعيد شديد لمن حَادَ عن أمره ﷺ واتبع هواه، وقال فى سورة الفتح: ﴿ليسَ عَلَى الأعمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدخِلهُ جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأنهَرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذبهُ عَذَاباً ألِيماً﴾[الفتح: ١٧] وقال فى سورة الحشر: ﴿وَمَا آتاكم الرَّسُول فَخُذُوه وَمَا نَهَكُم عَنهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]

والآيات فى الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، واتباع كتاب الله عز وجل والاهتداء به كثيرة جداً وقد ذكرنا منها بحمد الله ما فيه الكفاية والمقنع لمن وفق لقبول الحق.

وأما الأحاديث فى ذلك فهى كثيرة أيضاً، فنذكر منها ما تيسر، ومن ذلك: ما ثبت فى الصَّحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «مَنْ أطَاعَنِي فقد أَطَاعَ الله ومن عَصَانى فقد عَصَى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ومن عَصَى الأمير فقد عَصَانى».

والمراد بطاعة الأمير: طاعته فى المعروف، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

ومعلوم أن السُّنة يُقَيَّد مطلقها بمقيدها، كما أن الكتاب العزيز يفسر المطلق فيه بالمقيد، ويفسر مطلقه أيضاً بمقيد السُّنة، كما سبق التنبيه على ذلك عند ذكر قوله عز وجل:

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيـعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الـرَّسُول وَأُولى الأمـرِ مِنكُم﴾الآية [النساء: ٥٩]

وفى صحيح البخارى عن أبى هـريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «كُلُّ أمتى يَدْخلون الجنة إلا من أَبَى» قيل يا رسول الله: ومن يَأبى؟ قال: «من أطَاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أَبَى»

وخرَّج الإمام أحمد وأبـو داود والحاكم باسناد صحيـح عن المقدام بن معدى كرب عن رسول الله ﷺ أنه قـال: «ألا إنِّى أُوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يُوشك رجل شبعـان على أريكته يقول عليكم بـهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه».

وخرَّج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن ابن أبى رافع عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم مُتَّكئاً عـلى أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمَرْتُ بـه أو نَهَيْتُ عنـه فيـقول لا نـدرى ما وجـدنا فـى كتـاب الله اتَّبعناه».

وعن الحسن بن جابر قال: سمـعت المقدام بن معدى كرب رضى الله عنـه يقول: حـرم رسول اللـه ﷺ يوم خـيبر أشـياء ثم قـال: «يُوشك أحدكم أن يُكَذِّبنى وهو مُتَّكىء يُحَدَّث بِحَدِيثى فيقـول بيننا وبينكم كتاب الله فما وَجَدنا فيه مـن حلال استَحْللناه وما وجدنا فيـه من حرام حرَّمناه ألا إن ما حرم رسول الله مـثل ما حرَّم الله»، أخرجه الحاكـم والترمذى وابن ماجه بإسناد صحيح.

وقد تواترت الأحـاديث عن رسول الله ﷺ بأنه كان يُوصـى أصحابه فى خطبـته أن يُبَلغ شاهدهم غائبـهم ويقول لهم: «رُبَّ مبـلغ أوعى من سامع» ومن ذلك: ما فى الصَّحيـحين أن النبى ﷺ لما خطَب الناس فى

حجة الوداع فـي يوم عرفة، وفي يوم النحـر قال لهم: «فليبلغ الشَّاهد الغائب فرب مُبلغ أوعى له ممَّن سمعه». فلولا أن سنته حجة على من سمعها وعلى من بلغته، ولولا أنها باقية إلى يوم القيامة، لم يأمرهم بتبليغها، فَعُلِمَ بذلك أن الحُجَّة بالسُّنَّة قائمة على من سَمِعَها من فِيه، عليه الصَّلاة والسلام وعلى من نُقِلَت إليه بالأسانيد الصَّحيحة.

* * *

وأسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا وسائر المسلمين، للتمسك بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ والعمل بهما، والتَّحاكم إليهما، ورد ما تنازع فيه المسلمون إليهما، وأن يُوفق حكام المسلمين وقادتهم لاتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ، والحكم بهما في جميع الشئون، وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق، ويَنْصُرهم على أعدائهم، كما أسأله سبحانه أن ينصر دينه، ويعلي كلمته ويخذل أعداءه ويوفق المجاهدين في سبيله لما فيه رضاه، ويجمع كلمتهم على الحق ويؤلف بين قلوبهم، وينصرهم على أعدائهم أعداء الإسلام إنه ولي ذلك والقادر عليه.

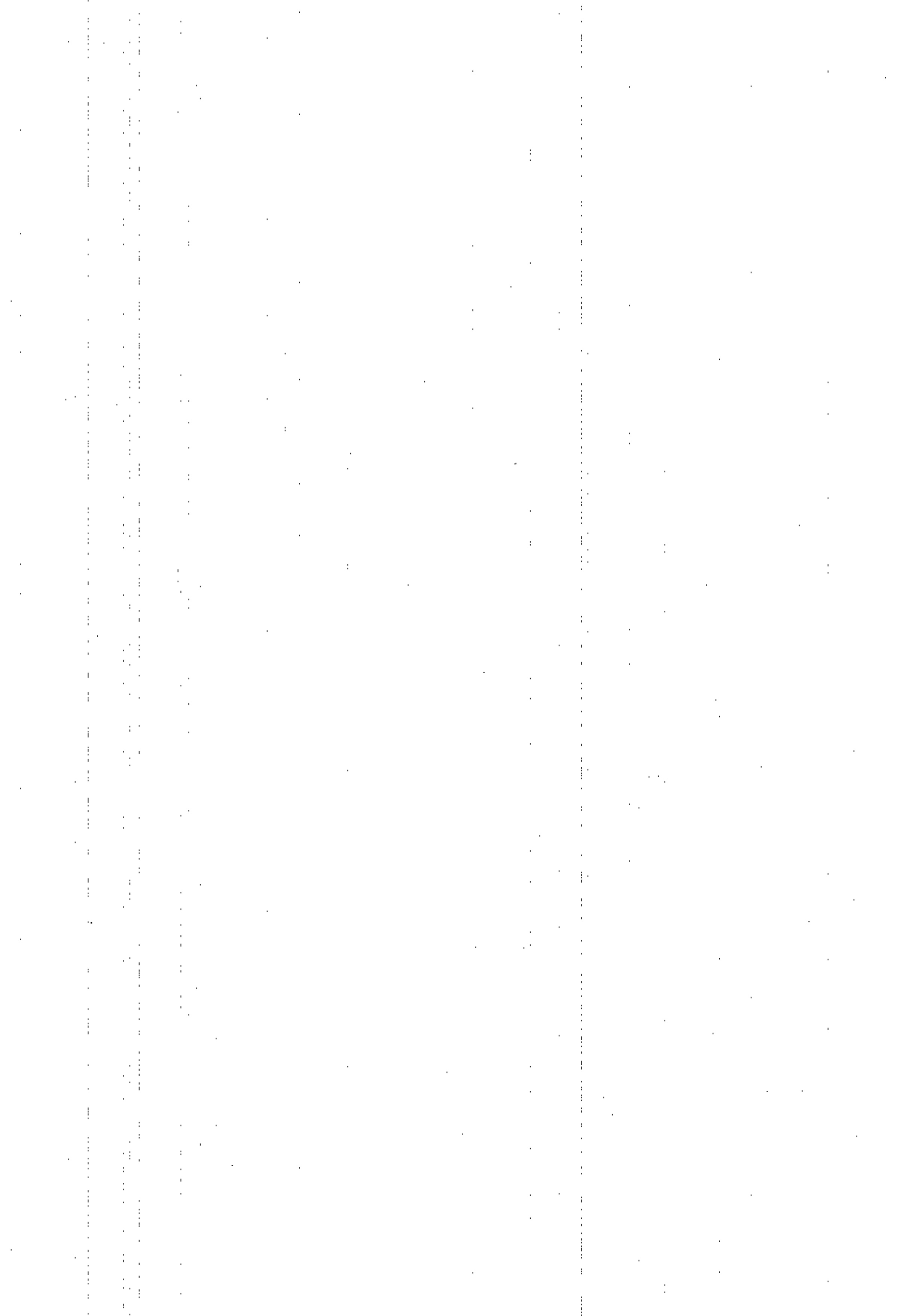
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

المحاضرة السابعة:

الإبداع فى كمال الشرع وخطر الإبتداع

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين



الإبداع في بيان كمال الشرع وخطر الإبتداع

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وترك أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك؛ بين فيها ما تحتاجه الأمة في جميع شئونها حتى قال أبو ذر رضي الله عنه: «مَا تَرَكَ النَّبي ﷺ طائراً يُقَلِّب جَنَاحيه في السَّماء إلا ذَكَرَ لنا منه علماً». وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه علمكم نبيكم حتى الخراة - آداب قضاء الحاجة - قال: «نعم، لقد نهَانا أن نستقبل القبلة بِغَائط أو بول، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نَسْتَنْجي برجيع أو عظم».

* * *

● وإنك لترى هذا القرآن العظيم قد بين الله تعالى فيه أصول الدين وفروع الدين، فبين التوحيد بجميع أنواعه، وبين حتى آداب المجالس والاستئذان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنُوا إِذا قيل لكم تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِس فافْسَحُوا يَفْسَحِ الله لَكُم﴾[المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا لا

(*) نشرت ضمن «مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٥/ ٢٤١: ٢٥٥)

تَدخلُوا بُيُوتاً غير بيُوتِكُم حَتَّى تَستَأنسُوا وَتُسلِّموا عَلَى أَهْلِهَا ذَلكُم خَيرٌ لكُم لَعَلَّكم تَذكرون فَإن لَم تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هُو أزكى لَكُم وَالله بما تَعْملون عَليم﴾[النور: ٢٧ ـ ٢٨].

حتى آداب اللباس قال الله تعالى: ﴿والقَوَاعِدُ من النِّساءِ اللاتى لا يَرْجُون نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِن جُنَاحٌ أن يَضَعْن ثِيَابهنَّ غَيْرَ مُتَبرِّجات بِزِينة﴾[النور: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّبى قُلْ لأزْوَاجك وبَنَاتك ونِسَاء المُؤْمنين يُدْنِينَ عَلَيهِن من جَلابِيبِهنَّ ذلك أدنَى أن يعرفن فلا يُؤْذَيْن وكَانَ الله غَفُوراً رَحيماً﴾[الأحزاب: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ولا يَضرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيعلَم مَا يُخفِينَ من زينتهن﴾[النور: ٣١] وقال تعالى: ﴿ولَيْسَ البِر بأَنْ تَأتُوا البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ولَكِنَّ البِرَّ من اتَّقَى وأتُوا البُيُوت مِن أبْوابِهَا﴾[البقرة: ١٨٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى يتبين بها أن هذا الدين شامل كامل لا يحتاج إلى زيادة كما أنه لا يجوز فيه النقص، ولهذا قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿ونَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتَاب تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيء﴾[النحل: ٨٩] فما من شىء يحتاج الناس إليه فى معادهم ومعاشهم إلا بينه الله تعالى فى كتابه إما نصا، أو إيماءً وإما منطوقاً، وإما مفهوماً.

● **أيها الأخوة:** إن بعض الناس يفسر قول الله تعالى: ﴿وَمَا من دَابّة فِى الأرْض وَلا طَائِر يَطِير بِجَنَاحَيْه إلا أمَم أمْثالكم مَا فَرَّطْنَا في الكِتَاب من شَيء ثُمَّ إلى رَبِّهم يحشرون﴾[لأنعام: ٣٨] يفسر قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الكِتَاب﴾ على أن الكتاب القرآن.

والصواب: أن المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، وأما القرآن فإن الله تعالى وصفه بأبلغ من النفى وهو قوله: ﴿وَنَزَّلنَا عَلَيْك الكِتَاب تِبْياناً لِكُلِّ

شىء﴾ فهذا أبلغ وأبين من قوله ﴿مَا فَرَّطْنَا فى الكتَاب مِن شىء﴾ ولعل قائلاً يقول أين نجد أعداد الصلوات الخمس فى القرآن؟ وعدد كل صلاة فى القرآن؟ وكيف يستقيم أننا لا نجد فى القرآن بيان أعداد ركعات كل صلاة والله يقول: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شىء﴾؟

والجواب على ذلك أن الله تعالى بين لنا فى كتابه أنه من الواجب علينا أن نأخذ بما قاله الرسول ﷺ وبما دلنا عليه ﴿مَن يُطع الرَّسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾[النساء: ٨٠] ﴿وما اتاكم الرسول فخذوه وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهوا﴾ [الحشر: ٧] فما بينته السنة فإن القرآن قد دل عليه، لأن السنة أحد قسمى الوحى الذى أنزله الله على رسوله وعلمه إياه كما قال الله تعالى: ﴿وأَنْزَل الله عَلَيْكَ الكِتَاب وَالحِكْمَة﴾[النساء: ١١٣] وعلى هذا فما جاء فى السنة فقد جاء فى كتاب الله عز وجل.

● **أيها الأخوة**: إذا تقرر ذلك عندكم فهل النبى ﷺ توفى وقد بقى شىء من الدين المُقَرب إلى الله تعالى لم يُبيِّنه؟

أبداً فالنبى عليه الصلاة والسلام بين كل الدين إما بقوله وإما بفعله وإما بإقراره ابتداءاً أو جواباً عن سؤال، وأحياناً يبعث الله أعرابياً من أقصى البادية ليأتى إلى الرسول ﷺ يسأله عن شىء من أمور الدين لا يسأله عنه الصحابة الملازمون لرسول الله ﷺ ولهذا كانوا يفرحون أن يأتى أعرابى يسأل النبى ﷺ عن بعض المسائل . وَيدُلُّك على أن النبى ﷺ ما ترك شيئاً مما يحتاجه الناس فى عبادتهم ومعاملتهم وعيشتهم إلا بيَّنه يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتى وَرَضِيتُ لَكُم الإسْلام دِيناً ﴾ [المائدة: ٣].

● إذا تقرَّر ذلك عندك أيُّها المسلم فاعلم أن كل من ابتدع شريعة فى دين الله ولو بِقَصْدٍ حَسَن فإن بدعته هذه مع كونها ضلالة تعتبر طعناً فى دين الله عز وجل، تعتبر تكذيباً لله تعالى فى قوله: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينكُم﴾؛ لأن هذا المبتدع الذى ابتدع شريعة فى دين الله تعالى وليست فى دين الله تعالى كأنه يقول - بلسان الحال - إن الدين لم يكمل لأنه قد بقى عليه هذه الشريعة التى ابتدعها يتقرب بها إلى الله عز وجل.

ومن عجبٍ أن يبتدع الإنسان بدعة تتعلق بذات الله عز وجل وأسمائه وصفاته ، ثم يقول إنه فى ذلك معظم لربه ، إنه فى ذلك منزه لربه، إنه فى ذلك متمثل لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً﴾ [البقرة:٢٢] إنك لتعجب من هذا أن يبتدع هذه البدعة فى دين الله المتعلقة بذات الله التى ليس عليها سلف الأمة ولا أئمتها ثم يقول إنه هو المنزه لله ، وإنه هو المعظم لله ، وإنه هو الممتثل لقول الله تعالى : ﴿ فلا تَجعلُوا لله أَنْدَاداً ﴾ وأن من خالف ذلك فهو ممثل مشبه ، أو نحو ذلك من ألقاب السُّوء .

كما أنك لتعجب من قوم يبتدعون فى دين الله ما ليس منه فيما يتعلق برسول الله ﷺ ، ويدعون بذلك أنهم هم المحبون لرسول الله ﷺ، وأنهم المعظمون لرسول الله ﷺ ، وإن من لم يوافقهم فى بدعتهم هذه فإنه مبغض لرسول الله ﷺ إلى غير ذلك من ألقاب السوء التى يلقبون بها من لم يوافقهم على بدعتهم فيما يتعلق برسول الله ﷺ .

ومن العجب أن مثل هؤلاء يقولون نحن المعظمون لله ولرسوله ، وهم إذا ابتدعوا فى دين الله ، وفى شريعته التى جاء بها رسوله ﷺ ما ليس منها فإنهم بلا شك متقدمون بين يدى الله ورسوله وقد قال الله عز

وجل : ﴿ يَا أَيُّها الذين آمَنُوا لا تُقَدموا بَين يَدَى الله وَرَسُوله وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ [الحجرات:١].

● **أيها الأخوة** : إنى سائلكم ومُنَاشدكم بالـله عزّ وجلّ وأريد منكم أن يكـون الجواب من ضـمائركـم ، لا من عواطـفكم ، مـن مقتـضى دينكم، لا من مقتضى تقليدكم ، سواء فيما يتعلق بذات الله ، وصفات الله ، وأسماء اللـه ،أو فيما يتعلق برسول الله ﷺ ، ثـم يقولون نحن المعظمون لله ولرسول الله أهؤلاء أحق بأن يكونوا معظمين لله ولرسول الله ؟ أم أولـئك القوم الـذين لا يحيـدون قيد أنملـة عن شريعـة الله ، يقولون فيما جاء من الشريعة : آمنا ، وصـدقنا فيما أخبرنا به ، وسمعنا وأطعنا فيما أمرنـا به أو نهينا عنه ، ويقولون فيما لـم تأت به الشريعة : أحجمنا وانتهينا ، وليس لنا أن نـتقدم بين يدى الله ورسوله ، وليس لنا أن نقـول فى دين اللـه ما ليس مـنه ، أيهـما أحق أن يكـون محباً لـله ورسوله ومعظماً لله ورسوله ؟

لاشك أن الذين قالوا آمنا وصدَّقنا فيمـا أخبرنا به وسمعنا وأَطَعْنا فيما أمرنا به ، وقالوا نحن أقل قدراً فى نفـوسنا من أن نجعل فى شريعة الله ما ليس منها ، أو أن نبتدع فى ديـن الله ما ليس منه ؛ لاشك أن هؤلاء هم الذين عرفوا قدر أنفسهم ، وعرفوا قدر خالقهم ، هؤلاء هم الذين عظَّموا الله ورسوله ، وهم الذين أظهروا صدق محبتهم لله ورسوله .

لا أولئك الذيـن يبتدعون فى دين اللـه ما ليس منه فى الـعقيدة ، أو القول ، أو العمل وإنك لتعجب من قوم يعرفون قول رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُم ومُحدثات الأُمور ، فإنَّ كل مُحـدَثَةٍ بدعة ، وكل بِدْعة ضَلالة،

وكل ضلالة فى النار».

ويعلمـون أن قوله : « كل بدعة » كلـية عامة شاملة، مـسورة بأقوى أدوات الشمول والـعموم «كل » والذى نطق بـهذه الكلية صـلوات الله وسلامه عليه يـعلم مدلول هذا اللفظ وهو أفصح الخـلق، وأنصح الخلق للخلق لا يتلفظ إلا بشىء يقصد معناه ، إذن فالنبى ﷺ حينما قال: «كل بدعة ضلالـة» كان يدرى ما يـقول ، وكان يدرى مـعنى ما يـقول، وقد صدر هذا القول منه عن كمال نصح للأمة.

● وإذا تم فى الكلام هذه الأمور الثلاثة - كمال النصح، والإرادة، وكمال البيان والفصاحة وكمال العلم والمعرفة - دل ذلك على أن الكلام يراد به ما يدل عليه من المعنى ، أفبعـد هذه الكلية يصح أن نقسم البدعة إلى أقسام ثلاثة ، أو إلى أقسام خمسة ؟ أبداً هذا لا يصح .

● وما ادعاه العلماء من أن هناك بدعة حسنة. فلا تخلوا من حالين:

١ -أن لا تكون بدعة لكن يظنها بدعة .

٢ - أن تكون بدعة فهى سيئة لكن لا يعلم عن سوئها .

فكل مـا ادعى أنه بدعة حـسنة فالجواب عـنه بهذا . وعلـى هذا فلا مدخل لأهل البدع فـى أن يجعلوا من بدعهم بدعة حســنة وفى يدنا هذا السيف الصـارم من رسول الله ﷺ «كل بدعة ضلالـة». إن هذا السيف الصَّارم إنما صنع فى مـصانع النبوة والرسالة ، إنه لم يصـنع فى مصانع مضطربة ، لكنه صنع فى مصانع النبوة ، وصاغه النبى ﷺ هذه الصياغة البليغـة فلا يمكن لمن بيده مثل هـذا السيف الصارم أن يقابلـه أحد ببدعة

يقول إنها حسنة ورسول الله ﷺ يقول : «كل بدعة ضلالة».

● وكأنى أحس أن فى نفوسكم دبيباً يقول ما تقول فى قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموفق للصواب حينما أمر أبى ابن كعب وتميماً الدَّارى أن يقوما بالناس فى رمضان، فخرج والناس على إمامهم مجتمعون فقال: «نعمت البِدْعة هذه، والتى ينامون عنها أَفْضَل من التى يَقُومون» .

● **فالجواب عن ذلك من وجهين :**

الوجه الأولى : أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يعارض كلام الرسول ﷺ بأى كلام ، لا بكلام أبى بكر الذى هو أفضل الأمة بعد نبيها ، ولا بكلام عمر الذى هو ثانى هذه الأمة بعد نبيها ، ولا بكلام عثمان الذى هو ثالث هذه الأمة بعد نبيها ، ولا بكلام على الذى هو رابع هذه الأمة بعد نبيها ، ولا بكلام أحد غيرهم لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذين يُخَالِفُون عن أَمْرِه أن تُصِيبهم فِتْنَة أو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أليم ﴾ [النور:٦٣] قال الإمام أحمد رحمه الله « أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قول النبى ﷺ أن يقع فى قلبه شيء من الزيغ فيهلك» أهـ.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر».

الوجه الثانى : أننا نعلم علم اليقين أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أشد الناس تعظيماً لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان مشهوراً بالوقوف على حدود الله تعالى حتى كان يوصف بأنه كان

وقافاً عند كلام الـله تعالى . وما قصة المرأة التـى عارضته - إن صحت القصة - فى تحـديد المهور فى تحديد المهـور بمجهولة عند الكـثير حيث عارضته بقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْتُم إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ﴾ [النساء:٢١] فانتهى عمر عما أراد من تحـديد المهور . لكن هذه القـصة فى صحتها نـظر . لكن المراد بيان أن عمر كان وقافاً عند حدود الله تعالى لا يتعداها ، فلا يليق بعمر رضى الله عنه وهو من هو أن يخالف كلام سيد البشر محمد ﷺ وأن يقول عن بدعة « نعمت البدعة » وتكون هذه البدعة هى التى أرادها رسول الله ﷺ بقوله : «كل بدعة ضلالـة» بل لابد أن تنزل البدعة التى قال عنها عمر إنها «نعمت الـبِدْعة» على بدعة لا تكون داخلة تحت مراد النبى ﷺ فى قوله : «كل بدعة ضلالة».

فعمر رضى الله عـنه يشير بقوله : « نعمت الـبدعة هذه » إلى جمع الناس على إمام واحـد بعد أن كانوا متفرقين ، وكان أصـل قيام رمضان من رسول اللـه ﷺ فقد ثبت فى الصـحيحين من حديث عـائشة رضى الله عنها أن النـبى ﷺ قام فى الناس ثلاث ليال وتأخر عنـهم فى الليلة الرابعة وقال: «إِنى خَشِيتُ أن تُفْرَض عليكم فَتَعْجَزُوا عنها».

فقيام الليل فى رمضان جماعة من سُنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسماها عـمر رضى الله عنـه بدعة باعتبـار أن النبى ﷺ لما ترك الـقيام صار الناس متفـرقين يقوم الرجل لنفسه ، ويقوم الـرجل ومعه الرجل ، والرجل ومـعه الرجلان ، والـرهط ، والنفر فـى المسجد ، فـرأى أمير المؤمنين عمر رضى الـله عنه برأيه السديد الصائب أن يـجمع الناس على إمام واحد فكان هـذا الفعل بالنسبـة لتفرق الناس من قبـل بدعة ، فهى

بدعة إعتبارية إضافية ، وليست بدعة مطلقة إنشائية أنشأها عمر رضى الله عنه ، لأن هذه السنة كانت موجودة فى عهد الرسول ﷺ فهى سُنة لكنها تركت منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى أعادها عمر رضى الله عنه وبهذا التقعيد لا يمكن أبداً أن يجد أهل البدع من قول عمر هذا منفذاً لما استحسنوه من بدعهم.

● **وقد يقول قائل** : هناك أشياءُ مبتدعة قَبلها المسلمون وعملوا بها وهى لم تكن معروفة فى عهد النبى ﷺ كالمدارس ، وتصنيف الكتب ، وما أشبه ذلك وهذه البدعة استحسنها المسلمون وعملوا بها ورأوا أنها من خيار العمل ، فكيف تجمع بين هذا الذى يكاد أن يكون مجمعاً عليه بين المسلمين وبين قول قائد المسلمين ونبى المسلمين ورسول رب العالمين ﷺ «كل بدعة ضلالة» ؟ .

فالجواب : أن نقول هذا فى الواقع ليس ببدعة ، بل هذا وسيلة إلى مشروع ، والوسائل تختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ، ومن القواعد المقررة أن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فوسائل المشروع مَشْرُوعة ، ووسائل غير المشروع غير مشروعة بل وسائل المحرم حرام . والخير إذا كان وسيلة للشَّر كان شراً واستمع إلى الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨] وسب آلهة المشركين ليس عدوا بل حق وفى محله ، لكن سبّ رب العالمين عدو وفى غير محله وعدوان وظلم ، ولهذا لما كان سب آلهة المشركين المحمود سبباً مفضياً إلى سب الله كان محرماً ممنوعاً ، سقت هذا دليلا على أن الوسائل لها أحكام المقاصد فالمدارس ، وتصنيف العلم،

وتأليف الكتب وإن كان بدعة لم يوجد فى عهد النَّبى ﷺ على هذا الوجه إِّلا أنه ليس مقصداً بل هو وسيلة والوسائل لها أحكام المقاصد . ولهذا لو بنى شخص مدرسة لتعليم علم محرم كان البناء حراماً ، ولو بنى مدرسة لتعليم علم شرعى كان البناء مشروعاً.

● **فإن قال قائل** : كيف تجيب عن قول النبى ﷺ «مَنْ سنَّ فى الإسلام سُنَّة حَسَنة فَلَهُ أَجرُها وأَجْر من عَمِلَ بِها إلى يوم القيامة».

وسنَّ : بمعنى «شرع» ؟ .

فالجواب : أن من قال : « مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّة حَسَنة » هو القائل : « كل بدعة ضَلالة » ولا يمكن أن يصدر عن الصادق المصدوق قول يكذب له قولا آخر ، ولا يمكن أن يتناقض كلام رسول الله ﷺ أبداً ، ولا يمكن أن يرد على معنى واحد مع التناقض أبداً ، ومن ظن أن كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ متناقض فليعد النظر ، فإن هذا الظن صادر إما عن قصور منه ، وإما عن تقصير . ولا يمكن أن يوجد فى كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ تناقض أبداً .

وإذا كان كذلك فبيان عدم مناقضة حديث « كل بدعة ضَلالة » لحديث « من سن فى الإسلام سنة حسنة » أن النبى ﷺ يقول : «مَن سَنَّ فى الإسْلام» والبدع ليست من الإسلام ، ويقول « حسنة » والبدعة ليست بحسنة ، وفرق بين السن والتبديع.

وهناك جواب لا بأس به : أن معنى « من سن » من أحيا سنة كانت موجودة فعدمت فأحياها وعلى هذا فيكون « السن » إضافياً نسبياً كما

تكون البدعة إضافية نسبية لمن أحيا سُنة بعد أن تركت.

وهناك **جواب ثالث**: يدل له سبب الحديث وهو قصة النَّفر الذين وفدوا إلى النبى ﷺ وكانوا فى حالة شديدة من الضيق، فدعا النبى ﷺ إلى التَّبرع لهم، فجاء رجل من الأنصار بيده صرة من فضة كادت تثقل يده فوضعها بين يدى الرسول ﷺ فجعل وجه النبى عليه الصلاة والسلام يتهلل من الفرح والسرور وقال: «مَن سَنَّ فى الإسلام سُنَّة حَسنَة فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلى يَوْمِ القِيامة».

فهنا يكون معنى «السن» سن العمل تنفيذًا وليس العمل تشريعاً، فصار معنى « من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة » من عمل بها تنفيذًا لا تشريعاً، لأن التشريع ممنوع « كل بدعة ضلالة ».

وليعلم أيها الإخوة أن المتابعة لا تتحقق إلا إذا كان العمل موافقًا للشريعة فى أمور ستة:

الأول: السَّبب: فإذا تعبد الإنسان لله عبادة مقرونة بسبب ليس شرعيا فهى بدعة مردودة على صاحبها.

مثال ذلك: أن بعض الناس يحيى ليلة السابع والعشرين من رجب بحجة أنها الليلة التى عرج فيها برسول الله ﷺ، فالتهجد عبادة، ولكن لما قرن بهذا السبب كان بدعة لأنه بنى هذه العبادة على سبب لم يثبت شرعاً. وهذا الوصف - موافقة العبادة للشريعة فى السبب - أمر مهم يتبين به ابتداع كثير مما يظن أنه من السنة وليس من السنة.

الثانى: الجنس: فلابد أن تكون العبادة موافقة للشَّرع فى جنسها فلو

تعبد إنسان لله بعبادة لم يشرع جنسها فهى غير مقبولة .

مثال ذلك : أن يضحى رجل بفرس ، فلا يَصِحّ أضحية؛ لأنه خالف الشريعة فى الجنس، فالأضاحى لا تكون إلا من بهيمة الأنعام ، الإبل ، البقر ، الغنم .

الثالث: القدر: فلو أراد إنسان أن يزيد صلاة على أنها فريضة فنقول: هذه بدعة غير مقبولة لأنها مخالفة للشرع فى القدر ومن باب أولى لو أن الإنسان صلى الظهر مثلاً خمسًا فإن صلاته لا تصح بالاتفاق.

الرابع: الكيفية: فلو أنَّ رجلاً توضأ فبدأ بغسل رجليه ، ثم مسح رأسه ثم غسل يديه ، ثم وجهه فنقول : وضوءه باطل لأنه مخالف للشرع فى الكيفية .

الخامس: الزمان: فلو أن رجلا ضحى فى أول أيام ذى الحجة فلا تقبل الأضحية لمخالفة الشرع فى الزمان .

وسمعت أن بعض الناس فى شهر رمضان يَذْبحون الغنم تقرباً لله تعالى بالذبح ، وهذا العمل بدعة على هذا الوجه ، لأنه ليس هناك شيء يتقرب به إلى الله بالذبح إلا الأضحية ، والهدى والعقيقة ، أما الذَّبح فى رمضان مع اعتقاد الأجر على الذَّبح كالذَّبح فى عيد الأضحى فبدعة . وأما الذبح لأجل اللَّحم فهذا جائز .

السادس: المكان: فلو أن رجلا اعتكف فى غير مسجد فإن اعتكافه لا يَصِحُّ ،وذلك لأن الاعتكاف لا يكون إلا فى المساجد ، ولو قالت امرأة أريد أن أعتكف فى مصلى البيت . فلا يصح اعتكافها لمخالفة الشرع فى

المكان . ومن الأمثلة لو أن رجلا أراد أن يطوف فوجد المطاف قد ضاق ووجد ما حوله قد ضاق فصار يطوف من وراء المسجد فلا يصح طوافه لأن مكان الطواف البيت قال الله تعالى لإبراهيم الخليل : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج:٢٦].

فالعبادة لا تكون عملاً صالحاً إلا إذا تحقق فيها شرطان :

الأول : الإخلاص .

الثانى : المتابعة ، والمتابعة لا تتحقق إلا بالأمور الستة الآنفة الذكر .

وإننى أقول لهؤلاء الذين ابتلوا بالبدع - الذين قد تكون مقاصدهم حسنة ويريدون الخير - إذا أردتم الخير فلا والله نعلم طريقاً خيراً من طريق السَّلف رضى الله عنهم .

● **أيُّها الإخوة** عضوا على سُنَّة الرَّسول ﷺ بالنواجذ واسلكوا طريق السلف الصالح وكونوا على ما كانوا عليه وانظروا هل يضيركم ذلك شيئاً ؟ .

وإنى أقول - وأعوذ بالله أن أقول ما ليس لى به علم - أقول إنك لتجد الكثير من هؤلاء الحَريصين على البدع يكون فاتراً فى تنفيذ أمور ثبتت شرعيتها وثبتت سنيتها ، فإذا فرغوا من هذه البدع قَابَلُوا السُّنن الثابتة بالفُتُور ، وهذا كله من نتيجة أَضرار البدع على القلوب فالبدع أضرارها على القلوب عظيمة ، وأخطارها على الدين جسيمة ، فما ابتدع قوم فى دين الله بدعة إلا أضاعوا من السُنة مثلها أو أشد ، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم من السلف .

لكن الإنسان إذا شعر أَنَّه تابع لا مُشَرِع حَصَل لـه بذلك كمال الخشية والخضوع ، والذُّل ، والعبادة لرب العالمين ، وكمال الإتباع لإمام المتقين وسيد المرسلين ورسول رب العالمين محمد ﷺ .

● إننى أوجه نصيحة إلى إخوانى المسلـمين الذين استحسنوا شيئاً من البدع سواءً فيما يتعلق بذات الله ، أو أسماء الله ، أو صفات الله ، أو فيما يتعلق برسول الله ﷺ وتعظيمه ، أن يتقوا الله ويعدلُوا عن ذلك ، وأن يجعلوا أمرهم مَبْنيا على الاتباع لا على الابتداع، على الاخلاص لا على الإشراك ، على الـسُّنة لا على البدعة ، على ما يـحبه الرَّحمن لا على ما يـحبه الشَّيطان ، ولـينظروا ماذا يحـصل لقلوبهـم من السَّلامة، والحياة ، والطمأنينة ، وراحة البال ، والنور العظيم .

* * *

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا هداة مُهتدين ، وقَادة مُصْلحين ، وأن يُنير قلوبـنا بالإيمان ، والعلـم ، وأن لا يجعل ما عـلمنا وبالاً علـينا ، وأن يَسْلُك بنا طـريق عباده المؤمنـين ، وأن يجعلنا مـن أوليائه المتقـين وحزبه المفلحين .

وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحْبه أجمعين .

❁ ❁ ❁

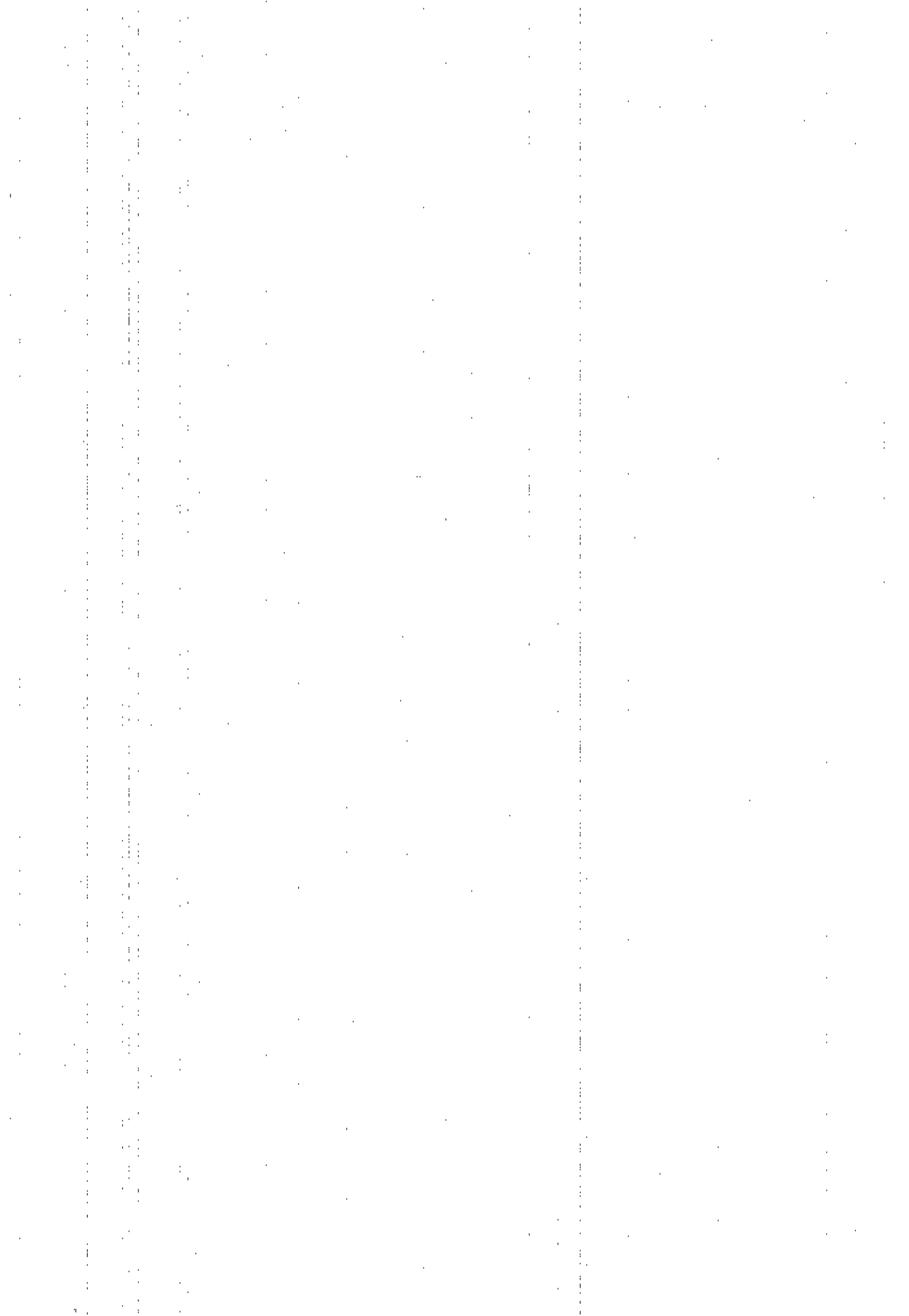
المحاضرة الثامنة:

زاد الداعية إلي الله عز وجل

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين

(*) ألقاها بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.



زاد الدَّاعية إلى الله عز وجل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده وترك أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأسأل الله عز وجل أن يجعلنى وإياكم من أتباعه باطناً وظاهراً ، وأن يتوفانا على ملته ، وأن يحشرنا فى زمرته ، وأن يدخلنا فى شفاعته ، وأن يجمعنا به فى جنات النعيم مع الدين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين .

(*) أما بعد : - فأيها الإخوة : إنه ليسرنى أن ألتقى بإخوانى المسلمين هنا وفى أى مكان آخر يُرْجَى منه الخير ونشر هذا الدين ، لأن الله تعالى أخذ على كل من أعطاه علماً أخذ عليه ميثاقاً بما أعطاه من العلم أن يبينه للناس ولا يكتمه كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧]، وهذا الميثاق الذى أخذه الله ليس وثيقه تكتب و يشاهدها الناس ولكنها وثيقة تعلم بما أعطى الله صاحبها من العلم فإذا أعطاه الله العلم فإن هذه هى الوثيقة التى واثق الله بها هذا الرجل أو هذه المرأة التى أعطاها الله علماً فعلى كل من عنده علم أن يبلغ ما علمه من شريعة الله سبحانه وتعالى فى أى مكان وفى أى مناسبة .

أيها الإخوة : إنَّ موضوع محاضرتنا هذه :

زاد الداعية إلى الله عز وجل

* * *

(*) نشرت بمكتبة ابن تيمية بالقاهرة .

والزاد لكل مسلم : هو ما بينه الله عز وجل فى قوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوى ﴾ [البقرة:١٩٧] فزاد كل مسلم هى تقوى الله عز وجل التى كرر الله تعالى ذكرها فى القرآن أمراً وثناءً على من قام بها وبيانا لثوابه وغير ذلك من أساليب الكلام ﴿ وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرة من ربكُم وَجنَّة عَرْضُها السَّمَاوات وَالأَرْضُ أعدَّتْ للمُتَّقين . الذينَ يُنْفقونَ في السَّرَّاء وَالضَّراء وَالكَاظمينَ الغَيْظَ وَالعَافينَ عَنِ النَّاس وَالله يُحب المُحْسنين . وَالَّذينَ إذا فَعَلُوا فَاحشةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهم ذَكَرُوا الله فَاستَغفروا لذُنُوبهم ومن يَغْفرُ الذُّنوبَ إلا الله ولَم يُصرّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمونَ . أولئكَ جَزاؤُهم مَغْفرةٌ من ربهم وَجَنَّات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالدينَ فِيها وَنِعْم أَجْرُ العَامِلين﴾[آل عمران:١٣٣، ١٣٦].

أيها الإخوة الكرام : ربما تقولون : ما هى التَّقوى ؟ فالجواب : ما أُثر عن طلق بن حبيب رحمه الله حيث قال :

«التَّقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله». فجمع فى هذه العبارات بين العلم والعمل واحتساب الثواب والخوف من العقاب فهذه هى التقوى.

وإننا نعلم جميعاً أنَّ الدَّاعية إلى الله عز وجل أولى الناس أن يتحلى بهذا الخلق بتقوى الله فى السر والعلن. وإننى ذاكر بمعونة الله عز وجل فى هذا المقام ما يتعلق بالداعية وما ينبغى أن يتزود به:

● **الزاد الأول : أن يكون الدّاعية على علم فيما يدعو إليه**، على علم صحيح مرتكز على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لأن كل علم يُتلقى

من سواهما فإنه يجب أن يُعرض عليهما أولاً وبعد عرضه فإما أن يكون موافقاً أو مخالفاً . فإن كان موافقاً قُبل ، وإن كان مخالفاً وجب رَدُّه على قائله كائنا من كان فقد ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «يُوشك أن تنزل عَليكم حِجارة من السماء أقول : قال رسول الله: وتقولون : قال أبو بكر وعمر». إذا كان هذا فى قول أبى بكر وعمر الذى يُعارض به قول رسول الله ﷺ فما بالكم بقول من دونهما فى العلم والتقوى والصحبة والخلافة إن ردّ قوله إذا خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من باب أولى، ولقد قال عز وجل : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُم عَذابٌ أَلِيم ﴾ [النور:٦٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله : «أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك».

وإن أول زاد يتزود به الداعية إلى الله عز وجل أن يكون على علم مستمد من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ الصحيحة المقبولة وأما الدَّعوة بدون علم فإنَّها دعوة على جهل والدَّعوة على الجهل ضررها أكبر من نفعها لأن هذا الداعية قد نصب نفسه موجهاً ومرشداً فإذا كان جاهلاً فإنه بذلك يكون ضالا مضلا والعياذ بالله ويكون جهله هذا جهلاً مركباً والجهل المركب أشد من الجهل البسيط فالجهل البسيط يمسك صاحبه ولا يتكلم ويمكن رفعه بالتعلم ولكن المشكلة كل المشكلة فى حال الجاهل المركب إن هذا الجاهل المركب لن يسكت بل سيتكلم ولو عن جهل وحينئذ يكون مدمراً أكثر مما يكون منوراً.

○ **أيها الإخوة** : إنَّ الدَّعوة إلى الله على غير علم خلاف ما كان عليه النبى ﷺ ومن اتبعه استمعوا إلى قول الله تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ

حيث قال : ﴿ قُل هَذِه سَبِيلى أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرةٍ أَنَا وَمن اتَّبعنى وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا من المُشْرِكِين ﴾ [يوسف:١٠٨] فقال : أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى أى أن من اتبعه ﷺ فإنه لابد أن يدعو إلى الله على بصيرة لا على جهل.

○ وتأمل أيها الدَّاعية لله قول الله تعالى : ﴿ عَلَى بَصِيرةٍ ﴾ أى على بصيرة فى ثلاثة أمور :

١ - **على بصيرة فيما يدعو إليه** بأن يكون عالماً بالحكم الشَّرعى فيما يدعو إليه لأنه قد يدعو إلى شىء يظنه واجباً وهو فى شرع الله غير واجب فَيُلْزِم عباد الله بما لم يُلْزِمهم الله به وقد يدعو إلى ترك شىء يظنه محرماً وهو فى دين الله غير محرم فيحرم على عباد الله ما أحله الله لهم .

٢ - **على بصيرة فى حال المَدْعو**، ولهذا لما بعث النبى ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له : « إِنَّك سَتَأْتى قَوْماً أَهْل كِتَاب » . ليعرف حالهم ويستعد لهم . فلابد أن تعلم حال هذا المدعو ما مستواه العلمى ؟ وما مستواه الجدلى ؟ حتى تتأهب له فتناقشه وتجادله إذا دخلت مع مثل هذا فى جدال وكان عليك لقوة جدله صار فى هذا نكبة عظيمة على الحق وأنت سببها ، ولا تظن أن صاحب الباطل يخفق بكل حال فإن الرسول ﷺ قال : « إِنَّكم تَخْتَصمون إلىَّ وَلَعلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَنُ بِحُجَّته من بَعْض فَأَقْضِى له بِنَحْو مِمَّا أسمع » فهذا يدل على أن المخاصم وإن كان مبطلاً قد يكون ألحن بحجته من الآخر فيُقْضى بحسب ما تكلم به هذا المخاصم فلابد أن تكون عالماً بحال المدعو .

٣ - **على بصيرة فى كيفية الدَّعوة** قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

○ وبعض الناس قد يجد المنكر فيهجم عليه ولا يُفكر فى العَوَاقب النَّاتجة عن ذلك لا بالنسبة له وحده ولكن بالنسبة له ولنظرائه من الدعاة إلى الحق لذا يجب على الداعية قبل أن يتحرك أن ينظر إلى النتائج ويقيس . قد يكون فى تلك السَّاعة ما يطفى لهيب غيرته فيما صنع ، ولكن سيخمد هذا الفعل نار غيرته وغيرة غيره فى المستقبل ، قد يكون فى المستقبل القريب دون البعيد ، لهذا أحث إخوانى الدُّعاة على استعمال الحكمة والتَّأنى، والأمر وإن تأخر قليلاً لكن العاقبة حميدة بمشيئة الله تعالى .

وإذا كان هذا أعنى تزود الداعية بالعلم الصَّحيح المبنى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هو مدلول النصوص الشرعية فإنه كذلك مدلول العقول الصريحة التى ليس فيها شبهات ولا شهوات لأنك كيف تدعو إلى الله عز وجل وأنت لا تعلم الطريق الموصل إليه ، لا تعلم شريعته كيف يصح أن تكون داعية ؟! .

فإذا لم يكن الإنسان ذا علم فإن الأولى به أن يتعلم أولاً ثم يدعو ثانياً. قد يقول قائل : هل قولك هذا يعارض قول النبى ﷺ « بَلغوا عنى ولو آية» ؟

فالجواب : لا ، لأن الرسول ﷺ يقول : « بَلغوا عنى» إذاً فلابد أن يكون ما نُبَلِّغه قد صَدَرَ عن رسول الله ﷺ هذا هو ما نريده ولسنا عندما نقول إن الداعية محتاج إلى العلم لسنا نقول إنه لابد أن يبلُغ

شوطاً بعيداً فى الـعلم ولكننا نقول لا يدعو إلا بما يعلـم فقط ولا يتكلم بما لا يعلم.

● **الزاد الثَّانى: أن يكون الـدَّاعية صابراً علـى دعوته،** صابراً عـلى ما يدعو إليه ، صابراً على ما يعترض دعـوته ، صابراً على ما يعترضه هو من الأذى .

أن يكون صابـراً على الدعوة أى مُثَابراً علـيها لا يقطعـها ولا يمل بل يكون مستمراً فى دعوته إلى الله بقدر المستطاع وفى المجالات التى تكون الدَّعوه فيها أنفع وأولى وأبلغ ، وليصبر على الدعوة ولا يمل فإن الإنسان إذا طرقه الملل استحسر وترك ، ولكن إذا كان مثابراً على دعوته فإنه ينال أجر الصابرين من وجه ، وتكون له العاقبة من وجه آخر ، واستمع إلى قول الله عز وجل مخـاطباً نبيه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الـغَيْبِ نُوحِيها إلـيكَ مَا كُنْت تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قبل هذَا فَاصْبِر إنَّ العَاقِبَةَ للمُتَّقِين﴾ [هود:٤٩].

ولابد أن يكون الإنســان صابراً على ما يعترض دعوتـه من معارضات ومجادلات لأن كل إنسان يقوم داعيـاً إلى الله عز وجل لابد أن يعارض ﴿وكَذَلِك جَعَلْنَا لِكُل نَبِـى عَدوا مِن المجـرمـين وكَفَى بِربِـك هَادِيـاً ونَصِيـراً﴾ [الفرقان:٣١] فكل دعوة حقَّة لابد أن يقوم لها معارض ، لابد أن يقوم لها ممانع ، ومجادل فيها ومشكك ، ولكن يجب على الداعية أن يصبر على ما يعترض دعوته حـتى لو وصفت تلك الدعوة بأنها خـطأ أو أنها باطل وهو يدرك أنهـا مقتضى كتـاب الله وسنة رسول الـله ﷺ فليصبـر على ذلك.

ولكن هذا لا يعنـى أن الإنسان يصرّ على ما يقول ومـا يدعو إليه وإن

تبين له الحق، فإن الـذى يصر على ما يدعو إليه وإن تبـين له الحق يشبه من قال الله فيهم : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِى الحَق بَعْدَ مَا تَبَيَّن ﴾ [الأنفال:٦] والمجادلة فى الحق بعد ما تبين صفة مذمومة وقد قال الله فيمن اتصف بها: ﴿وَمَن يُشَاقِق الـرَّسُول من بَعْد ما تَبَيَّن لَهُ الـهُدَى وَيَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِـينَ نُوَله مَا تَوَلَّى وَنُصْله جَهَنَّم وساءت مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥] فما يعترض دعوتك أيها الداعية إن كان حقـاً فالواجب علـيك الرجوع إليـه ، وإن كان باطلاً فلا يـثنى عزمك عن المضى قدماً فى دعوتك.

○ كذلك لابد أن يكون الداعية صابراً على ما يعترضه هو من الأذى لأن الداعى لابد أن يؤذى إما بالقول وإما بالفعل وهاهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أوذوا بالقول وأوذوا بالفعل اقرأ قول الله عز وجل : ﴿كَذَلِك مَا أتَى الَّذيـنَ مـن قَبْلِهـم مِن رَسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أوْ مَجْنُون ﴾ [الذاريات:٥٢] ما رأيك فيـمن يأتيه الوحـى من ربه ويقال فى وجـهه إنك ساحر أو مـجنون ؟ لاشك أنه يَتَأَذَّى ومع هـذا فالرسل صبروا عـلى ما أوذوا بالقول وعـلى ما أوذوا بالفعـل ؛ انظر إلى أول الرسل نـوح عليه الصلاة والسلام كان قومه يمرون به وهو يصنع الفلك ويَسْخَرون به فيقول لهم : ﴿ إنْ تَسْخَرُوا مِنّا فإنّا نَسْخَرُ مِنْكُم كَمَا تَسْخَرُون . فَسَوْف تَعلَمُونَ مَن يَأتِيه عذاب يُخزيه ويحل عَلَيه عَذَابٌ مُقِيم ﴾ [هود:٣٨ ، ٣٩] ولم يقتصر الأمر بهم على السخريه به بـل توعدوه بالقتل ﴿ قَالُوا لَئِن لم تَنْتَـهِ يَا نُوحُ لَتَكُوننَّ مـن المَرْجُومِين ﴾ [الشعراء:١١٦] أى من المقـتولين رمياً بـالحجارة . هنـا توعد بالقتل مـع تهديد بأنا قد رجمنـا غيرك إظهاراً لعزتهم وأنـهم قد رجموا آخرين وأنت مـنهم ولكن هذا لم يـثن نُوحاً عليه الصـلاة والسلام عن دعوته بـل استمر حتـى فتح الله بـينه وبين قومـه ، وهذا إبراهيم عـليه

الصلاة والسلام قابله قومه بـالرَّفض بل شهّروا به بين الناس ﴿ قَالُوا فَأتوا به عَلَى أَعْيَن النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشْهَدون ﴾ [الأنبياء: ٦١].

ثم توعـدوه بالإحراق ﴿ قَالوا حَرِقـوهُ وَانْصُروا آلهتـكُم إن كُنتـم فَاعلينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فأوقدوا نـاراً عظيمـة ورَموه بالمنجـنيق لبعـدهم عنهـا لشدة حرارتها ولكــن قال رب العزة والجلال ﴿قُلْنا يا نـارُ كُونى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكـانت برداً وسـلاماً ونجا مـنهـا فكانـت العاقـبة لإبراهيم. ﴿ وأرَادوا به كَيْداً فَجَعَلْنَاهم الأَخْسرين ﴾ [الأنبياء: ٧٠] وهذا موسى عليه الصـلاة والسلام توعده فرعون بالـقتل فقال : ﴿ ذَرُونى أَقتلْ مُوسَى وَلْيَدعُ ربَّه إِنى أَخَافُ أن يبدل دينـكم أَوْ أَن يُظْهرَ فى الأَرض الفَسَاد ﴾ [غافر: ٢٦] فتوعده بالقتل ولكن آخر الأمر كانت العقبى لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿وحَاقَ بِآلِ فِرْعَون سُوءَ الـعَذَاب ﴾ [غافر: ٤٥] وهذا عيـسى عليـه الصلاة والسلام حـصل له من الأذيَّة مـا حصل حتى رمـاه اليهود بـأنه ابن بَغِيّ وقتلوه على زعـمهم وصلبوه ولكن الله تـعالى يقول : ﴿ وَمَا قَتلوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّه لَهُم وَإِنَّ الذينَ اختلفوا فيه لَفى شك منهُ مَا لَهُم بِهِ من عِلْمٍ إِلا اتـبـاع الظَّن وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيـنًا . بَل رَفَعَهُ الـلـه إِليـه وكَان الـلـه عَزِيزاً حكِيـمـاً﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] فنجى منـهـم ، وهذا خاتم الرسل وإمامهـم وسيد بنى آدم محمـد ﷺ قال الله عـنه : ﴿ وإذ يَمْكُر بِكَ الَّذينَ كـفروا لِيـثبـتوكَ أو يقـتلوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ ويمـكرُ الـلـه وَالله خَيـرُ المَاكِرين ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿وقالوا يا أَيُّها الذي نُزِّل عـليه الذِّكر إِنَّك لَمَجْنُون﴾ [الحجر : ٦] ﴿ويَقُولون أئنَّا لَتَارِكُوا آلهتـنَا لِشَاعِرٍ مَجْنون﴾ [الصـافات : ٣٦] وحصل مـن أذيتهم القـولية والفعلية وما هـو معلوم لدى العلماء فى التاريخ ومـع هذا صبر فكانت العاقبة له .

إذن : فكل داعية لابد أن يَنَالُه أَذًى ولكن علــيه أن يصبر ولهذا لما قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نزَّلنا عَلَيكَ القُرآنَ تَنْزِيلا ﴾ [الإنسان:٢٣] كان من المتوقع أن يقول الله: «فاشكر نعمة الله على تنزيل هذا القرآن»، ولكن اللــه قال له: ﴿فَاصبر لِحُكْمِ رَبِّك﴾ [الإنسان:٢٤] إشارة إلــى أن كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يَنَاله ما يناله من الأمور التى تحتاج إلى صبر عظيم ، فعلى الــدَّاعية أن يكون صبوراً وأن يستمر حتــى يفتح الله له ، وليس مــن الضَّرورى أن يفتــح الله له فــى حياته بــل إن المهم أن تبــقى دعوته بين الناس ناصعة متبوعة لــيس المهم الشخص ولكن المهم الدَّعوة فإذا بقيت دعوته ولو بعد موته فإنه حى .

قال الله عز وجل : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها ﴾ [الأنعام:١٢٢] ففى الحقيقة أن حياة الــدَّاعية ليس مــعناها أن تبــقى روحه فى جســمه فقط بل أن تــبقى مَقَالته حَيَّه بين الناس وانظر إلى قصة أبى سفيان مع هرقل حين قدم عليه فى السنة السَّابعة للهجرة فلما سمع به هرقل وكان قد سمع بمخرج النبى ﷺ دعا أبا سفيان فــسأله عن النبى ﷺ عن ذاته ، ونســبه ، وما يدعو إليه وأصحابه فلما أخبره أبو سفيان عما سأله عنه قال هرقل له: «إِنْ كان ما تقول حقاً فسَيَمْلك ما تحت قدمى هاتين».

سبحان الله ! من يتصور أن ملكاً امــبراطورياً كما يقولون يقول مثل هذا القول فى محمد ﷺ وهو مع ذلك لم يحرر جزيرة العرب من رق الشَّيطان والهوى؟

من يتصور أنَّ مثل هذا الرجل يقول مثل هذا القول؟! ولهذا لما خرج أبو سفيان قال لــقومه : «لقد أَمِر أَمْر ابن أبى كبشة إِنَّه لــيخافه مَلِك بنى

الأصفر».

« أمِرَ » يعنى عَظُمَ ومنه قوله تعالى : ﴿لقد جِئْتَ شيئاً إمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] أى عظيماً.

وقد ملك النَّبى ﷺ ما تحت قدمى هرقل بدعوته لا بشخصه؛ لأن دعوته أتت على هذه الأرض واكتسحت الأوثان ، والشرك وأصحابه وملكها الخلفاء الراشدون بعد محمد ﷺ ، ملكوها بدعوة النبى ﷺ ، وبشريعة النبى ﷺ . إذن على الدَّاعية أن يصبر وستكون العاقبة له إذا كان صادقاً مع الله ، سواء فى حياته أو بعد مماته .

﴿ قَالَ مُوسى لِقَوْمِه استَعِينوا بِالله وَاصْبِروا إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُها مَن يَشَاء مِن عِبَاده والعَاقِبة للمُتقين ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال الله تعالى : ﴿إِنَّه من يَتق وَيَصْبِر فَإِنَّ الله لا يُضِيع أجر المُحْسِنين ﴾ [يوسف: ٩٠].

● **الزاد الثالث : الحكمة فيدعو إلى الله بالحكمة** وما أمر الحكمة على غير ذى الحكمة . الدعوة إلى الله بالحكمة ثم بالموعظة الحسنة ثم الجدال بالتى هى أحسن لغير الظَّالم ثم الجدال بما ليس أحسن للظَّالم فالمراتب إذن أربع .

قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبكَ بالحِكْمة والمَوْعظة الحَسَنة وَجَادِلهُم بالتى هِى أَحْسَن﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلوا أهلَ الكِتَاب إِلا بالَّتِى هى أَحْسَنُ إلا الذينَ ظلموا منهم ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

○ إن الحكمة : إتقان الأمور وإحكامها بأن تنزل الأمور منازلها وتُوضع فى مواضعها ليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التى هم عليها إلى الحال التى كان عليها الصحابة بين

عَشِيَّةً وضُحاها . ومن أراد ذلك فهو سفيه فى عقله بعيد عن الحكمة لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يكون هذا الأمر ويدلك لهذا أن محمداً رسول الله ﷺ وهو الذى ينزل عليه الكتاب نزل عليه الشرع متدرجاً حتى استقر فى النفوس وكمل.

○ فرضت الصَّلاة فى المعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل سنة ونصف وقيل خمس سنين على خلاف بين العلماء فى هذا . . ومع هذا لم تفرض على وضعها الآن ، أول ما فرضت كانت ركعتين للظهر والعصر والعشاء والفجر وكانت المغرب ثلاثاً لأجل أن تكون وتراً للنهار وبعد الهجرة وبعد أن أمضى رسول الله ﷺ ثلاث عشر سنة فى مكة زيدت صلاة الحضر فصارت أربعاً فى الظهر والعصر والعشاء وبقيت صلاة الفجر على ما هى عليه لأنها تطول فيها القراءة وبقيت المغرب ثلاثاً لأنها وتر النهار.

○ والزكاة فرضت فى السنة الثانية من الهجرة أو فرضت فى مكة لكنها لم تقدر تقديراً فى أنصبائها وواجبها ولم يبعث النبى ﷺ السُّعاة لأخذ الزكاة إلا فى السنة التاسعة من الهجرة .

فكان تطور الزكاة على ثلاث مراحل :

١ـ فى مكة ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٤١] ولم يبين الواجب ولا مقدراً ما يجب فيه ذلك الواجب وجعل الأمر موكولاً إلى الناس .

٢ - وفى السنة الثانية من الهجرة بينت الزكاة بأنصبائها .

٣ - وفى السنة التاسعة من الهجرة صار النبى ﷺ يبعث السعاة إلى أهل المواشى والثمار لأخذها . فتأمل مُراعاة أحوال الناس فى تشريع

الله عز وجل وهو أحكم الحاكمين

○ وكذلك فى الصيام لا يخفى علينا أنه تطور فى تشريعه فكان أول ما فرض يخير الإنسان بين أن يَصُوم أو يطعم ثم تعيَّن الصيام وصار الإطعام لمن لا يستطيع الصَّوم على وجه مستمر.

○ أقول إن الحكمة تأبى أن يَتَغَيَّر العالم بين عَشيَّة وضُحَاها فلابد من طول النفس وأقبل من أخيك الذى تدعوه ما عنده اليوم من الحق وتدرج معه شيئاً فشيئاً حتى تنتشله من الباطل ، ولا يكن الناس عندك على حد سواء فهناك فرق بين الجاهل والمُعَانِد .

○ ولعل من المناسب أن أضرب أمثلة من دعوة الرسول ﷺ:

○ **المثال الأول** : دخل رجل أعرابى والنَّبى ﷺ جالس فى أصحابه فى المسجد فبال الأعرابى فى طائفة من المسجد فَزَجَره الناس - والزجر هو النهر بشدة - ولكن النبى ﷺ وهو الذى أعطاه الله تعالى الحكمة نهاهم فلما قضى بوله أمر ﷺ أن يُرَاقَ على بَوْله ذَنُوباً من ماء - يعنى دلواً - فزالت المفسدة فدعا الرسول ﷺ الأعرابى فقال له : « إنَّ هذه المساجد لا يَصلُح فيها شىء من الأَذَى أو القذر إنما هى للصَّلاة وقراءة القرآن » أو كما قال ﷺ فانشرح صدر الأعرابى لهذه المعاملة الحسنة .

ولهذا رأيت بعض أهل العلم نقل أن هذا الأعرابى قال : « اللهم ارْحَمنى ومُحَمَّداً ولا تَرْحم معنا أحداً » ، لأن محمداً ﷺ عامله هذه المعاملة الطيبة أما الصحابة رضوان الله عليهم فسعوا فى إزالة المنكر من غير تقدير لحال هذا الرجل الجاهل.

○ **المثال الثانى** : معاوية بن الحكم رضى الله عنه جاء والنبى ﷺ

يصلى بالناس فَعَطَس رجل من القوم فقال : الحمد لله - فإذا عطس أحد فى الصَّلاة فليقل : الحمد لله سواءً فى القيام أو فى الركوع أو فى السجود - قال هذا الرجل : الحمد لله ، فقال له معاوية : يَرْحَمُك الله وهذا خطاب لآدمى يبطل الصَّلاة فَرَمَاهُ الناس بأبصارهم وجعلوا ينظرون إليه فقال معاوية : - واثكل أُمياه - والثَّكل الفقد وهذه كلمة تقال ولا يُراد مَعْنَاها وقد قالها النبى ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه حين قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال قلت : بلى يا رسول الله . قال : كف عليك هذا أخذ بلسانه وقال : كفه عليك فقال معاذ - وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به قال: «ثكلَتْكَ أُمُّك يا معاذ وهل يكُبُّ النَّاس فى النَّار على وُجُوههم أو قال على مَنَاخِرهم إلا حَصَائدُ أَلْسنَتِهِم » ثم مضى معاوية رضى الله عنه فى صلاته فلما أتم الصَّلاة دعاه النَّبى ﷺ قال معاوية رضى الله عنه : فوالله مَا رَأَيْتُ معلماً أحسن تعليماً منه - اللَّهُمَّ ﷺ - والله ما كهرنى ولا نهرنى وإنما قال : إنَّ هذه الصَّلاة لا يَصلُح فيها شىء من كلام الناس إنما هى التَّسبيح والتَّكبير وقراءة القرآن » أو كما قال ﷺ . انظر إلى الدَّعوة المحببة إلى النفوس يقبلها الإنسان وينشرح بها صدره .

ونأخذ من الحديث من الفوائد الفقهية : أنَّ من تكلَّم فى الصلاة وهو لا يَدْرى أن الكلام يُبْطل الصلاة فإن صلاته صحيحة .

○ **المثال الثالث** : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله هَلَكْتُ. قال: «ما أَهْلَكَك؟» . قال: وقعت على امرأتى فى رمضان وأنا صائم . فأمره النبى ﷺ أن يعتق رقبة ، فقال : لا أجد ثم أمره أن يصوم شهرين متتابعين ، قال : لا أستطيع ثم أمره أن يُطْعِم ستّين

مسكيناً ، فقال : لا أستطيع ، فجلس الرجل . فأتى النبى ﷺ بتمر فقال : خذ هذا فتصدق به . ولكن الرجل طمع فى كرم النبى ﷺ الذى هو أعظم كرم لمخلوق فإن رسول الله ﷺ أكرم الناس فقال الرجل أعلى أفقر منى يا رسول الله والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منى فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه أو نواجذه لأن هذا الرجل جاء خائفاً يقول « هَلَكْتُ » فذهب غانما فقال النبى ﷺ: «أطعمه أهلك» فذهب الرجل مطمئنًا غانماً فرحاً بهذا الدين الإسلامى وبهذا اليُسْر من الدَّاعية الأوَّل لهذا الدين الإسلامى صلوات الله وسلامه عليه.

○ **المثال الرابع** : ولننظر كيف عامل النبى ﷺ مرتكب الإثم : رأى النَّبى ﷺ رجلاً وفى يده خاتم ذهب فنزعه النبى ﷺ بيده الكريمة وطرحه فى الأرض وقال : « يَعْمَدُ أَحَدُكُم إلى جَمْرة من نار فَيَضَعُهَا فى يَدِه » .

فالنبَّى ﷺ لم يعامله معاملة الأولين بل نزعه من يده وطرحه فى الأرض فلما انصرف النبى ﷺ قيل له خذ خاتمك انتفع به فقال : والله لا آخذ خاتماً طرحه النبى ﷺ - الله أكبر هذا الامتثال العظيم من الصَّحابة رضوان الله عليهم -.

المهم أنه يجب على الدَّاعية أن يدعو إلى الله عز وجل بالحكمة فليس الجاهل كالعالم وليس المعاند كالمستسلم فلكل مقام مقال ولكل مَنْزِلة حَال

● الزاد الرابع: **أن يتخلَّق الدَّاعية بالأخلاق الفَاضلة**، بحيث يظهر عليه أثر العلم فى معتقده وفى عبادته وفى هيئته وفى جَميع مَسْلكه حتى

يمثل دور الداعية إلى الله أما أن يكـون على العكس من ذلك فإن دعوته سوف تفشل وإن نجحت فإنما نجاحها قليل .

فعلى الداعية أن يكون مُتَخَلقًا بما يدعو إليه من عبادات أو معاملات أو أخلاق وسلوك حـتى تكون دعوته مـقبولة وحتى لا يـكون من أول من تسعر بهم النار.

○ **أيها الإخوة** : إننا إذا نظرنـا إلى أحوالنا وجدنا أننـا فى الواقع قد ندعوا إلى شيء ولكننا لا نقوم به وهذا لاشك أنه خلل كبير ، اللَّهُمَّ إلا أن يحول بيننا وبينه النظر إلى مـا هو أصلح لأنَّ لكل مقام مقالاً فالشيء الفاضـل قد يكون مـفضولاً لأمور تجـعل المفضـول راجحاً ولهـذا كان الرَّسول ﷺ يدعـو إلى بعض الخصال ولكنـه يشتغل أحيانـاً بما هو أهم منها وربما يَصُوم حتى يُقال لا يفطر ، ويُفطر حتى يقال لا يَصوم .

○ **أيها الإخوة** : إننى أريـد من كل داعية أن يكـون مُتَخَلِّقًا بالأخلاق التى تليـق بالدَّاعية حتى يكـون داعية حقاً وحتى يكـون قوله أقرب إلى القبول .

● الزاد الخامس : **كسر الحواجز بينه وبين الناس**؛ لأن كثيراً من إخواننا الدُّعاة إذا رأى قوماً على منكر قد تَحْمِلُه الـغيرة وكراهة هذا المنكر على أن لا يذهب إلى هـؤلاء ولا ينصحهم ، وهـذا خطأ وليس من الحـكمة أبداً بل الحكمة أن تذهب وتدعـو وتُبَلغ وتُرَغب وترهب ولا تقل هؤلاء فَسَقة لا يمكن أن أمشى حولهم .

إذا كنت أنت أيها الداعية المسلم لا يمكن أن تمشى حول هؤلاء ولا أن تذهب إلـيهم لدعوتهـم إلى الله فمـن الذى يتولاهم ؟ أيتـولاهم أحد

مثلهم؟ أيتولاهــم قوم لا يعلمون ؟ أبداً ! ولهذا ينبغى لــلدَّاعية أن يصبر وهذا من الصبــر الذى ذكرناه سابقاً أن يصــبر نفسه ويكرههــا وأن يكسر الحواجز بينها وبين الناس حتى يتـمكن من إيصال دعوته إلى من هم فى حاجة إليها ، أما أن يستنكف فــهذا خلاف ما كان الرسول ﷺ يفعله ، والنبــى ﷺ كما هو معــلوم كان يذهب فى أيــام منى إلى المشــركين فى أماكنهم ويدعوهم إلى الله وقد أثر عنه أنه ﷺ قال : « ألا أحد يَحْمِلُنى حتى أُبَلغ كَلام رَبى فإنَّ قريشاً مَنَعَتْنى أن أُبَلغ كلام رَبى» .

فإذا كان هذا دأب نبينا وإمامنا وقدوتنا محمد ﷺ ، فإنه من الواجب علينا أن نكون مثله فى الدعوة إلى الله.

● **الزاد السادس: أن يكون قلبه منشرحاً لمن خالفه** لاسيما إذا علم أن الذى خالفه حَسَن النية وأنَّه لم يُخالفه إلا بمقــتضى قيام الدَّليل عنده فإنه ينــبغى للإنــسان أن يكون مــرناً فى هذه الأمــور وأن لا يجعل مــن هذا الخلاف مثاراً للعداوة والبغضاء اللــهم إلا رجل خالف مُعَانداً بحيث يبين له الحق ولكــن يُصِرُّ على باطله فإن هــذا يجب أن يُعامل بما يــستحق أن يعامل به من التــنفير عنه وتحذير الناس منه لأنه تبــين عدوانه حيث بين له الحق فلم يمتثل

○ وهناك مسائل فرعية يختلف فــيها الناس وهى فى الحقيقة مما وسَّع الله فيه عــلى عباده - وأعنى مسائــل ليست من الأُصول التى تــبلغ إلى تكفير المخالف - فــهذه مما وسع الله فيها على العباد وجــعل الخطأ فيها واسعاً قال النبى ﷺ : « إذا حكَم الحَاكِم فاجتَهد فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَان وَإن أَخْطَأ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحد » فالمجتهد لا يخرج عن دائرة الأجر أبداً فإما أجران إن أصاب ، وإمَّا أَجْرٌ واحد إن أخطــأ ، وإذا كنت لا تريد أن يخــالفك

غيرك، فإن غيرك أيضاً يريد أن لايخالفه أحد، فكما أنك تريد أن يأخذ الناس بقولك ، فالمخالفون لك يريدون أيضاً أن يأخذ الناس بقولهم .

والمرجع عند التنازع ما بينه الله عز وجل فى قوله: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيء فَحُكْمُه إلى الله ﴾ [الشورى: ١٠] ويقول عز وجل : ﴿ فَإنْ تَنَازَعتم فِى شَىء فَرُدُّوه إلى الله وَالرَّسُول إنْ كُنتم تُؤْمِنُون بِالله وَاليَوْم الآخِرِ ذَلك خَيْرٌ وَأَحْسَن تَأويلاً﴾ [النساء:٥٩] فيجب على كل المختلفين والمتنازعين أن يرجعوا إلى هذين الأصلين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يحل لأحد أن يعارض كلام الله ورسوله بكلام أحد من البشر مهما كان فإذا تبين لك الحق فالواجب أن تضرب بقول من خالفه عُرض الحائط وأن لا تلتفت إليه مهما كانت منزلته من العلم والدين؛ لأن البشر يخطىء لكن كلام الله ورسوله ليس فيه خطأ.

○ ويؤسفنى أن أسمع عن قوم يعتبرون جادين فى طلب الحق والوصول إليه ومع ذلك نجدهم متفرقين لكل واحد منهم اسم مُعَيَّن أو وصف مُعَيَّن وهذا فى الحقيقة خطأ .

إن دين الله عز وجل واحد وأمة الإسلام واحدة يقول الله عز وجل : ﴿ وَإنَّ هَذِه أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُون ﴾ [المؤمنون:٥٢] ويقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إنَّ الذينَ فرقوا دِينهمْ وكانوا شِيعاً لَسْتَ مِنهم فِى شَىءٍ إنّما أَمْرُهُم إلى الله ثُم يُنَبِئُهُم بِمَا كَانُوا يفْعَلون ﴾ [الأنعام:١٥٩] وقال عز وجل: ﴿ شَرَعَ لَكُم من الدين مَا وَصَّى به نُوحا والذى أَوْحَيْنا إليكَ وَمَا وَصينا به إبراهيم وَمُوسى وعيسى أن أَقِيموا الدينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾[الشورى:١٣] فإذا كان هذا توجيه الله عز وجل لنا فالواجب علينا أن نأخذ بهذا التَّوجيه وأن نجتمع على بساط البَحث وأن يُناقش

بعضنا بعضاً على سبيل الإصلاح لا على سبيل الانتقاد أو الانتقام، فإن أي إنسان يُجادل غيره ويحاج بقصد الانتصار لرأيه واحتقار رأي غيره أو لقصد الانتقاد دون الإصلاح فإنَّ الغالب أن يخرجوا على وجه لا يرضى الله ورسوله ، فالواجب علينا في مثل هذا الأمر أن نكون أمة واحدة .

وأنا لا أقول إنَّه لا يخطيء أحد ، كل يخطيء ويصيب ولكن الكلام في الطريق إلى إصلاح هذا الخطأ ، ليس الطَّريق إلى إصلاح الخطأ أن أتكلم في غيبته وأقدح فيه ، ولكن الطَّريق إلى إصلاحه ، أن أجتمع به وأناقشه فإذا تبين بعد ذلك أن الرجل مُصِر على عناده وعلى ما هو عليه من باطل فحينئذ لي العُذر ولي الحق بل يجب على أن أبين خطأه وأن أحذر النَّاس من خطإه وبهذا تصلح الأمور ، أما التَّفرق والتَّحَزُّب فإن هذا لا تقر به عين أحد ، إلا من كان عدواً للإسلام والمسلمين .

* * *

والله أسأل أن يجمع قلوبنا على طاعته وأن يجعلنا من المتحاكمين إلى الله ورسوله وأن يخلص لنا النية ويبين لنا ما خفي علينا من شريعته إنه جواد كريم .

والحمد لله رب العالمين وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

❀ ❀ ❀

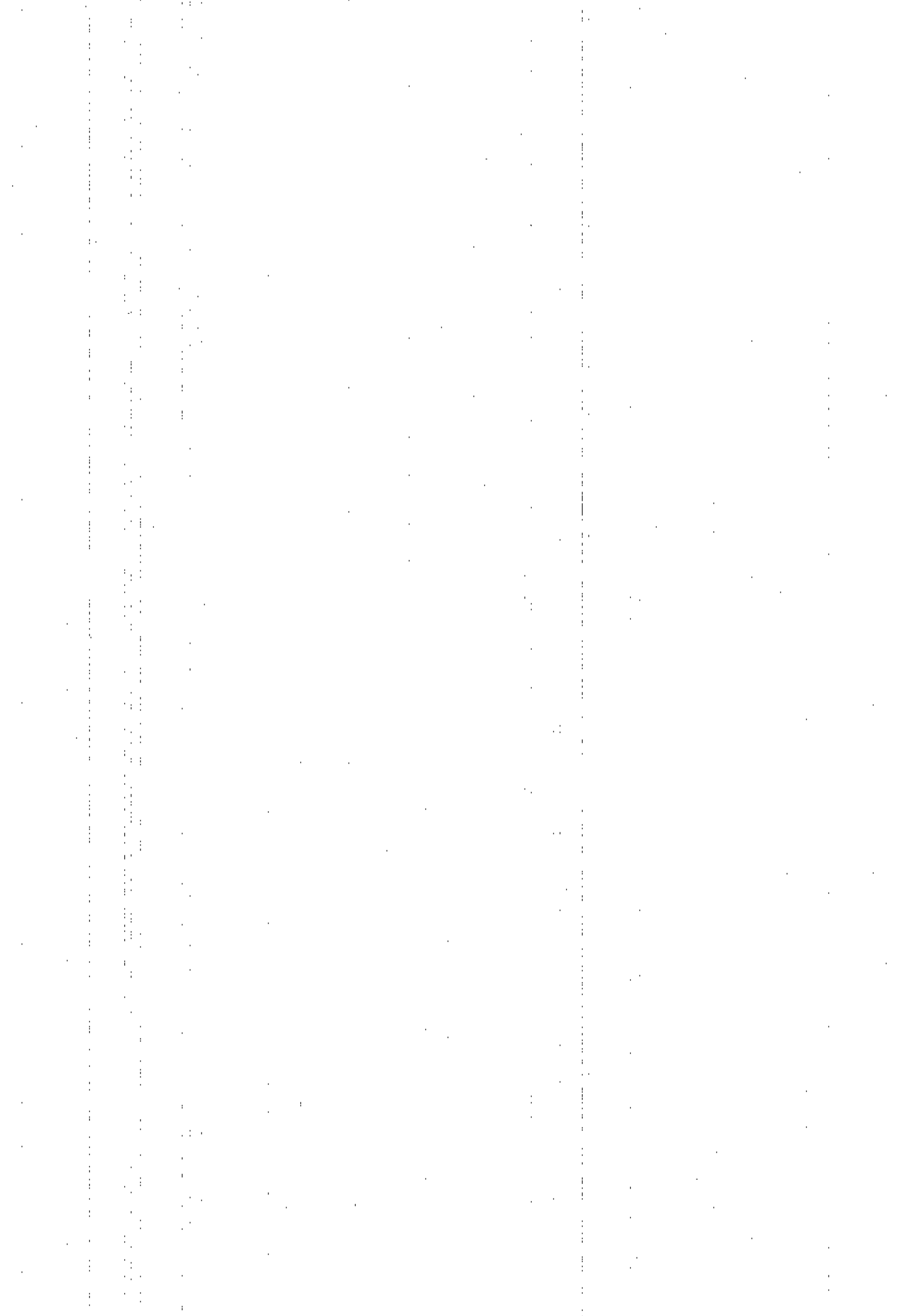
المحاضرة التاسعة:

وجوب
الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) نشرت ضمن « مجموع فتاوى ومقالات ابن باز » (٥/ ٥٨: ٧٣)



وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الحمد لله ، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه . . أما بعد :

فإن من أهم المهمات وأفضل القربات التَّناصح والتوجيه إلى الخير والتواصى بالحق والصبر عليه ، والتحذير مما يخالفه ويغضب الله عز وجل، ويباعد من رحمته ، وأسأله عز وجل أن يصلح قلوبنا وأعمالنا وسائر المسلمين ، وأن يمنحنا الفقه فى دينه ، والثبات عليه ، وأن ينصر دينه ويعلى كلمته ، وأن يصلح جميع ولاة أمور المسلمين ، ويوفقهم لكل خير، ويصلح لهم البطانة ، ويعينهم على كل ما فيه صلاح العباد والبلاد ، ويمنحهم الفقه فى الدين ، ويشرح صدورهم لتحكيم شريعته ، والإستقامة عليها إنه ولى ذلك ، والقادر عليه .

* * *

أيها المسلمون : إن موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر موضوع عظيم ، جدير بالعناية ؛ لأن فى تحقيقه مصلحة الأمة ونجاتها ، وفى إهماله الخطر العظيم والفساد الكبير ، واختفاء الفضائل ، وظهور الرذائل ، وقد أوضح الله جل وعلا فى كتابه العظيم منزلته فى الإسلام، وبين سبحانه أن منزلته عظيمة ، حتى إنه سبحانه فى بعض الآيات قدّمه على الإيمان ، الذى هو أصل الدين وأساس الإسلام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا نعلم السر فى هذا التقديم ، إلا عظم شأن هذا الواجب ، وما يترتب عليه من المصالح العظيمة العامة ، ولاسيما فى هذا العصر ، فإن حاجة المسلمين وضرورتهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شديدة ؛ لظهور

المعاصى ، وانتشار الشرك والبدع فى غالب المعمورة ، وقد كان المسلمون فى عهده ﷺ وعهد أصحابه وفى عهد السلف الصالح يعظمون هذا الواجب ، ويقومون به خير قيام ، فالضرورة إليه بعد ذلك أشد وأعظم ، لكثرة الجهل وقلة العلم وغفلة الكثير من الناس عن هذا الواجب العظيم .

وفى عصرنا هذا صار الأمر أشد ، والخطر أعظم ، لانتشار الشرور والفساد ، وكثرة دعاة الباطل ، وقلة دعاة الخير فى غالب البلاد كما تقدم ، ومن أجل هذا أمر الله سبحانه وتعالى به ، ورغب فيه ، وقدمه فى آية آل عمران على الإيمان ، وهى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلناسِ ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] .

يعنى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فهى خير الأمم وأفضلها عند الله ، كما فى الحديث الصحيح ، عن النبى ﷺ أنه قال : «أنتم تُوفون سَبْعين أمة ، أنتم خيرها وأَكْرَمُها عَلَى الله عزَّ وجَل» .

والأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر موجود فى الأمم السابقة ، بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب .

وأصل المعروف توحيد الله ، والإخلاص له ، وأصل المنكر الشرك بالله ، وعبادة غيره .

وجميع الرُّسل بعثوا يدعون الناس إلى تَوحيد الله ، الذى هو أعظم المعروف ، وينهون الناس عن الشرك بالله ، الذى هو أعظم المنكر . ولما فرط بنوا إسرائيل فى ذلك وأضاعوه ، قال الله جل وعلا فى حقهم : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨] ثم فسَّر هـذا العصيـان فقال سبـحانه ﴿كانُوا لا يَتَنَاهَونَ عَن مُنكَر فَعَلُوهُ لَبِـئسَ مَا كَانُوا يفعلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]، فجعل هذا من أكبر عصيانهم واعتدائهم ، وجعله التفسير لهذه الآية، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَونَ عَن مُنـكَر فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩] وما ذلك إلا لعظم الخطر في ترك هذا الـواجب، وأثنى الله جل وعلا على أمة منهم فـي ذلك فقال سبحانه فـي سورة آل عمران: ﴿من أَهلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائمَةٌ يَتـلُونَ آيات الـله ءَانَاءَ الـيلِ وَهُم يَسـجُدُونَ يُؤمِنُونَ باللـهِ وَالْيَومِ الآخرِ ويأمرونَ بالمعرُوف وَيَنهَونَ عن الْمُنكَرِ ويـسارعون فِي الخيرات وَأُولَئِكَ مِنَ الصالحين وَمَا يَفعَلُوا مِن خَيـرٍ فَلَن يُكفَرُوهُ والـلهُ عَلِيـمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١١٣، ١١٤، ١١٥] هذه طائفـة من أهل الكتاب لـم يصبها ما أصـاب الذين ضَيَّعوه، فأثنى الله عليهم سبحانه وتعالى في ذلك .

وفي آية أخرى من كتـاب الله عز وجل في سورة التوبة قـدّم سبحانه الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر على إقام الصلاة وإيتـاء الزكاة ، وما ذلك إلا لعظم شأنه . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، ومع ذلـك قدَّمه في هـذه الآية على إقـام الصلاة وإيـتاء الزكاة ، فـقال سبحانه : ﴿ وَالْمُؤمِنُون وَالْمُؤمنَـتُ بَعضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعضٍ يَأمُرونَ بِالْمَعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤتُونَ الـزكاة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرحَمُهُم الله إِن اللـه عَزِيزٌ حكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١] ، فقدَّم هنا الأمر بـالمعروف والنهي عن المنـكر على إقـام الصلاة ، مع أن الـصلاة عمود الإســلام ، وهي أعظم الأركان بعد الشهادتين ، فلأي معنى قدم هذا الواجب ؟

لاشك أنَّه قدم لعظم الحاجة إليـه وشدّة الضَّرورة إلى القيام به؛ ولأن بتحقيقـه تصلح الأمة ، ويكثر فيها الخـير وتظهر فيها الفضـائل وتختفي

منها الرذائل ، ويتعاون أفرادها علـى الخير ، ويتناصحون ويجاهدون فى سبيل الله ، ويـأتون كل خير ويذرون كل شر ، وبإضاعته والـغفلة عنه تكون الكـوارث العظيمة ، والشرور الـكثيرة ، وتفترق الأمـة ، وتقسو القلوب أو تموت، وتـظهر الرذائل وتنتشـر ، وتختفى الفضائـل ويهضم الحق، ويظهر صـوت الباطل ، وهذا أمر واقع فى كـل مكان وكل دولة وكل بلد وكل قرية لا يؤمر فيها بالمعروف ولا ينهى فيها عن المنكر ، فإنه تنتشر فيهـا الرذائل وتظهر فيها المنكرات ويسود فـيها الفساد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وبيّن سبحانه أن الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر والمقيمين للصلاة والمؤتين للزكاة والمطـيعين لله ولرسوله هم أهل الرحمـة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ [التوبة:٧١] ، فدل ذلك على أن الرحمه ، إنما تنال بطاعة الله واتباع شـريعته ، ومن أخص ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا تنال الرحمة بالأمانى ولا بالأنساب ؛ ككونه من قريش أو من بنى هاشم أو من بنى فلان ، ولا بالوظائف ؛ ككونه ملكاً ، أو رئيس جمهـورية ، أو وزيراً أو غير ذلك من الوظـائف، ولا تنال أيضاً بالأمـوال والتجارات ، ولا بوجود كـثرة المصانع ، ولا بغـيـر هذا من شـئون النـاس ، وإنما تُنال الـرَّحمة بطـاعة اللـه ورسوله ، واتـباع شريعته.

ومن أعظم ذلك: الأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر ، وإقام الصلاة ، وإيتـاء الزكاة ، وطاعـة الله ورسـوله فى كـل شىء، فهؤلاء هـم أهل الرحمة، وهـم الذين فى الحقيقـة يرجون رحمة الله ، وهـم الذين فى الحقيـقة يخافـون الله ويعظـمونه ، فما أظـلم من أضاع أمـره وارتكب

نهيه، وإن زعم أنه يخافه ويرجوه ، وإنما الذى يعظم الله حقاً ، ويخافه ويرجوه حقاً ، من أقام أمره واتبع شريعته ، وجاهد فى سبيله ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الذينَ ءامَنُوا وَالذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرجُونَ رَحمَتَ الله ﴾ [البقرة:٢١٨] فجعلهم سبحانه راجين رحمة الله ، لما آمنوا وجاهدوا وهاجروا لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم .

ما قال : إن الذين بنو القصور ، أو الذين عظمت تجاراتهم ، أو تنوعت أعمالهم ، أو الذين ارتفعت أنسابهم هم الذين يرجون رحمة الله، بل قال سبحانه : ﴿ إن الذينَ ءَامَنُوا وَالَّذينَ هَاجَرُوا وجاهدوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرجُونَ رَحمَتَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحيم﴾ [البقرة:٢١٨].

فرجاء الرحمة وخوف العذاب ، يكونان بطاعة الله ورسوله ، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى آية أخرى حصر سبحانه الفلاح فى الدعاة إلى الخير ، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، فقال عز وجل : ﴿ وَلتَكُن منكُم أُمةٌ يَدعُونَ إِلَى الخَيرِ وَيَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَأولَئِكَ هُمُ المُفلحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤] ، فأبان سبحانه أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وهى : الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - هم المفلحون ، والمعنى أنهم هم المفلحون على الكمال والتمام ، وإن كان غيرهم من المؤمنين مفلحاً ، إذا تخلى عن بعض هذه الصفات لعذر شرعى ، لكن المفلحون على الكمال والتمام هم هؤلاء الذين دعوا إلى الخير ، وأمروا

بالمعروف وبادروا إليه ، ونهوا عن المنكر وابتعدوا عنه .

أما الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لأغراض أخرى : كرياء وسمعة، أو حظ عاجل أو أسباب أخرى ، أو يتخلفون عن فعل المعروف ، ويرتكبون المنكر ، فهؤلاء من أخبث الناس ، ومن أسوئهم عاقبة .

وفى الصَّحيحين عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «يُؤْتى بالرَّجل يوم القيامة فَيُلقى فى النَّار ، فَتَنْدَلِق أَقْتَاب بَطْنه - أى أمعاؤه - فيَدُور فى النَّار كما يدور الحمار بالرَّحى ، فيجتمع عليه أهل النَّار ، فيقولون مالك يا فلان؟! ألم تكن تَأْمُر بالمعروف وتَنْهى عن المُنكر ؟! قال : فيقول لهم : بَلَى ولَكِنى كُنت آمركم بالمعروف ولَا آتيه، وأنهاكُم عن المُنكر وآتيه».

هذه حال من خالف قوله فعله ، - نعوذ بالله - تُسَعَّر به النار، ويفضح على رؤوس الأشهاد ، يتفرج عليه أهل النار ، ويتعجبون كيف يلقى فى النار !

هذا ويدور فى النَّار كما يدور الحمار بالرَّحى، وتندلق أقتاب بطنه، يسحبها، لماذا ؟!

لأنه كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه، فعلم بذلك أن المقصود الأمر بالمعروف مع فعله ، والنهى عن المنكر مع تركه.

وهذا هو الواجب على كل مسلم ، وهذا الواجب العظيم أوضح الله شأنه فى كتابه الكريم ، ورغّب فيه ، وحذر من تركه ، ولعن من

تركه .

فالـواجب على أهـل الإسلام أن يعظـموه ، وأن يبادروا إلـيه ، وأن يلتـزموا به طاعة لـربهم عز وجل ، وامتـثالاً لأمره ، وحذراً من عـقابه سبحانه وتعالى .

وقد جاءت سنة رسول الله ﷺ تؤيـد هذا الأمر ، وتبين ذلك أعظم بيـان وتشرحه ، فـيقول المصـطفى عـليه الصـلاة والسلام فى الحـديث الصحيح : « مَنْ رأَى مِنْكُم منكراً فليغـيره بيَده، فإن لم يستطع فَبِلسَانه، فإن لم يَسْتَطِع فبـقلبه ، وذلك أضعـف الإيمان» خرَّجه الإمام مسـلم فى صحيحه .

● فبين ﷺ مراتب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر الثَّلاث :

المرتبة الأولى : الإنكـار باليد مع القُدرة: وذلك بإراقة أوانـى الخمر ، وكسر آلات اللهو ، ومنع من أراد الشر بالـناس وظلمهم من تنفيذ مُراده إن استـطاع ذلك كالسُّلطان ونحـوه من أهل الـقدرة ، وكإلزام الـناس بالصلاة ، وبحكـم الله الواجب اتباعه ممن يقدر عـلى ذلك ، إلى غير هذا مما أوجب الله .

وهكذا المؤمن مع أهله وولده ، يُلْزِمهم بأمر الله ويمنعهم مما حرم الله باليد إذا لم ينفع فيهم الكلام .

وهكذا من لـه ولاية من أمير أو محتـسب ، أو شيخ قبيلـة أو غيرهم ممن له ولاية مـن جهة ولى الأمر ، أو من جـهة جماعته ، حـيث ولوه عليهم ، عند فقد الولاية العامـة يقوم بهذا الواجب حسب طاقته ، فإن عجز انتقل إلى :

المرتبة الثانية : وهى اللسان : يأمرهم باللسان وينهاهم كأن يقول : يا قوم اتقوا الله ، يا إخوانى اتقوا الله ، صلوا وأدوا الزكاة ، اتركوا هذا المنكر ، افعلوا كذا، دعوا ما حرم الله ، بروا والديكم ، صلوا أَرْحامكم ، إلى غير هذا ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر باللسان، ويَعِظهم ويُذَكرهم ، ويتحرى الأشياء التى يفعلونها ، حتى ينبههم عليها ، ويعاملهم بالأسلوب الحسن ، مع الرفق ، يقول عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الله يُحبُّ الرفق فى الأمر كُله » .

ويقول ﷺ « إِنَّ الرفق لا يكُون فِى شَئٍ إلا زَانَهُ وَلا ينزَعُ من شَئٍ إلا شَانَهُ» .

وجاء جماعة من اليهود ، فَدَخلوا عليه ﷺ فقالوا : السَّام عليك يا محمد ، يعنون الموت ، وليس مرادهم السَّلام . فسمعتهم عائشة رضى الله عنها ، فقالت: «عليكم السَّام واللَّعنة».

وفى لفظ آخر : « وَلَعَنَكُم الله ، وغَضِبَ عَلَيكم » .

فقال ﷺ : « مَهْلاً يا عائشة إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرفق فى الأَمْر كُله». قالت: ألم تسمع ما قالوا ؟! قال : « ألم تسمعى ما قلت لهم ؟ قلت لهم : وَعَلَيْكُم ، فإِنَّه يُستَجَابُ لنا فيهم ، ولا يُستَجَابُ لهم فينا».

هذا وهم يهود رَفَقَ بهم ﷺ ، لعلهم يهتدون ، ولعلهم ينقادون للحق ، ولعلهم يستجيبون لداعى الإيمان .

فهكذا الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر الموفق، يَتَحَرَّى الرفق والعبارات المناسبة ، والألفاظ الطَّيبة عندما يمر على من قصر فى ذلك ، فى المجلس أو فى الطريق أو فى أى مكان يدعوهم بالرفق والكلام

الطيب ، حتى ولو جادلوه فى شىء خفى عليهم ، أو كابروا فيه يجادلهم بالتى هى أحسن ، كما قال سبحانه : ﴿ ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَة وجادلهم بِالَّتِى هِىَ أَحسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلا تجادلوا أَهلَ الكتاب إلا بِالَّتِى هِىَ أَحسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] .

من هم أهل الكتاب ؟ هم اليهود والنَّصارى ، وهم كفار ، ومع ذلك يقول الله عنهم : ﴿ وَلا تجادلوا أهل الكتاب إِلا بِالَّتِى هِىَ أَحسَنُ إِلا الذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾ [العنكبوت:٤٦] . والمعنى أن من ظلم منهم وتعدَّى وأساء الكلام فإنه ينتقل معه إلى علاج آخر غير الجدال بالتى هى أحسن، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاؤُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثلُهَا ﴾ الآية [الشورى : ٤٠] وقال سبحانه : ﴿فَمن اعتَدَى عَلَيكُم فَاعتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ مَا اعتَدَى عَلَيكُم ﴾الآية [البقرة: ١٩٤].

لكن مادام المقام مقام تعليم ودعوة وإيضاح للحق ، فإنه يكون بالتى هى أحسن لأن هذا أقرب إلى الخير .

قال سفيان الثورى رحمه الله : « ينبغى للآمر والناهى أن يكون رَفيقاً فيما يَأْمُر به ، رَفيقاً فيما يَنهى عنه ، عَدْلاً فيما يأمر به ، عدلاً فيما ينهى عنه، عالماً بما يأمر به، عالماً بما ينهى عنه».

وهذا معنى كلام السلف رحمهم الله ، تحرى الرفق مع العلم والحلم والبصيرة، لا يأمر ولا ينهى إلا عن علم ، لا عن جهل . ويكون مع ذلك رفيقاً عاملاً بما يدعوه إليه تاركاً ما ينهى عنه ، حتى يقتدى به .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « مَا مِن نَبِى بعثه الله فى أمة قَبْلى إلا كان لَهُ من أُمَّتهِ

حَوَارِيُّون وَأَصْحَاب يَأخُذون بسُنَّته ويقتَدُون بأَمْرِه ، ثم إنـها تخلفُ من بَعْدهم خـلوف يـقولـون مَالا يَفْعلـون ، ويَفْعَلون مـالا يُؤْمرون، فـمن جَاهَدهم بِيَده فـهو مُؤمـن، ومن جاهـدهم بِلِسَانه فـهو مُؤْمـن ، ومن جَاهَدَهُم بِقَلْبه فهو مؤمن، وليس وَرَاء ذلك من الإيمان حبَّة خَرْدل » .

وهذا الحديث مثل حديث أبي سعيد السابق المتضمن الإنكار باليد ، ثم اللسان ثم القلب .

فالخلوف التي تخلف بعد الأنبياء هذا حكمهم فى أممهم ، فيؤمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعـلِّمون أحكام الله ، ويجاهدون فى ذلك باليد ثم اللسان ثم القلب .

وهكذا فى أمة محمد ﷺ يجب على علمائـهم وأمرائهم وأعيـانهم وفقهائهم أن يتعهدوهم بالدعـوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتـعليم الجاهل، وإرشـاد الضال ، وإقامة الحدود والـتعزيرات الشَّرعية ، حتى يسـتقيم الناس، ويلزموا الحق ، ويقيـموا عليهم الحدود الشرعية ، ويمـنعوهم من ارتكاب ما حـرم الله حتى لا يتعدى بـعضهم على بعض ، أو ينتهكوا محارم الله .

وقد ثبـت عن عثمان بن عـفان رضى الله عـنه ، الخليفة الـراشد أنه قال: «إنَّ الله يَزَعُ بالسُّلطان مالا يَزَعُ بالقُرآن » .

ويروى عن عمر رضى الله عنه أيضاً .

وهذا صحيح ، كثـير من الناس لو جئته بكل آية ، لـم يمتثل ، لكن إذا جاءه وازع الـسُّلطان بالـضرب والسجـن ونحو ذلك أذعـن ، وترك باطله . . لماذا ؟!

لأن قلبه مريض ، ولأنه ضعيف الإيمان أو معدوم الإيمان . . فلهذا لا يتأثر بالآيات والأحاديث . . لكن إذا خاف من السُّلطان ارتدع ووقف عند حده ، ووازع السُّلطان له شأن عظيم ، ولهذا شرع الله لعباده القصاص والحدود والتعزيرات لأنَّها تردع عن الباطل ، وأنواع الظلم ، ولأن الله يقيم بها الحق ، فوجب على ولاة الأمور أن يقيموها ، وأن يعينوا من يقيمها ، وأن يلاحظوا الناس، ويلزموهم بالحق ، ويوقفوهم عند حدهم حتى لا يهلكوا، وينقادوا مع تيار الباطل ، ويكونوا عوناً للشيطان وجنده علينا .

فإذا عجز المؤمن عن الإنكار باليد واللسان انتهى إلى القلب ، يكره المنكر بقلبه، ويبغضه ولا يكون جَلِيساً لأهله .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال له بعض الناس: هلكت إن لم آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . . فقال له رضى الله عنه : « هَلَكْتَ إن لم يعرف قلبك المعروف ويُنكر المنكر » .

فلابد يا أخى أن تعرف المعروف بالتعلم والتفقه فى الدين ، ولابد أن تعرف المنكر بذلك ، ثم تقوم بالواجب من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فالتبصر والتفقه فى الدين من علامات السعادة ودلائل أن الله أراد بالعبد خيراً ، كما فى الصحيحين عن معاوية رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفَقهه فى الدين» .

فإذا رأيت الرجل يَتَّبع حلقات العلم ، ويسأل عن العلم ، ويَتَفَقَّه ويَتَبَصَّر فيه ، فذلك من علامات أن الله أراد به خيراً فليلزم ذلك ،

وليجتهد ولا يمل ولا يضعف ، يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلماً ، سَهَّل الله لَهُ بِه طَرِيقاً إلى الجنَّة » رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

فطلب العلم له شأن عظيم ، ومن الجهاد فى سبيل الله ، ومن أسباب النجاة ومن الدلائل على الخير ، ويكون بحضور حلقات العلم، ويكون بمراجعة الكتب المفيدة ، إذا كان ممن يفهمها ، ويكون بسماع الخطب والمواعظ ، ويكون بسؤال أهل العلم . . كل ذلك من الطرق المفيدة ، ويكون أيضاً بحفظ القرآن الكريم ، وهو الأصل فى العلم ، فالقرآن رأس كل علم ، وهو الأساس العظيم ، وهو حبل الله المتين ، وهو أعظم كتاب وأشرف كتاب ، وهو أعظم قائد إلى الخير ، وأعظم ناهٍ عن الشر .

فوصيتى لكل مؤمن ولكل مؤمنة العناية بالقرآن والإكثار من تلاوته والحرص على حفظه أو ما تيسر منه ، مع التدبر والتعقل ، ففيه الهدى والنور ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الـقُرءَانَ يَهدِى لِلَّتى هِىَ أَقوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] وقال عزّ من قائل : ﴿ وَهَذَا كتابٌ أنزلناه مُبَارَكٌ فَاتبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥] ، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَم عَلَى قُلُوبٍ أَقفَالُهَا ﴾ [محمد:٢٤] .

فعلينا أن نعنى بكتاب الله ، تلاوة وحفظاً ، وتدبراً وتفقهاً ، وعملاً وسؤالاً عما أشكل .

وهكذا سنة الرسول ﷺ ، هى الوحى الثانى ، وهى الأصل الثانى، وهى المفسرة لكتاب الله ، والدالة عليه ، فعلى طالب العلم ، وعلى

كل مسلم أن يعنى بذلك حسب طاقته ، وحَسَب عِلمه بالحفظ والمراجعة.

○ كحفظ الأربعين النووية وتكملتها لابن رجب خمسين حديثاً ، وهى من أجمع الأحاديث وأنفعها ، وهى من جوامع الكلم ، فينبغى حفظها للرجل والمرأة .

○ ومثل ذلك عُمدة الحديث للحافظ عبد الغنى المقدسى ، كتاب عظيم جمع أربعمائة حديث وزيادة يسيرة من أصح الأحاديث فى أبواب العلم. . فإذا تيسر حفظها فذلك من نعم الله العظيمة.

○ وهكذا بلوغ المرام للحافظ ابن حجر ، كتاب عظيم مختصر، ومفيد محرر ، فإذا تيسر لطالب العلم حفظه فذلك خير عظيم.

○ ومما يتعلق بكتب العقيدة : كتابان جليلان للشيخ الإمام محمد عبد الوهاب رحمه الله هما : كتاب التوحيد ، وكتاب كشف الشبهات.

○ ومن كتب العقيدة المهمة كتاب العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية فهو كتاب جليل مختصر عظيم الفائدة فى مجمل عقيدة أهل السنة والجماعة .

وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب كتاب عظيم ، جمع فيه جملة من الأحاديث المتعلقة بالإيمان .

فينبغى لطالب العلم وطالبة العلم أن يحفظا ما تيسر من هذه الكتب المفيدة وأشباهها ، مع العناية بالقرآن الكريم والإكثار من تلاوته وحفظه، أو ما تيسر منه كما تقدم ، ومع العناية بالمذاكرة مع الزملاء وسؤال المدرسين والعلماء الذين يعتقد فيهم الخير والعلم عما أشكل عليه ،

ويسأل ربه التوفيق والإعانة ، ولا يضعف ولا يكسل ويحفظ وقته ويجعله أجزاء : جزء من يومه وليلته لتلاوة القرآن الكريم وتدبره ، وجزء لطلب العلم والتفقه فى الدين وحفظ المتون ومراجعة ما أشكل عليه ، وجزء لحاجته مع أهله ، وجزء لصلاته وعبادته ، وأنواع الذكر والدعاء .

ومما يُفيد طالب العلم وطالبة العلم فائدة عظيمة الإستماع لبرنامج نور على الدرب ، فهو برنامج مفيد لطالب العلم وعامة المسلمين وغيرهم؛ لأنَّ فيه أسئلة وأجوبة مهمة لجماعة من المشايخ المعروفين بالخير والعلم، فينبغى العناية بهذا البرنامج ، واستماع ما فيه من فائدة، وهو يذاع مرتين فى كل ليلة ، بين المغرب والعشاء من نداء الإسلام ، والساعة التاسعة والنصف من إذاعة القرآن الكريم .

ومما يتعلق بموضوعنا - موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - ما ورد فى الحديث أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : يقول الله عز وجل : « مُرُوا بالمعروف وانْهوا عن المُنْكر قبل أن تَدْعُونى فلا أَسْتَجِيب لكُم وقَبْل أن تَسْأَلُونى فلا أعطيكم ، وقبل أن تستنصرونى فلا أنْصركم» .

وفى لفظ آخر : من حديث حذيفة يقول عليه الصلاة والسلام : «والَّذى نفسى بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهونَّ عن المنكر ، أو لَيُوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عِقَاباً من عنده ثُمَّ لتدعنه فلا يَسْتَجِيبُ لكم » رواه الإمام أحمد .

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المهمات العظيمة كما سبق .

وفى حديث ابن مسعود عند أحمد وأبى داود والترمذى يقول عليه

الصلاة والسلام : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم عُلَمَاؤُهم، فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم وشَارَبُوهم ، فلما رأى الله ذلك منهم ضَرَبَ قُلُوبَ بعضهم ببعض ثم لعنهم على لسان أنبيائهم : داود وعيسى ابن مريم : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨]» وفي لفظ آخر: «إنَّ أول ما دخل النَّقص على بني إسرائيل أنَّ الرجل كان يلقى الرجل، فيقول : يا هذا اتَّق الله ودَعْ ما تفعل من المعاصي ، ثمَّ يَلْقَاهُ في الغد فلا يمنعه ما رآه منه أن يكون أكِيله وَشَرِيبه وقَعِيده ، فلما رأى الله ذلك منهم ضَرَبَ قُلُوبَ بعضهم على بعض ، ثم لعنهم».

فعلينا أن نحذر من أن يصيبنا ما أصاب أولئك ، وقد جاء في بعض الأحاديث أن إهمال هذا الواجب وعدم العناية به - أعني واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من أسباب رد الدعاء وعدم النصر كما تقدم .

ولاشك أن هذه مصيبة عظيمة ، من عقوبات ترك هذا الواجب أن يخذل المسلمون وأن يتفرقوا وأن يسلط عليهم أعداؤهم ، وأن لا يستجاب دعاؤهم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد يكون هذا الواجب فرض عين على بعض الناس ، إذا رأى المنكر، وليس عنده من يزيله غيره ، فإنه يجب عليه أن يزيله مع القدرة، لما سبق من قوله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُم منكراً فَلْيغَيره بيده ، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبلسَانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أَضْعَف الإيمان » خرجه مسلم في الصَّحيح .

أما إن كانوا جماعة فإنه يكون في حقهم فرض كفاية في البلد أو

القرية أو القبيلة ، فمن أزاله منهم حصل به المقصود وفاز بالأجر . . وإن تركوه جميعاً أثموا كسائر فروض الكفايات . وإذا لم يكن في البلد أو القبيلة إلا عالم واحد وجب عليه عينًا أن يعلم الناس ، ويدعوهم إلى الله ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر حسب طاقته ، لما تقدم من الأحاديث ، ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا استَطَعتُم﴾[التغابن:١٦] .

ومن وَفَّقه الله للصبر والإحتساب من العلماء والدعاة ، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والإخلاص لله ، ونجح ووفق وهدى ونفع الله به كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجعَل لَّهُ مَخرجاً وَيَرزُقهُ من حَيثُ لا يَحتَسِب﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجعَل لَّهُ مِن أَمرِهِ يُسرًا ﴾ [الطلاق:٤] وقال عز وجل : ﴿ يَأَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا الله يَنصُركُم وَيُثَبِّت أَقدَامَكُم ﴾ [محمد:٧] وقال تعالى : ﴿وَالعصرِ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسرٍ إلا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات وَتَوَاصَوْا بِالحَق وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣].

فالرابحون النَّاجون في الدنيا والآخرة هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ومعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر من جملة التقوى ، ولكن الله سبحانه خصها بالذكر لمزيد من الإيضاح والترغيب .

والمقصود أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعا إلى الله وصبر على ذلك فهو من أهل هذه الصفات العظيمة ، الفائزين بالربح الكامل

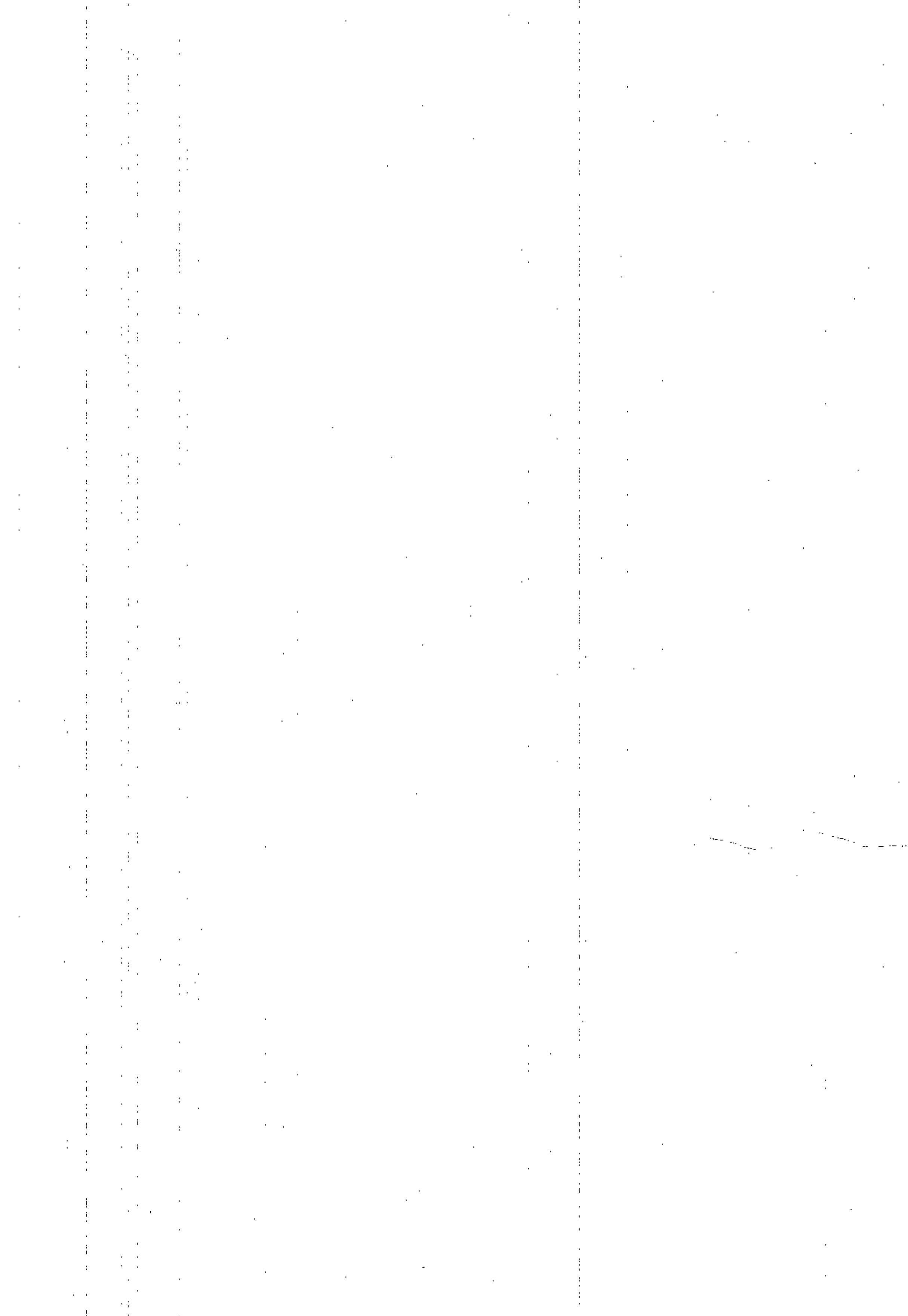
والسعادة الأبدية ، إذا مات على ذلك .

ومما يؤكد الإلتزام بهذه الصفات العظيمة قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِ وَالتَّقوى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدوَانِ وَاتَّقُوا اللـهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة : ٢]

* * *

وأسأل الله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا أن يوفقنا وجميع المسلمين للعلم النافع ، والعمل الصَّالح ، وأن يمنحنا الفقه فى دينه ، والثبات عليه ، وأن يرزقنا جميعاً القيام بهذا الواجب حسب الطاقة والإمكان ، وأن يوفق ولاة أمور المسلمين للقيام بهذا الواجب والصبر عليه ، وأن يوفق من أسند إليه هذا الواجب أن يقوم به على خير ما يرام وأن يعين الجميع على أداء حقه والنصح له ، ولعباده إنه تعالى جواد كريم وصلى الله وسلم وبارك على عبده نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان .

❁ ❁ ❁

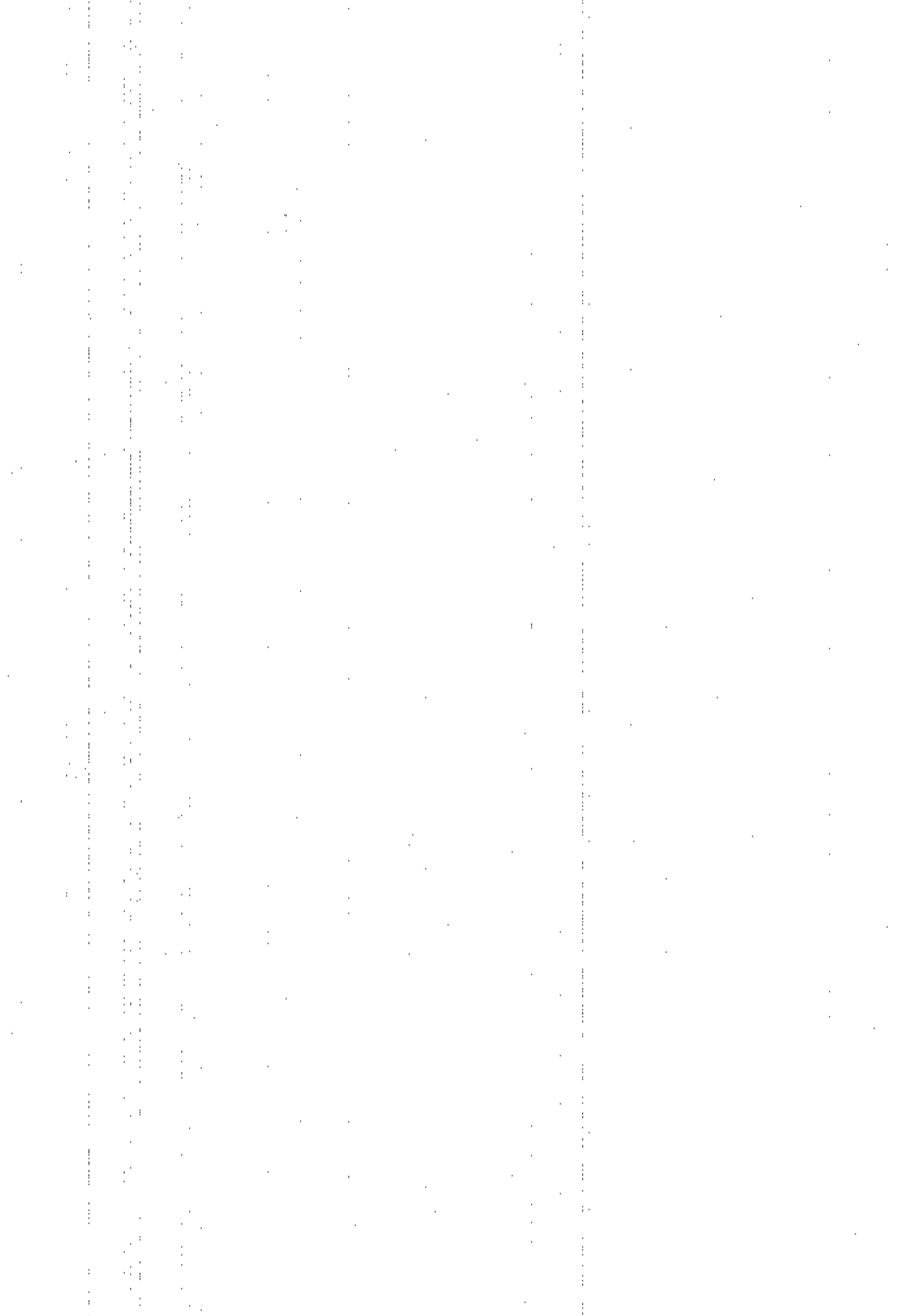


المحاضرة العاشرة:

الخلاف بين العلماء
أسبابه .. وموقفنا منه

ألقاها

فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين



الخلاف بين العلماء
أسبابه .. وموقفنا منه(*)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً.

أما بعد،

فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران:١٠٢]. ﴿يا أيها النَّاس اتقوا ربَّكم الَّذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[النساء:١]. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقُولوا قَولاً سَديداً يُصْلح لكم أعمالكم ويَغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

وبعد:

فإنه قد يثير موضوع هذه المحاضرة التساؤل من كثير من سامعيها لماذا كان موضوع هذه المحاضرة هذا العنوان الذى قد يكون غيره من مسائل الدين أهم منه؟ ولكن هذا العنوان وخاصة فى وقتنا الحاضر يشغل بال كثير من الناس، لا أقول من العامة بل حتى من طلبة العلم، وذلك أنها كثرت فى وسائل الإعلام نشر الأحكام وبثها بين الأنام، وأصبح الخلاف بين قول فلان

(*) نشرت بالمكتب الإسلامى ١٤١٢ هـ.

وفلان مصدر تشويش، بل تشكيك عند كثير من الناس، لاسيما من العامة الذين لا يعرفون مصادر الخلاف، لهذا رأيت وبالله أستعين أن تكون محاضرة هذه الليلة هو هذا الأمر الذى له فى نظرى شأن كبير عند المسلمين..

* * *

أيها الأخوة الكرام: إن من نعمة الله تبارك وتعالى على هذه الأمة ما أشار إليه أخونا الأستاذ: عبد الله الصباغ من أن الخلاف بين الأمة لم يكن فى أصول دينها ومصادره الأصيلة، وإنما كان الخلاف فى أشياء لا تمس وحدة المسلمين الحقيقية وهو أمر لابد أن يكون . . وقد أجملت العناصر التى أريد أن أتحدث عنها فى هذه المحاضرة بما يأتى:

أولاً: من المعلوم عند جميع المسلمين مما فهموه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق وهذا يتضمن أن يكون رسول الله ﷺ قد بين هذا الدين بياناً شافياً كافياً، لا يحتاج بعده إلى بيان، لأن الهدى بمعناه ينافى الضلالة بكل معانيها، ودين الحق بمعناه ينافى كل دين باطل لا يرتضيه الله عز وجل، ورسول الله بُعث بالهدى ودين الحق، وكان الناس فى عهده صلوات الله وسلامه عليه يرجعون عند التنازع إليه فيحكم بينهم ويبين لهم الحق سواء فيما يختلفون فيه من كلام الله، أو فيما يختلفون فيه من أحكام الله التى لم ينزل حكمها، ثم بعد ذلك ينزل القرآن مبيناً لها، وما أكثر ما نقرأ فى القرآن قوله: [يسألونك عن كذا] فيجيب الله بالجواب الشافى ويأمره أن يبلغه إلى الناس. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُم قُل أُحِلَّ لَكُمُ

الـطَّيِّبَات وَمَا عَلَّمْتُم مـن الجَوَارِحِ مُكَلِّبِين تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْه وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَرِيعُ الحِسَاب﴾[المائدة: ٤]

﴿يَسأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُم الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَتَفكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿يسألُونك عَنِ الأنْفَال قُل الأَنْفَالُ لله وَالرَّسُول فَاتَّقوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

﴿يسألُونك عَن الأَهِلّة قُلْ هِي مَوَاقِيت لِلنَّاس وَالحج وَلَيْسَ البِرّ بِأَنْ تأتُوا البيُوتَ من ظُهُورها ولَكِن البِرَّ من اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِن أَبْوَابِها وَاتَّقوا الله لَعَلَّكُمُ تُفْلِحون﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿يسألونك عَنِ الشَّهْر الحَرَامِ قتال فيه قُل قتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عن سَبِيلِ الله وكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِد الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِه منه أَكْبَرُ عند الله والفتْنَةُ أكبرُ من القَتْل وَلا يَزالُون يُقَاتِلُونكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عن دِينِكُم إِن استَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِد منكُم عن دِينِهِ فَيَمُت وَهُو كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهم فى الدُّنيا والآخرة وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُم فيها خَالِدُون﴾ [البقرة: ٢١٧].

إلى غير ذلك من الآيات التى يعلمها كثير منكم.

ولكن بعد وفاة الرسول ﷺ اختلفت الأمة فى أحكام الشريعة التى لا تقضى على أصول الشريعة، وأصول مصادرها.

ولكنه اختلاف سنبين إن شاء الله بعض أسبابه فى هذه المحاضرة .. ونحن جميعاً نعلم علم اليقين أنه لا يوجد أحد من ذوى العلم الموثوق بعلمهم وأماناتهم ودينهم يخالف ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

عن عـمد وقصد، لأن مـن اتصفـوا بالعـلم والديانـة، فلابد أن يـكون رائدهم الحق، ومن كـان رائده الحق فإن الله سييسره له. واسـتمعوا إلى قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن لـلذكر فهل من مدَّكر﴾ [القمر:١٧]. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٧].

ولكن مثل هـؤلاء الأئمة يمكن أن يحدث منهم الخـطأ فى أحكام الله تبارك وتعالى، لا فى الأصول التى أشرنا إليها من قبل، وهذا الخطأ أمر لابد أن يكون. لابد أن يكون لأن الإنسان كمـا وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٨].

الإنسان ضعيف فى علمه وإدراكه، وهو ضعيف فى إحاطته وشموله، ولذلك لابد أن يقع الخطأ منه فى بعض الأمور. ونحن نجمل ما أردنا أن نتكلم عليه من أسباب الخطأ من أهل العلم فى الأسباب الآتية الستة: مع أنها فـى الحقيقـة أسباب كثيـرة، وبحر لا ساحل لـه، والإنسان البـصير بأقوال أهل العلم يعرف أسباب الخلاف المنتشرة نجملها:

السبب الأول: أن يـكون الدليل لم يـبلغ هذا المخالف الـذى أخطأ فى حكمه، أو بلغه على وجه لا يطمئن به.

وهذا السبب ليس خاصاً فيمن بعـد الصحابة، بل يكون فى الصحابة ومن بعدهم. ونضرب مثالين وقعا للصحابة من هذا النوع.

الأول: هو كـون الدليل لـم يبلغ الـقائل. فإنـنا علمـنا بما ثبـت فى صحيح البخارى وغيره حينما سـافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنـه إلى الـشام، وفى أثـناء الطـريق، ذكـر له أن فيـها وبـاء وهو

الطاعون، فوقف وجعل يستشير الصحابة رضى الله عنهم، فاستشار المهاجرين والأنصار واختلفوا فى ذلك على رأيين . . وكان الأرجح القول بالرجوع، وفى أثناء هذه المداولة والمشاورة جاء عبد الرحمن بن عوف، وكان غائباً فى حاجة له، فقال: إن عندى من ذلك علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به فى أرض فلا تقدموا عليه، وإن وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه» فصار هذا الحكم خافياً على كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، حتى جاء عبد الرحمن فأخبرهم بهذا الحديث.

مثال آخر: كان على بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما يريان أن الحامل إذا مات عنها زوجها تعتد بأطول الأجلين، من أربعة أشهر وعشر . . . أو وضع الحمل، فإذا وضعت الحمل قبل أربعة أشهر وعشر، لم تنقض العدة عندهما وبقيت حتى تنقضى أربعة أشهر وعشر، وإذا انقضت أربعة أشهر وعشر من قبل أن تضع الحمل بقيت فى عدتها حتى تضع الحمل، لأن الله تعالى يقول: ﴿وأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

ويقول: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويَذَرُون أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهن أَرْبَعة أَشْهرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وبين الآيتين عموم وخصوص وجهى، وطريق الجمع بين ما بينهما عموم وخصوص وجهى، أن يؤخذ بالصورة التى تجمعهما، ولا طريق إلى ذلك إلا ما سلكه على وابن عباس رضى الله عنهما، ولكن السنة فوق ذلك. فقد ثبت عن رسول الله ﷺ «فى حديث سبيعة الأسلمية أنها نفست بعد موت زوجها بليال فأذن لها

رسول الله أن تتزوج» ومعنى ذلك أننا نأخذ بآية سورة الطلاق التى تسمى سورة النساء الصغرى، وهى عموم قوله تعالى: ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وأنا أعلم علم اليقين أن هذا الحديث لو بلغ عليا وابن عباس لأخذا به قطعاً، ولم يذهبا إلى رأيهما.

٢- ربما يكون الحديث قد بلغ الرجل ولكنه لم يثق بناقله ورأى أنه مخالف لما هو أقوى منه، فأخذ بما يراه أقوى منه، ونحن نضرب مثلاً أيضاً، ليس فيمن بعد الصحابة، ولكن فى الصحابة أنفسهم.

فاطمة بنت قيس رضى الله عنها طلقها زوجها آخر ثلاث تطليقات، فأرسل إليها - وكليه شعيراً - نفقة لها مدة العدة، ولكنها سخطت الشعير وأبت أن تأخذه، فارتفعا إلى النبى ﷺ فأخبرها النبى: أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وذلك لأنه أبانها، والمبانة ليس لها نفقة ولا سكنى على زوجها إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولات حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِن حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُن﴾ [الطلاق: ٦].

عمر رضى الله عنه - ناهيك عنه فضلاً وعلماً - خفيت عليه هذه السنة، فرأى أن لها النفقة والسكنى، ورد حديث فاطمة باحتمال أنها قد نسيت فقال: أنترك قول ربنا لقول امرأة لا ندرى أذكرت أم نسيت؟ وهذا معناه أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لم يطمئن إلى هذا الدليل، وهذا كما يقع لعمر ومن دونه من الصحابة ومن دونهم من التابعين، يقع أيضاً لمن بعدهم من أتباع التابعين، وهكذا إلى يومنا هذا بل إلى يوم

القيامة، أن يكون الإنسان غير واثق من صحة الدليل. وكم رأينا من أقوال لأهل العلم فيها أحاديث يرى بعض أهل العلم أنها صحيحة فيأخذون بها ويراها الآخرون ضعيفة، فلا يأخذون بها نظراً لعدم الوثوق بنقلها عن رسول الله ﷺ.

السبب الثانى: **أن يكون الحديث قد بلغه ولكنه نسيه**، وجل من لا ينسى، كم من إنسان ينسى حديثاً، بل قد ينسى آية، رسول الله ﷺ «صلى ذات يوم فى أصحابه فأسقط آية نسيانا»، وكان معه أبى بن كعب رضى الله عنه، فلما انصرف من صلاته قال: «هلا كنت ذكرتنيها» وهو الذى ينزل عليه الوحى، وقد قال له ربه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَىٰ إِلا مَا شَاءَ الله إِنَّه يَعْلَمُ الجَهْر وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

ومن هذا - أى مما يكون الحديث قد بلغ الإنسان ولكنه نسيه - قصة عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر رضى الله عنهما حينما أرسلهما رسول الله فى حاجة، فأجنبا جميعاً عمار وعمر. أما عمار فاجتهد ورأى أن طهارة التراب كطهارة الماء، فتمرغ فى الصعيد كما تمرغ الدابة، لأجل أن يشمل بدنه التراب، كما كان يجب أن يشمله الماء وصلى، أما عمر رضى الله عنه فلم يصل .. ثم أتيا إلى رسول الله ﷺ فأرشدهما إلى الصواب، وقال لعمار: إنما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا - وضرب بيديه الأرض مرة واحدة - ثم مسح الشمال على اليمين - وظاهر كفيه ووجهه. وكان عمار رضى الله عنه يحدث بهذا الحديث فى خلافة عمر، وفيما قبل ذلك، ولكن عمر دعاه ذات يوم وقال له: ما هذا الحديث الذى تحدث به؟ فأخبره وقال: أما تذكر حينما بعثنا رسول الله

فى حاجة، فأجنبنا فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمرغت فى الصعيد، فقال النبى ﷺ: «إنما كان يكفيك أن تقول كذا وكذا». ولكن عمر لم يذكر ذلك وقال: اتق الله يا عمار فقال له عمار: إن شئت بما جعل الله على من طاعتك أن لا أحدث به فعلت فقال له عمر: نوليك ما توليت - يعنى فحدث به الناس - فأنتم ترون الآن أن عمر نسى أن يكون النبى ﷺ جعل التيمم فى حال الجنابة كما هو فى حال الحدث الأصغر وقد تابع عمر على ذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، وحصل بينه وبين أبى موسى رضى الله عنهما مناظرة فى هذا الأمر فأورد عليه قول عمار لعمر، فقال ابن مسعود، ألم تر أن عمر لم يقنع بقول عمار فقال أبو موسى: دعنا من قول عمار، ما تقول فى هذه الآية يعنى آية المائدة فلم يقل ابن مسعود شيئاً، ولكن لا شك أن الصواب مع الجماعة الذين يقولون أن الجنب يتيمم، كما أن المحدث حدثاً أصغر يتيمم، والمقصود أن الإنسان قد ينسى فيخفى عليه الحكم الشرعى فيقول قولاً يكون به معذوراً لكن من علم الدليل فليس بمقدور. هذان سببان.

والسبب الثالث: أن يكون بلغه وفهم منه خلاف المراد.

فنضرب لذلك مثلين، الأول من الكتاب، والثانى من السنة:

١ - **من القرآن** قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِن الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُم النساء، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً . . .﴾ [النساء: ٤٣] اختلف العلماء رحمهم الله فى معنى ﴿أَوْ لامَسْتُم النِّسَاء﴾ [النساء: ٤٣] ففهم بعض منهم أن المراد مطلق اللمس، وفهم آخرون: أن المراد به اللمس المثير للشهوة. وفهم آخرون أن المراد به الجماع وهذا

الرأى رأى ابن عباس رضى الله عنه.

وإذا تأملت الآية وجدت أن الصواب مع من يرى أنه الجماع، لأن الله تبارك وتعالى ذكر نوعين فى طهارة الماء، طهارة الحدث الأصغر والأكبر. ففى الأصغر قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وَجُوهكُم وَأَيْدِيكُمْ إلى المرافق وَامْسَحُوا بِرُؤوسِكُم وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَين﴾ [المائدة:٦]. أما الأكبر فقوله: ﴿إِنْ كُنْتم جُنُباً فَاطَّهرُوا...﴾ الآية [المائدة :٦]. وكان مقتضى البلاغة والبيان أن يذكر أيضاً موجبا الطهارتين فى طهارة التيمم فقوله تعالى ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِن الغَائط﴾ إشارة إلى موجب طهارة الحدث الأصغر .. وقوله: ﴿أَوْ لامَسْتُم النِّساء﴾ [المائدة: ٦] إشارة إلى موجب طهارة الحدث الأكبر .. ولو جعلنا الملامسةهنا بمعنى اللمس، لكان فى الآية ذكر موجبين من موجبات طهارة الحدث الأصغر، وليس فيها ذكر لشىء من موجبات طهارة الحدث الأكبر، وهذا خلاف ما تقتضيه بلاغة القرآن، فالذين فهموا من الآية أن المراد به مطلق اللمس: قالوا: إذا مس إنسان ذكر بشرة الأنثى انتقض وضوءه، أو إذا مسها لشهوة انتقض، ولغير شهوة لا ينتقض، والصواب عدم الانتقاض فى الحالين، وقد روى أن رسول الله ﷺ قبل إحدى نسائه، ثم ذهب إلى الصلاة ولم يتوضأ وقد جاء من طرق يقوى بعضها بعضاً.

٢- **من السنة**: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الأحزاب، ووضع عدة الحرب جاءه جبريل فقال له: إنا لم نضع السلاح فاخرج إلى بنى قريظة، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج وقال: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» الحديث، فقد اختلف الصحابة فى فهمه.

فمنهم مـن فهم أن مراد الرسول المبادرة إلى الخروج حـتى لا يأتى وقت العصر إلا وهم فى بنى قريظة، فلـما حان وقت العصر وهم فى الطريق صلوها ولم يؤخروها إلى أن يخرج وقتها.

ومنهـم من فهم: أن مراد رسـول الله أن لا يصلوا إلا إذا وصلـوا بنى قريظة فأخروها حتى وصلوا بنى قريظة فأخرجوها عن وقتها.

ولا ريب أن الـصواب مـع الذيـن صلـوا الصـلاة فى وقـتهـا، لأن النصـوص فى وجوب الصـلاة فى وقتهـا محكمـة، وهذا نص مشـتبه. وطريق العلم أن يحمل المتشـابه على المحكم.. إذن من أسباب الخلاف أن يفهم من الدليل خلاف مراد الله ورسوله، وذلك هو السبب الثالث.

السـبب الرابـع: أن يكون قـد بلغه الحـديث لكـنه منسوخ ولم يعـلم بالنـاسخ فيكون الحـديث صحيحاً والمـراد منه مفهـوماً ولكنه مـنسوخ، والعالم لا يعـلم بنسخه فحيـنئذ له العذر لأن الأصل عدم الـنسخ حتى يعلم بالناسخ.

ومن هذا رأى ابن مسعود رضى الله عنه .. مـاذا يصنع الإنسان بيديه إذا ركع؟ كان فى أول الإسلام يشرع للمصلى التطبيق بين يديه ويضعهما بين ركبـتيه، هذا هـو المشروع فى أول الإسـلام ثم نسخ ذلـك، وصار المشروع أن يضع يديه على ركبتيه.

وثبت فى صحيح البخارى وغيره النسخ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه لم يـعلم بالنسخ، فـكان يطبق بين يديه، فـصلى إلى جانبه عـلقمة والأسود، فوضعا يديهما على ركبهـما، ولكنه رضى الله عنه نهاهما عن

ذلك وأمرهما بالتطبيق . . لماذا؟ لأنه لم يعلم بالنسخ، والإنسان لا يكلف إلا وسع نفسه . . قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكتسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسينا أَوْ أَخْطَأنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمنَا أَنتَ مَوْلانا فانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرين﴾ [البقرة:٢٨٦].

السبب الخامس: أن يعتقد أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو إجماع. بمعنى أنه يصل الدليل إلى المستدل، ولكنه يرى أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو اجماع، وهذا كثير فى خلاف الأئمة. وما أكثر ما نسمع من ينقل الاجماع، ولكنه عند التأمل لا يكون إجماعاً.

ومن أغرب ما نقل فى الاجماع أن بعضهم قال: اجمعوا على قبول شهادة العبد . . وآخرون قالوا: اجمعوا على أنها لا تقبل شهادة العبد. هذا من غرائب النقل، لأن بعض الناس إذا كان من حوله اتفقوا على رأى، ظن أن لا مخالف لهم، لاعتقاده أن ذلك مقتضى النصوص، فيجتمع فى ذهنه دليلان النص والاجماع، وربما يراه مقتضى القياس الصحيح، والنظر الصحيح فيحكم، أنه لا خلاف، وأنه لا مخالف لهذا النص القائم عنده مع القياس الصحيح عنده، والأمر قد كان بالعكس.

ويمكن ان نمثل لذلك برأى ابن عباس رضى الله عنهما فى ربا الفضل . .

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الرِّبا فى النَّسيئة» وثبت عنه فى حديث عبادة بن الصامت وغيره: «أن الرِّبا يكون فى النَّسيئة وفى

الزيادة».

وأجمع العلماء بعد ابن عباس علـى أن الربا قسمان: ربا فضل، وربا نسيئة. أما ابن عباس فإنه أبى إلا أن يكون الربا فى النسيئة فقط. مثاله لو بعت صاعاً من الـقمح بصاعين يداً بيد فإنه عنـد ابن عباس لا بأس به، لأنه يرى أن الربـا فى النسيئة فقـط. «وإذا بعت مثلاً مثقـالا من الذهب بمثقالين من الذهب يداً بيد» فعنده أنه ليس ربا.

لكن إذا أخرت الـقبض، فأعطيتنـى المثقال ولم أعطك الـبدل إلا بعد التفرق فهو ربا ... لأن ابن عباس رضى الله عنهما يرى أن هذا الحصر مانع من وقوع الربا فى غيره، ومعلوم أن: إنما تفيد الحصر فيدل على أن ما سواه ليس بربا، لكن الحقيقة أن ما دل عليه حديث عبادة يدل على أن الفضل من الربا لقول الرسول ﷺ: «من زاد أو استزاد فقد أربى».

إذاً ما موقفنا نحن من الحديث الـذى استدل به ابن عباس؟ موقفنا أن نحملـه على وجه يمكن أن يتـفق مع الحديث الآخر الدال عـلى أن الربا يكون أيضاً فى الفضل: بأن نقول: إنما الربا الشديد الذى يعمد إليه أهل الجاهليـة والذى ورد فيه قوله تـعالى: ﴿يَا أيـها الَّذيـنَ آمَنُوا لا تَأكُلوا الـرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. إنماهو ربا الـنسيئة، أما ربا الفـضل فإنه ليس الـربا الشديـد العظيم، ولـهذا ذهب ابن القـيم فى كتـابه «اعلام الموقعين»: إلى أن تحريم ربا الفضل مـن باب تحريم الوسائل، وليس من باب تحريم المقاصد.

السبب السادس: أن يأخذ العـالم بحديث ضعيف أو يستدل استدلالاً

ضعيفاً. وهذا كثير جداً، فمن أمثلته: أى أمثلة الاستدلال بالحديث الضعيف : ما ذهب إليه بعض العلماء من استحباب صلاة التسبيح وهو أن يصلى الإنسان ركعتين، يقرأ فيهما بالفاتحة، ويسبح خمس عشرة تسبيحة، وكذلك فى الركوع والسجود إلى آخر صفتها التى لم أضبطها، لأننى لا أعتقدها من حيث الشرع. ويرى آخرون: أن صلاة التسبيح بدعة مكروهة، وأن حديثها لم يصح، وممن يرى ذلك الإمام أحمد رحمه الله وقال: إنها لا تصح عن النبى ﷺ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إن حديثها كذب على رسول الله، وفى الحقيقة من تأملها وجد أن فيها شذوذاً حتى بالنسبة للشرع إذ أن العبادة، إما أن تكون نافعة للقلب، ولابد لصلاح القلب منها فتكون مشروعة فى كل وقت وفى كل مكان، وإما أن لا تكون نافعة فلا تكون مشروعة وهذه فى الحديث الذى جاء عنها يصليها الإنسان كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر أو فى العمر مرة، وهذا لا نظير له فى الشرع، فدل على شذوذها سنداً ومتناً، وأن من قال إنها كذب، كشيخ الإسلام فإنه مصيب، ولذا قال شيخ الإسلام: أنه لم يستحبها أحد من الأئمة.

وإنما مثلت بها لأن السؤال عنها كثير من الرجال والنساء، فأخشى أن تكون هذه البدعة أمراً مشروعاً، وإنما أقول بدعة، أقولها ولو كانت ثقيلة على بعض الناس لأننا نعتقد أن كل من دان لله سبحانه مما ليس فى كتاب الله أو سنة رسوله فإنه بدعة.

كذلك أيضاً من يأخذ بدليل ضعيف من حيث الاستدلال. الدليل قوى لكنه من حيث الاستدلال به ضعيف، مثل ما أخذ بعض العلماء

من حديث ذكاة الجنين ذكاة أمه. . فالمعروف عند أهل العلم من معنى الحديث أنَّ أمّ الجنين إذا ذكيت فإن ذكاتها ذكاة له - أى لا يحتاج إلى ذكاة إذا أخرج منها بعد الذبح، لأنه قد مات ولا فائدة من تذكيته بعد موته.

ومن العلماء من فهم أن المراد به أى بالحديث . . أن ذكاة الجنين كذكاة أمه، تكون بقطع الودجين وإنهار الدم - ولكن هذا بعيد والذى يبعده أنه لا يحصل إنهار الدم بعد الموت.

ورسول الله ﷺ يقول: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل» ومن المعلوم أنه لا يمكن إنهار الدم بعد الموت، هذه الأسباب التى أحببت أن أنبه عليها مع أنها كثيرة، وبحر لا ساحل له . . ولكن بعد هذا كله ما موقفنا؟

وما قلته فى أول موضوع هذه المحاضرة: أن الناس بسبب وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية واختلاف العلماء أو اختلاف المتكلمين فى هذه الوسائل صاروا يتشككون ويقولون من نتبع؟

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدرى خراش ما يصيد

وحينئذ نقول موقفنا من هذا الخلاف وأعنى به خلاف العلماء الذين نعلم أنهم موثوقون علماً وديانة، لا من هم محسوبون على العلم وليسوا من أهله، لأننا لا نعتبر هؤلاء علماء، ولا نعتبر أقوالهم مما يحفظ من أقوال أهل العلم . . ولكننا نعنى به العلماء المعروفين بالنصح للأمة والإسلام والعلم، موقفنا من هؤلاء يكون على وجهين:

١- كيف خالف هؤلاء الأئمة لما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله؟ وهذا يمكن أن يعرف الجواب عنه بما ذكرنا من أسباب الخلاف، وبما لم نذكره، وهو كثير يظهر لطالب العلم حتى وإن لم يكن متبحراً فى العلم.

٢- ما موقفنا من اتباعهم؟ فمن نتبع من هؤلاء العلماء؟ أيتبع الإنسان إماماً لا يخرج عن قوله، ولو كان الصواب مع غيره كعادة المتعصبين للمذاهب. أم يتبع ما ترجح عنده من دليل ولو كان مخالفاً لما ينتسب إليه من هؤلاء الأئمة؟ الجواب هو الثاني، فالواجب على من علم بالدليل أن يتبع الدليل ولو خالف من خالف من الأئمة. إذا لم يخالف إجماع الأمة ، ومن اعتقد أن أحداً غير رسول الله ﷺ يجب أن يؤخذ بقوله فعلاً وتركاً بكل حال وزمان، فقد شهد لغير الرسول بخصائص الرسالة، لأنه لا يمكن أحداً أن يكون هذا حكم قوله إلا رسول الله ﷺ، ولا أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك سوى رسول الله ﷺ.

ولكن يبقى الأمر فيه نظر لأننا لا نزال فى دوامة من الذى يستطيع أن يستنبط الأحكام من الأدلة؟ هذه مشكلة، لأن كل واحد صار يقول: أنا صاحبها. وهذا فى الحقيقة ليس بجيد، نعم من حيث الهدف والأصل. هو جيد أن يكون رائد الإنسان كتاب الله وسنة رسوله، لكن كوننا نفتح الباب لكل من عرف أن ينطق بالدليل، وإن لم يعرف معناه وفحواه، فنقول: أنت مجتهد تقول ما شئت، هذا يحصل فيه فساد الشريعة وفساد الخلق والمجتمع - والناس ينقسمون فى هذا الباب إلى ثلاثة أقسام:

١- عالم رزقه الله علماً وفهماً.

٢- طالب علم عنده من العلم، لكن لم يبلغ درجة ذلك المتبحر.
٣- عامى لا يدرى شيئاً.

أما الأول: فإن له الحق أن يجتهد وأن يقول، بل يجب عليه أن يقول ما كان مقتضى الدليل عنده مهما خالفه من خالفه من الناس لأنه مأمور بذلك. قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

وهذا من أهل الاستنباط الذين يعرفون ما يدل عليه كلام الله وكلام رسوله.

أما الثاني: الذى رزقه الله علماً ولكنه لم يبلغ درجة الأول فلا حرج عليه إذا أخذ بالعمومات والاطلاقات وبما بلغه، ولكن يجب عليه أن يكون محترزاً فى ذلك وألا يقصر عن سؤال من هو أعلى منه من أهل العلم لأنه قد يخطئ وقد لا يصل علمه إلى شئ خصص ما كان عاماً، أو قيد ما كان مطلقاً، أو نسخ ما يراه محكماً. وهو لا يدرى بذلك.

أما الثالث: وهو من ليس عنده علم، فهذا يجب عليه أن يسأل أهل العلم لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾[الأنبياء:٧] وفى آية أخرى ﴿إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ بِالبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ﴾ [النحل:٤٤] فوظيفة هذا أن يسأل، ولكن من يسأل؟ فى البلد علماء كثيرون، وكل يقول: إنه عالم، أو كل يقال عنه: إنه عالم فمن الذى يسأل؟ هل نقول: يجب عليك أن تتحرى من هو أقرب إلى الصواب فتسأله ثم تأخذ بقوله، أو نقول: اسأل من شئت ممن تراه من أهل العلم، والمفضول قد يوفق للعلم فى مسألة معينة، ولا يوفق من هو أفضل منه وأعلم - اختلف فى هذا أهل العلم؟

فمنهم من يرى: أنه يجب على العامى أن يسأل من يراه أوثق فى علمه من علماء بلده، لأنه كما أن الإنسان الذى أصيب بمرض فى جسمه فإنه يطلب لمرضه من يراه أقوى معرفة فى أمور الطب فكذلك هنا، لأن العلم دواء القلوب، فكما إنك تختار لمرضك من تراه أقوى فكذلك هنا يجب أن تختار من تراه أقوى علماً إذ لا فرق.

ومنهم من يرى أن ذلك ليس بواجب لأن من هو أقوى علماً قد لا يكون أعلم فى كل مسألة بعينها ويرشح هذا القول أن الناس فى عهد الصحابة رضى الله عنهم كانوا يسألون المفضول مع وجود الفاضل.

والذى أرى فى هذه المسألة أنه يسأل من يراه أفضل فى دينه وعلمه لا على سبيل الوجوب، لأن من هو أفضل قد يخطئ فى هذه المسألة المعينة، ومن هو مفضول قد يصيب فيها الصواب، فهو على سبيل الأولوية، والأرجح: أن يسأل من هو أقرب إلى الصواب لعلمه وورعه ودينه.

وأخيراً أنصح نفسى أولاً وإخوانى المسلمين، ولا سيما طلبة العلم إذا نزل بإنسان نازلة من مسائل العلم أن لا يتعجل ويتسرع حتى يتثبت ويعلم فيقول لئلا يقول على الله بلا علم.

فإن الإنسان المفتى واسطة بين الناس وبين الله، يبلغ شريعة الله كما ثبت عن رسول الله ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

وأخبر النبى ﷺ «أنَّ القُضَاة ثلاثة: قاض وَاحِد فى الجنة وهو من عَلِمَ الحق فَحكَم به» كذلك أيضاً من المهم إذا نزلت فيك نازلة أن تشد قلبك إلى الله وتفتقر إليه أن يفهمك ويعلمك لا سيما فى الأمور العظام الكبيرة

التى تخفى على كثير من الناس.

وقد ذكر لى بعض مشائخنا أنه ينبغى لمن سئل عن مسألة أن يكثر من الاستغفار، مستنبطاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلا تَكُن لِّلخَائِنِينَ خصيماً واستَغْفر الله إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رحِيماً﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]. لأن الإكثار من الاستغفار يوجب زوال أثر الذنوب التى هى سبب فى نسيان العلم والجهل كما قال تعالى: ﴿فَبِما نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهم قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِه وَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]

وقد ذكر عن الشافعى أنه قال:

شَكَوْتُ إلى وَكِيع سُوء حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنى إلى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَال اعلم بأن العِلْمَ نُورٌ ... ونُور الله لا يُؤْتَاهُ عَاصِي

فلا جرم حينئذ أن يكون الاستغفار سبباً لفتح الله على المرء..

* * *

وأسأل الله لى ولكم التوفيق والسداد وأن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً ...

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

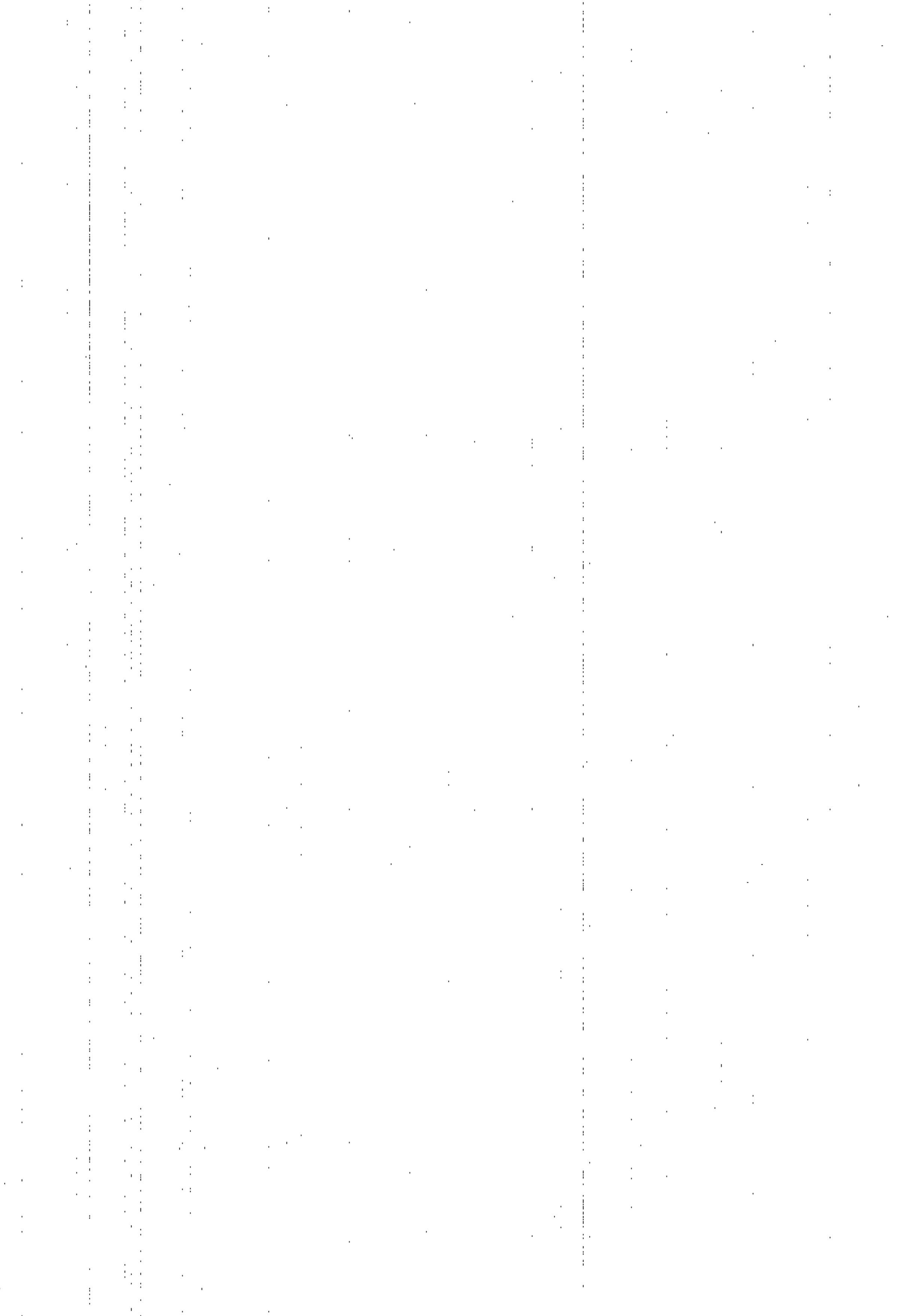
❀ ❀ ❀

المحاضرة الحادية عشرة:

شكر النعمة
حقيقته .. علاماته

ألقاها
فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز

(*) ألقيت بالمسجد الجامع الكبير بالرياض فى ٢٩/ صفر/ ١٤٠٠هـ



شكر النعمة

حقيقته .. وعلاماته(*)

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام على الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

* * *

فمن المعلوم أن الله جل وعلا أسبغ علينا نعماً كثيرة، ولم يزل يسبغ على عباده النعم الكثيرة، وهو المستحق لأن يشكر على جميع النعم. والشكر قيد النعم، إذا شكرت النعم اتسعت وبارك الله فيها وعظم الانتفاع بها، ومتى كفرت النعم زالت وربما نزلت العقوبات العاجلة قبل الآجلة.

فالنعم أنواع منوعة: نعمة الصحة فى البدن والسمع والبصر والعقل وجميع الأعضاء، وأعظم من ذلك وأكبر: نعمة الدين والثبات عليها والعناية بها والتفقه فيها، قال تعالى ﴿اليَومَ أكمَلتُ لكُم دِينكُم وأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِينا﴾ [المائدة: ٣].

فأعظم النعم نعمة الدِّين، وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب حتى أبان لعباده دينه العظيم ووضحه لهم ثم وفقك أيها المسلم وهداك حتى كنت من أهله. فهذه النعمة العظيمة التى يجب أن نشكر الله عليها غاية الشكر.

(*) نشرت ضمن «مجموع فتاوى ومقالات ابن باز» (٥/ ١٦٦: ١٧٧).

وإنما يعرف قدرها وعظمتها من نظر فى حال العالم وما نزل بهم من أنواع الكفر والشرك والضلال وما ظهر بين العالم من أنواع الفساد والإنحراف وإيثار العاجلة والزهد فى الآجلة. وما انتشر أيضا من أضرار الشيوعية والعلمانية وأفكار الدعاة لهما، ومعلوم ما تشتمل عليه هذه الأفكار من الكفر بالله وبجميع الأديان والرسالات والكتب المنزلة من السماء.

وهكذا ما ابتلى به الكثير من الناس من عبادة أصحاب القبور والأوثان والأصنام وصرف خالص حق الله إلى غيره.

وكذلك ما ابتلى به الكثير من البدع والخرافات وأنواع الضلال والمعاصى.

وإنما تعرف النعم وعظم شأنها وما لأهلها من الخير عندما يعرف ضدها فى هذه الشرور الكثيرة وما لأهلها من العواقب الوخيمة، فنعمة الإسلام عاقبتها الجنة والكرامة والوصول إلى دار النعيم بجوار الرب الكريم فى دار لا يفنى نعيمها ولا يبلى شباب أهلها ولا تزول صحتهم ولا أمنهم بل هم فى صحة دائمة وأمن دائم وشباب لا يبلى وخير لا ينفد وجوار للرب الكريم كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِين كَذَلِكَ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِ فاكهة ءَامِنِينَ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى ووقاهم عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضلاً مِن رَبِكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١، ٥٧] والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

وأما أهل الكفر والضلال فمصيرهم إلى دار الهون . . . إلى عذاب شديد وإلى جحيم وزقوم فى دار دائمة لا ينتهى عذابها ولا يموت أهلها.

كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقضَى عَلَيهِم فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنهُم مِّن عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

فمن فكر فى هذا الأمر وعرف نعمة الله عليه فإن الواجب عليه أن يشكر هذه النعمة بالثبات عليها، وسؤال الله سبحانه أن يوفقه للإستمرار عليها حتى الموت والحفاظ عليها بطاعة الله وترك معصيته والتعوذ بالله من أسباب الضلال والفتن ومن أسباب زوال النعم.

وعليه أيضاً شكر النعم الأخرى غير نعمة الإسلام مما يَحْصل للعبد من الصحة والعافية وغير ذلك من نعم الله عز وجل الكثيرة كالأمن فى الوطن والأهل والمال.

وقد يكون سوقها إليك أيها العبد من أسباب إسلامك وإيمانك بالله، وقد يكون ذلك ابتلاءاً وامتحانا مع كفرك وضلالك. قد تمتحن بوجودك فى محل آمن وصحة وعافية ومال كثير، وأنت مع ذلك منحرف عن الله وعن طاعته فهذا يكون من الابتلاء والامتحان وإقامة الحجة عليك ليزيد فى عذابك يوم القيامة إذا مت على هذه الحالة السيئة.

فالشُّكر حقيقته أن تُقَابل نِعم الله بالإيمان به وبرسله ومحبته عز وجل والاعتراف بإنعامه وشكره على ذلك بالقول الصالح والثناء الحسن والمحبة للمنعم وخوفه ورجائه والشوق إليه والدعوة إلى سبيله والقيام بحقه. ومن الإيمان بالله ورسله الإيمان بأفضلهم وإمامهم نبينا محمد

ﷺ والتمسك بشريعته. فمن شُكر الله أن تـؤمن بالله إلـها ومعبودا حقا وأنه الخلاق والرزاق العليم وأنه المستحق لأن يعبد وحده وتؤمن بأنه رب العالمين وأنه لا إله غـيره ولا معبود بحق سواه، وتؤمن بأسـمائه وصفاته عز وجل وأنه كامل فـي ذاته وأسمائه وصفاته لا شريك لـه ولا شبيه له ولا يُقَاسُ بخلقه جل وعلا كـما قال تعالى ﴿لَيسَ كَمثلـهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال تعالى: ﴿قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الـصَّمَدُ لَم يَلِد وَلَم يُولَد وَلَم يكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١-٤].

ومن الإيمان بالله سبحانه أن تؤمن بأنه هو المستحق للعبادة كما تقدم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى ﴿إِياكَ نَعْبُدُ وَإِياكَ نَستعين﴾ [الفاتحة: ٥]. إلخ.

وقـال سـبحـانـه: ﴿فَادعُوا اللهَ مُخـلِصِينَ لَهُ الـدِيـنَ وَلَو كَرِهَ الكافرون﴾[غافر: ١٤].

وقال عز وجل: ﴿يَأَيها الـنَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم...﴾ [البقرة: ٢١] إلخ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيعبُدُون﴾ [الذاريات: ٥٦] إلخ، وقـال سبـحانـه: ﴿وَمَـا أُمِـرُوا إِلا لِيَعـبُدُوا اللهَ مـخـلِصِينَ لَهُ الـدِيـنَ حنَفَاءَ...﴾[البينة: ٥] إلخ.

فالله هو المـستحق لأن يـعبد وَحْدَهُ بِدُعَائِنا ورَجَائِنـا وخوفنا وصـلاتنا ونذورنا وذبحنا وغير ذلك من أنواع العبادة.

وبهـذا تعلم أن مـا يفعـله الجهلـة حول القـبور من الدعـاء والخوف والرجاء والذبح والنـذر لأهلها - أن هذا هو الشرك الأكبر وأنـه يناقضه قول لا إلـه إلا الله. وتعرف أيـضا أن من أنـكر اليـوم الآخر والبـعث والنشـور والجنة والنار فهـو من أكفر خلـق الله ولم يؤمن بالله سبـحانه وتعالى بل كافر بالله ودينه... إلخ.

والشُّيوعـيون الملحدون قـد توافرت فيهم أنـواع الكفر والضـلال كما توافرت فـيمن عبد غـير الله وأشرك معه غـيره من عبَّاد القـبور والأوثان وعباد الأنـبياء والصالحـين وعباد الأصنام والكـواكب والشمس والـقمر ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَأيهَا الـنَّاس اعبُدُوا ربَّكُمُ الذى خَلَقَكُم وَالـذِينَ مِن قَبْلِكُم لعلَّكم تَتقُونَ الذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فراشاً﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] إلخ.

وقال تعـالى: ﴿إنَّ ربَّكم الله الذى خـلق السمـاوات والأرض فى ستَّة أيَّام ثُمَّ استوىٰ عـلى العرش يُغشـى اليل النهـار يطلبه حـثيثاً والشـمس والقمر والـنجوم مسـخَّرات بأمره ألا له الخـلق والأمر تبـارك الله ربُّ العالمين ادعـوا ربكم تضـرُّعاً وخُفْيَةً إنه لا يُحبُّ المـعتدين ولا تُفسدوا فـى الأرض بعد إصلاحها وادعـوه خوفاً وطمعاً إنَّ رحمت الله قريبٌ من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٦]

ومَنْ صَرَف العبادة لغير الله كمن صرفهـا للجن أو الملائكة أو للبدوى أو للحسين أو غيرهم من الخلق فـقد أشرك بالله غيره وعبد مع الله سواه ونقض بـذلك قوله [لا إله إلا الله] وكـفر بنعم الله التـى أنعم بها عـليه بالصحة والعافية وبالرسل وبرسولـنا محمد ﷺ، وهذا أعظم كفر للنعم

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِل...﴾ [الحج: ٦٢] إلخ.

وهذه العقيدة الصَّحيحة هى التى جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام وجاء بها أكملهم وإمامهم وأفضلهم ونصيبنا منهم محمد ﷺ جاء يدعو إلى توحيد الله والإخلاص له.

وأرسل رسله إلى القبائل تدعوهم إلى توحيد الله عز وجل وإلى البلدان كذلك كما بعث عليا ومعاذا وأبا موسى الأشعرى رضى الله عنهم إلى اليمن. وأقام فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى توحيد الله عز وجل وأقام فى المدينة عشر سنين يدعو إلى توحيد الله واتباع شريعته وإنما بدأ بالدعوة إلى التوحيد لأنه هو الأساس، فهو أساس الإيمان والدين وأساس الشكر لله المنعم، وبه بدأ الرسل كلهم كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَد بَعَثنَا فِي كُل أُمةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبُدُوا الله واجتَنِبُوا الطاغوت﴾الآية [النحل: ٣٦].

فمن فاته توحيد الله والإخلاص له عز وجل فإن جميع أعمالهم كلها باطلة لا تنفعه بشئ.

كما قال تعالى ﴿وَلَو أَشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٨٨].

وقال تعالى ﴿وَلَقَد أُوحِيَ إِلَيكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبلكَ لَئِنْ أَشرَكتَ لَيَحبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين﴾[الزمر: ٦٥].

والشُّكر لله سبحانه على نعمة التوحيد وغيرها من النعم من أعظم الواجبات وأفضل القربات، وهو يكون بقلبك محبة لله وتعظيما له

ومحبة فيه وموالاة فيه . . . شوقا إلى لقائـه وجناته، فهو سبحانه العالى فوق خلقه والمستوى على عرشه استـواءاً يليق بجلاله وعظـمته، وليس المعنى استـولى كما تقول المبتدعـة من الجهمية وغيرهم، بـل هو بمعنى: ارتفع فوق عرشه كمـا قال السلف رحمهم الله بأنه فوق سمـٰواته على عرشه بائن مـن خلقه سبحانه وتعالـى يعلم كل شئ وليس يخـفى عليه شئ سبحانه وتعالى.

ومما اشتهر فى ذلك قول مالك رحمه الله لما سئل عن قوله: ﴿الرحمنُ عَلَى العَرشِ استَوَىٰ﴾ «كيف استوى» فأجاب رحـمه الله بقوله: «الإِستواء معلوم والكيف مجهول والإِيمان به واجب والسؤال عنه بدعة» وبقوله قال أهل السنة والجماعة رحمهم الله.

والمراد بقوله: «والـسُّؤالُ عنه بِدعة»: يعني الكَيْف، لأنـه لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، أما الإِستواء فمعلوم، وهو العلو والإِرتفاع، وروى هذا المعنى عن أم سلمة رضى الله عنها وعن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن شيخ مالك رحمة الله عليهما.

ومن الشكر بالقلب لله أيضا: محبة المؤمنين والمرسلين وتصديقهم فيما جاءوا به ولا سيما نبينا محمـد ﷺ، وأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، كما قال سـبحانه: ﴿وَلَقَد بَعَثـنَا فِى كُلِ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعـبُدُوا اللهَ وَاجـتَنِبُوا الطَّاغُوت﴾[النحل: ٣٦].

ومن الشكر بالقلب أيضاً: أن تعـتقد جازماً أن العـبادة حق لله وحده ولا يستحقها أحد سواه.

ومن الشكر لله بالقلب: الخوف من الله ورجاؤه ومحبته حباً يحملك على أداء حقه وترك معصيته وأن تدعو إلى سبيله وتستقيم على ذلك.

ومن ذلك: الإخلاص له والإكثار من التسبيح والتحميد والتكبير.

ومن الشكر أيضا: الثناء باللِّسان وتكرار النطق بنعم الله والتحدث بها والثناء على الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الشكر يكون باللسان والقلب والعمل.

وهكذا شكر ما شرع الله من الأقوال يكون باللسان.

وهناك نوع ثالث وهو الشُّكر بالعمل... بعمل الجوارح والقلب.

ومن عمل الجوارح أداء الفرائض والمحافظة عليها كالصلاة والصيام والزكاة وحج بيت الله الحرام والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال.

كما قال تعالى ﴿انفِروا خِفَافًا وَثِقَالا وجاهدوا بِأموالِكُم وَأَنفُسِكُم ..﴾ الآية [التوبة: ٤١].

ومن الشكر بالقلب: الإخلاص لله ومحبته والخوف منه ورجاؤه كما تقدم والشكر لله سبب للمزيد من النعم كما قال سبحانه: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم﴾[إبراهيم:٧].

ومعنى ﴿تَأَذَّن﴾ يعنى أعلم عباده بذلك وأخبرهم أنهم إن شكروا زادهم وإن كفروا فعذابه شديد، ومن عذابه أن يسلبهم النعمة، ويعاجلهم بالعقوبة فيجعل بعد الصحة المرض وبعد الخصب الجدب وبعد الأمن الخوف وبعد الإسلام الكفر بالله عز وجل وبعد الطاعة المعصية.

فمن شكر الله عز وجل أن تستقيم على أمره وتحافظ على شكره حتى يزيدك من نعـمه، فإذا أبيت إلا كفران نعـمه ومعصية أمره فإنـك تتعرض بذلك لعذابه وغضبه، وعذابه أنواع، بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة.

ومن عذابه في الدنيا: سلب النعم كما قال تعالى ﴿فَلَما زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾[الصف: ٥].

وتسـليط الأعـداء وعذاب الآخرة أشـد وأعظـم كما قـال سبحـانه: ﴿فَاذكُرُونِي أَذكُركُم وَاشكُرُوا لي ولا تَكفُرُون﴾[البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿اعملوا ءَالَ دَاوُدَ شُكـراً وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فأخبر سبحانه أن الشاكرين قليلون وأكثر الناس لا يشكرون.

فأكثر الناس يتمتع بنعم الله ويتقلـب فيها ولكنهم لا يشكرونها بل هم ساهون لاهون غافلون كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَعُونَ وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الأَنعَـمُ وَالنَّارُ مَثوى لَّهُم﴾ [محمد: ١٢].

فلا يتم الشكر إلا باللِّسان واليد والقلب جميعا.

وبهذا المعنى يقول الشاعر:

أفادتكـم النعمـاء منـي ثلاثـة ... يَدِي ولساني والضَّمير المحجبا

والمؤمن من شأنه أن يكون صبورا شكورا كما قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِكُل صبَّارٍ شكُورٍ﴾[إبراهيم: ٥].

فالمؤمـن صبور على المـصائب شكُور علـى النعم، صبـور مع أخذه بالأسباب وتعاطيه الأسباب، فإن الصبر لا يمنع الأسباب، فلا يجزع من المرض ولكن لا مانع من الدواء.

فلا يجزع من قلة المـزرعة أو ما يصيبها ولكن يعالـج المزرعة بما يزيل من أمـراضها، فـالصبر لازم وواجـب، ولكن لا يمـنع العـلاج والأخذ بالأسباب.

فالمؤمن يَصْبر على ما أصابه ويعلم أنه بقدر الله وله فيه الحكمة البالغة ويعلم أن الذنوب شرها عظيم وعواقبها وخيمة فيبادر بالتوبة من الذنوب والمعاصى.

فعليك أيها المسلم أن تتوب إلـى الله عز وجل حتى يصلح لك ما كان فاسدا ويرد عليك ما كان غائبا.

وقد صحَّ فـي الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قال: «إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمَ الرِّزق بِالذَّنب يُصيبه» فقد يفعل الإنسان ذنبا يحرم به من نعم كثيرة.

قال تعـالى: ﴿وَمَا أصـابـكـم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أيـدِيـكُم ويَعـفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

وقال جل وعلا ﴿مـا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِـن نَّفسِكَ...﴾ الآية [النساء:٧٩].

وقال سبحانه ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَر والـبَحرِ بِمَا كَسَبَت أَيدِى النـاسِ لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

فالمصائـب فيها دعوة للـرجوع إلى الله وتنبيه لـلناس لعلهـم يرجعون إليه.

فالـعلاج الحقـيقى لـلذنوب يـكون بالـتوبة إلـى الله وترك المعـاصى والصدق فـى ذلك، ومن جملة ذلـك العلاج: ما شرع الله مـن العلاج

الحسى فإنه من طاعة الله، كما قال النبى ﷺ «عباد الله تَدَاوُوا ولا تَتَدَاووا بِحَرام».

فالمؤمن صبور عند البلايا فى نفسه وأهله وولده شكور عند النعم بالقيام بحقه والتوبة إليه كما قال النبى ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» رواه مسلم فى الصحيح من حديث صهيب بن سنان رضى الله عنه.

ومن الشكر لله عز وجل: لزوم السنة والحذر من البدع. فإن كثيرا من الناس قد يبتلى بالبدعة تقليداً وتأسيا بغيره، وأسبابها الجهل.

والبدعة نوع من كُفران النِّعم وعدم الشُّكر لله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ما يفعله كثير من الناس فى كثير من البلدان من الاحتفال بمولد النبى ﷺ فى ربيع الأول، ويعتقدون أن ذلك مستحب جهلا منهم وتقليدا لغيرهم، وذلك غلط لا أساس له فى الشرع المطهر، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان وقد يقع فى هذا الاحتفال أشياء منكرة من شرب الخمور واختلاط النساء بالرجال بل قد يقع فيه قصائد بها شرك أكبر مثل ما قد وقع فى البردة للبوصيرى وذلك فى قوله:

يا أَكْرَمَ الخلق مالى من ألوذ به سِواك عند حُلول الحادث العَمَمِ

إنْ لم تكن فى مَعَادى آخذا بيدى فضلاً وإلا فقل يا زلة القدمِ

فإن من جُودك الدُّنيا وضُرَّتها ومن عُلُومك علم اللَّوح والقلم

وكما وقع فى قصيدة البرعى اليمنى وما فيها من الشِّرك الأكبر فى

دعاء النبى ﷺ .

فالاحتفالات بالموالد سواء كان مولد النبى ﷺ أو الموالد الأخرى كمولد البدوى أو ابن علوان أو الحسين أو على رضى الله عنهما - كلها بدعة منكرة أحدثها الناس ولم تكن فى عهد النبى ﷺ ولا فى عهد أصحابه ولا فى القرون المفضلة . وأول من أحدثها هم الشيعة الباطنية وهم بنوعبيد القداح المعروفون بالفاطميين الذين ملكوا مصر والمغرب فى المائة الرابعة والخامسة ، وأحدثوا احتفالات كثيرة بالموالد ، كمولد النبى ﷺ والحسين وغيرهما ، ثم تابعهم غيرهم بعد ذلك ، وهذا فيه تشبه بالنصارى واليهود فى أعيادهم ، وفيه إحياء لاجتماعات فيها كثير من المعاصى والشرك بالله ، حتى ولو فعلها كثير من الناس ، ذلك لأن الحق لا يعرف بالناس وإنما يعرف الحق بالأدلة الشرعية فى الكتاب والسنة . وقد نبه كثير من العلماء على ذلك منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والشاطبى وآخرون رحمة الله عليهم ، ومن استحسنها من بعض المنتسبين للعلم فقد غلط غلطاً بينا لا تجوز متابعته عليه . فإن تعظيم الرسول ﷺ وإظهار فضله وشأنه لا يكون بالبدع بل باتباع شرعه وتعظيم أمره ونهيه والدعوة إلى سنته وتعليمها الناس فى المساجد والمدارس والجامعات لا بإقامة احتفالات مبتدعة باسم المولد ؛ لما تقدم من الأدلة الشرعية ، ولما يقع فيها من الغلو والشرور الكثيرة ، وربما صار فيها الإختلاط وشرب الخمور ، بل قد يقع فيها ما هو أكثر من ذلك من الشرك الأكبر كما سبق التنبيه على ذلك .

وقد وقع فى الناس أيضاً تقليد لهؤلاء فقد احتفل الناس بعيد ميلاد

أولادهم أو عيد الزواج ، فهذا أيضاً من المنكرات وتقليد للكفرة . فليس لنا إلا عيدان عيد الفطر وعيد النحر وأيام التشريق وعرفة والجمعة . فمن اخترع عيداً جديداً فقد تشبه بالنصارى واليهود .

قال ﷺ : « مَنْ عَمِل عَمَلاً ليس عَلَيه أَمْرُنا فهو رَدٌّ » .

وقال: «من أحدث في أَمْرنا هَذا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ » وقال عليه الصلاة والسلام : « إِيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأمور فإن كُلَّ محدثة بِدْعة وَكُلَّ بِدْعة ضَلالة » .

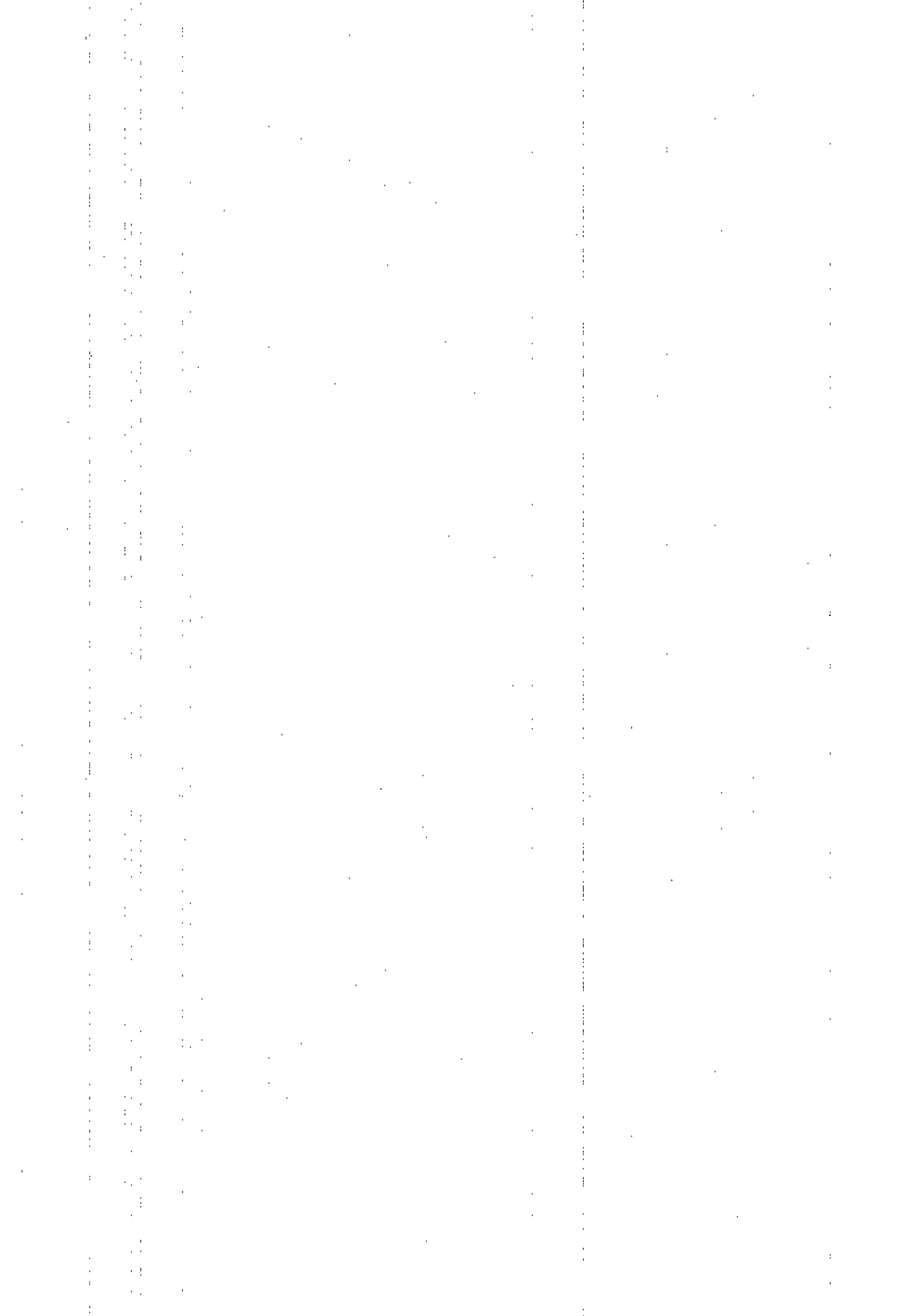
والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فالواجب على أهل الإسلام أن يسلكوا طريق النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وأتباعهم من السلف الصالح وأن يتركوا البدع المحدثة بعدهم .

وهذا كله من شكر الله قولا وعملا وعقيدة.

* * *

وأسأل الله أن يوفقنا جميعا للعلم النافع والعمل الصالح وأن يرزقنا العمل بالسنة والإستقامة عليها وأن يوفقنا لشكر نعمه قولا وعملا وعقيدة مع الثبات على الحق. كما نسأله سبحانه أن يصلح جميع ولاة أمور المسلمين وأن يوفقهم لكل خيروأن يرزقهم البطانة الصالحة وأن يعينهم على إقامة أمر الله في أرض الله وعلى إقامة حدود الله على عباد الله وأن يولي على جميع أمور المسلمين خيارهم وأن يعيذهم من مضلات الفتن إنه سميع قريب . . . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.





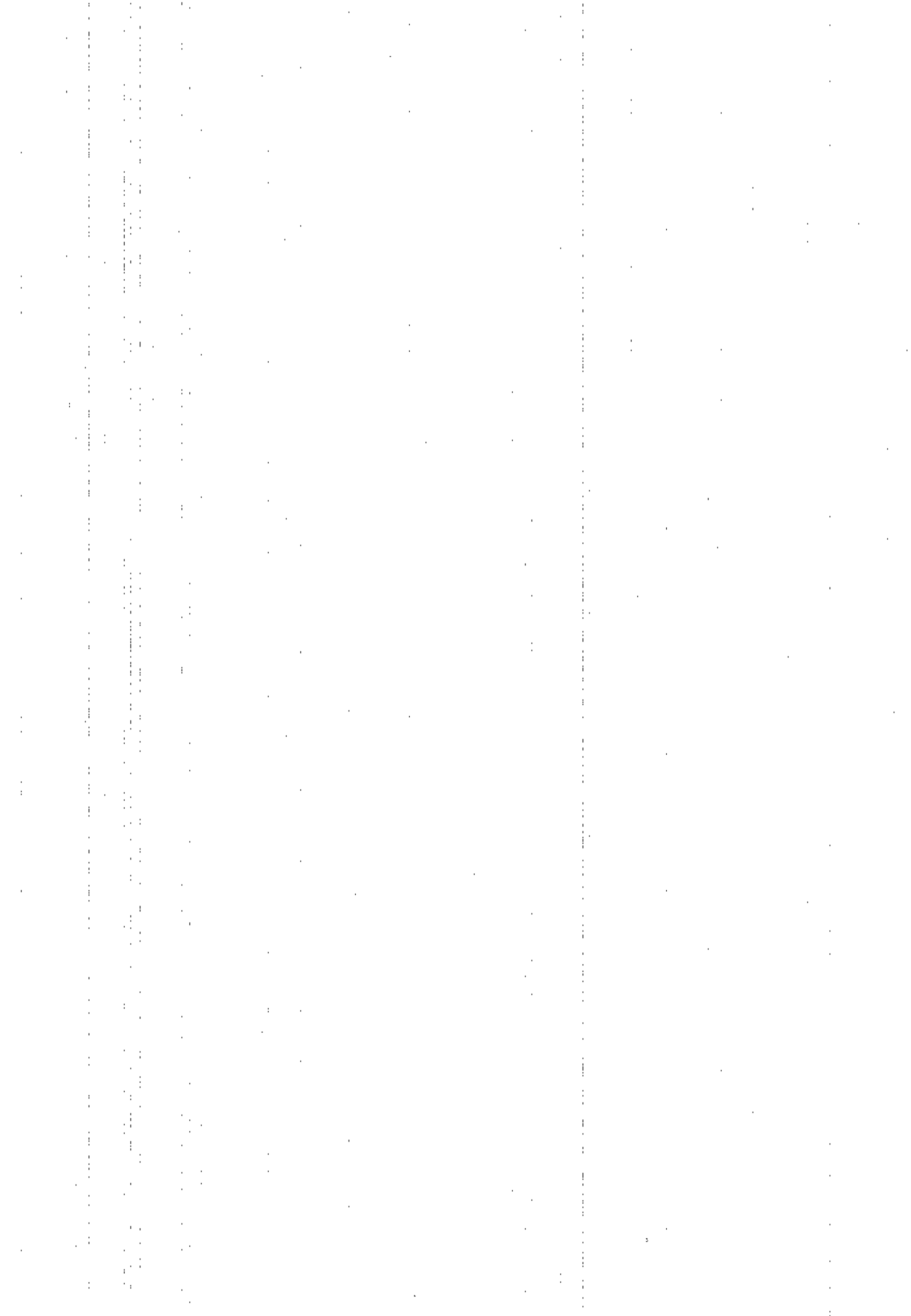
المحاضرة الثانية عشرة:

ضعف المسلمين أمام عدوهم أسبابه.. وسائل العلاج

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت فى ندوة المسجد الجامع الكبير بالرياض فى ٢٩/٥/١٣٩٩هـ



أسباب ضعف المسلمين أمام عدوهم ووسائل العلاج لذلك (*)

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب على آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد:

* * *

فلقد اهتم أرباب الفكر الإسلامي وأصحاب الغيرة الإسلامية وأصحاب التفكير الكثير بحال المسلمين وما آل إليه أمرهم . .

لقد شغلهم هذا الأمر كثيراً وفكروا كثيراً فى أسباب ضعف المسلمين وفى أسباب تأخرهم أمام عدوهم وفى أسباب تفرقهم واختلافهم، وفى أسباب تسليط العدو عليهم حتى أخذ بعض بلادهم.

ثم بعد أن عرفوا الأسباب ـ وهى واضحة ـ اهتموا أيضاً بأن يعرفوا العلاج لهذه الأسباب التى أوجبت التأخر والضعف وهى معلومة أيضاً، ولكن يجب أن تنشر وأن تبين، فإن وصف الداء ثم الدواء من أعظم أسباب الشفاء والعافية.

فإن المريض متى عرف داءه وعرف دواءه فهو جدير بأن يبادر إلى أخذ الدواء ثم يضعه على الداء.

هذه طبيعة الإنسان العاقل الذى يحب الحياة ويحب الخلاص من الأمراض، يهمه أن يعرف الداء وأن يعرف الدواء.

(*) نشرت ضمن «مجموع فتاوى ومقالات ابن باز» (٥/١٠١ : ١١٦)

ولكن بعض الناس قد يغلب عليه الـداء ويستولى عليه حتى يرضى به ويستلـذ وحتى يموت شعوره، فـلا يبالى بمن يصـف له الدواء لأن الداء صارسجية وطبيعة له يرتاح له ويقنع بالبقاء معه لانحراف مزاجه وضعف بصيرته وغلبة الهوى عليه وعلى عقـله وقلبه وتصرفاته كما هو الواقع فى أكثر الناس بالنسبة للأدواء الدينية وعلاجها.

فقد استلـذ الأكثر وطاب له البقاء علـى أمراضه وسيئاته التـى أضعفته وعطلت حركـاته وجعلته لا يحس بالـداء فى الحقيقة ولا يحس بـنتائجه ولا بما يترتب عليه فى العاجل والآجل ولا ينشد الدواء ولا يحرص عليه ولو وصف له وبين له ولو كان قريـبا منه؛ لأنه لا يهم ذلك، وماذاك إلا لاستحكام الداء وارتياح النفس له وخفاء ضرره عليه وعدم الهمة العالية لتحصيل المطالب العالية.

وقد بين العلماء وأصحاب الفكر النـير وأرباب البصيرة النافذة والخبرة بأحـوال الأمم فى هذا العـصر وقبـله بعصـور أسباب ضـعف المسلـمين وتأخرهم، كـما بينوا أيضـاً وسائل العلاج النـاجع ونتائجه وعـاقبته إذا أحسن استعمال الدواء.

وترجع أسباب الضعف والتأخر وتسليط الأعداء إلى سبب نشأت عنه أسباب كثيرة وعامل واحد نشأت عنه عوامل كثيرة، وهذا السبب الواحد والعامل الواحد هو: الجهل؛ الجهل بالله وبدينه وبالعواقب التى استولت على الأكثرية، فصار العلم قليلا والجهل غالبا.

وعن هذا الجـهل نشأت أسـباب وعوامل مـنها حب الـدنيا وكراهـية

الموت، ومنها إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، ومنها عدم الإعداد للعدو والرضى بأخذ حاجاتهم من عدوهم وعدم الهمة العالية فى إنتاج حاجاتهم من بلادهم وثرواتهم، ونشأ عن ذلك أيضا التفرق والاختلاف وعدم جمع الكلمة وعدم الاتحاد وعدم التعاون.

فعن هذه الأسباب الخطيرة وثمراتها وموجباتها حصل ما حصل من الضعف أمام العدو والتأخر فى كل شيء إلا ما شاء الله والإقبال على الشهوات المحرمة والشغل بما يصد عن سبيل الله وعن الهدى وعدم الإعداد للعدو لا من جهة الصناعة ولا من جهة السلاح الكافى الذى يخيف العدو ويعين على قتاله وجهاده وأخذ الحق منه وعدم إعداد الأبدان للجهاد وعدم صرف الأموال فيما ينبغى لإعداد العدة للعدو والتحرز من شره والدفاع عن الدين والوطن.

ونشأ عن ذلك المرض الحرص على تحصيل الدنيا بكل وسيلة وعلى جمعها بكل سبب وأصبح كل إنسان لا يهمه إلا نفسه وما يتعلق ببلاده وإن ذهب فى ذلك دينه أو أكثره.

هذا هو حال الأكثرية وهذا هو الغالب على الدول المنتسبة للإسلام اليوم بل يصح أن نقول إن هذا هو الواقع إلا ما شاء الله جل وعلا من بعض الإعداد وبعض التحرز على وجه ليس بالأكمل وليس بالمطلوب من كل الوجوه.

ويدل على أن أعظم الأسباب هو الجهل بالله وبدينه وبالحقائق التى يجب التمسك والأخذ بها ـ هو قول النبى ﷺ فى الحديث

الصحيح: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خيراً يُفَقِّهه فى الدِّين» رواه الشيخان البخارى ومسلم فى الصحيحين. مع آيات فى المعنى وأحاديث كلها تدل على خبث الجهل وخبث عواقبه ونهايته وما يترتب عليه بل القرآن الكريم مملوء بالتنديد بالجهل وأهله والتحذير منه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] وقال سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعقلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على ذم الجهل بالله والجهل بدينه والجهل بالعدو وبما يجب إعداده من الأهبة والاتحاد والتعاون وعن الجهل نشأت هذه الأشياء التى سبقت من فرقة واختلاف وإقبال على الشهوات وإضاعة لما أوجب الله عدم إيثار الآخرة وعدم الانتساب إليها بصدق بل لا يهم الأكثرية إلا هذه العاجلة كما جاء فى الآية الكريمة من كتاب الله ﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] وكما فى قوله جل وعلا ﴿فَأَما مَن طَغَى وَءَاثَرَ الحياة الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمأوَى...﴾ الخ [النازعات: ٣٧، ٣٨، ٣٩] .

وعن الجهل: أيضاً نشأت هذه الكوارث وهذه العواقب الرديئة التى هى حب الدنيا وكراهية الموت والإقبال على الشهوات وإضاعة الواجبات والصلوات وإضاعة الإعداد للعدو من كل الوجوه إلا ما شاء الله من ذلك. ومن ذلك التفرق والاختلاف وعدم الاتحاد والتعاون إلى غير ذلك.

فقوله ﷺ: «مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهه فى الدِّين» يدلُّ على أن من علامات الخير والسعادة للفرد والشعب والدولة أن يتفقهوا فى الدين، فإن الإقبال على التفقه فى الدين والتعلم والتبصر بما يجب عليهم فى

العاجل والآجل من أوجب الواجبات، وفى ذلك علامة على أن الله أراد بهم خيراً.

ومن ذلك ـ مع إعداد لـلعدو ـ تأدية فرائض الله والانتـهاء عن محارم الله والوقوف عند حدود الله.

● **ومن ذلك أيضاً**: أن يوجد فى بلاد المسلمين من الصناعة والإعداد والقوة مـا يستطيـع كل فرد بكل وسـيلة، حتـى لا تكون حاجاتـه عند عدوه، وحتى يعلم عدوه ما لديه من الإعـداد والاستعداد فيرهبه وينصفه ويعـطيه حقـوقه ويقـف عند حـده وحتى يحـصل إعداد الأبـدان وعدم الرفاهية التى تضعف القوى والقلوب عن مقاتلة العدو وحتى تقوى على الجهاد.

● **والتَّفقه فى الدين**: أيضاً يعطى المعلومات الكافية عن الآخرة وعن الجنة ونـعيمهـا وقصورها ومـافيها من خـير عظيـم وعن النار وعـذابها وأنكالهـا وأنواع ما فيها مـن العذاب فيكسـب القلوب نشاطـا فى طلب الآخرة وزهداً فى الدنـيا وإعدادا للأعداء وحرصاً على الجهـاد فى سبيل الله والاستشهاد فى سبيله سبحانه وتعالى.

● **كما أن التَّفقه فى الدِّين**: يعطى الشعب والوالى النشاط الكامل فى كل ما يـحبه الله ويرضاه وفى البعـد عن كل ما يغضب الله سـبحانه وتعالـى ويعطى الـقلوب الرغـبة الكاملـة فى الاتحاد مع بـقية المسـلمين والتعاون مـعهم ضد العدو وفى إقامـة أمر الله وتحكيم شريعـته والوقوف عند حدوده، ويحصل بذلك أيضا التعاون على كل ما يجب لله ولعباده،

فإن العلم النافع يدعو إلى العمل والتكاتف والتناصح والتعاون على الخير، ويعطيهم أيضاً الحرص الكامل على أداء الفرائض والبعد عن المحارم والشوق إلى الآخرة وعدم كراهية الموت فى سبيل الحق وفى الجهاد فى سبيل الله وفى قتال العدو وأخذ الحقوق منه.

وبالعلم تكون النفوس والأموال رخيصة فى جلب رضا الله وفى سبيل إعلاء كلمة الله وفى سبيل انقاذ المسلمين من سيطرة عدوهم وتخليصهم مما أصابهم من أنواع البلاء وفى سبيل استنقاذ المستضعفين من أيدى أعدائهم وفى سبيل حفظ كيان المسلمين وحوزتهم وأن لا تنتقص بلادهم وحقوقهم. فإذا كان الجهل فقدت هذه الأشياء وهذه الحقوق وهذه الخيرات وهذه المعلومات وهذا الإيثار وهذا الإرخاص للنفوس والأموال فى سبيل الحق، وقد قال الشاعر:

مَا يَبْلُغُ الأعداء من جَاهِلٍ مَا يَبْلُغ الجَاهِلُ من نفسه

فالجهل داء عضال يميت القلوب والشعور ويضعف الأبدان والقوى ويجعل أهله أشبه بالأنعام لا يهمهم إلا شهوات الفروج والبطون ومازاد على ذلك فهو تابع لذلك من شهوات المساكن والملابس. فالجاهل قد ضعف قلبه وضعف شعوره وقلت بصيرته، فليس وراء شهوته الحاضرة وحاجته العاجلة شيء يطمح إليه ويريد أن ينظر إليه.

وقد جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره بإسناد حسن عن ثوبان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يوشك أن تَدَاعَى عَلَيْكُم الأمم كما تَدَاعى الأَكَلَة عَلَى قَصْعَتِها» قيل: يا سول الله: أمن قلَّةٍ بنا؟ قال: «لا، ولكنكم غثاء

كغثاء السَّيل، تُنزع المهابة من قُلوب عدوكم منكم ويوضع فى قلوبكم الوَهَن» قالوا: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدّنيا وكراهة الموت».

وهذا الوهن الذى ورد فى الحديث إنما نشأ عن الجهل الذى صاروا به غثاء كغثاء السيل، ما عندهم بصيرة بما يجب عليهم بسبب هذا الجهل الذى صاروا به بهذه المثابة.

فقد سيطر الوَهَن عليهم واستقر فى قلوبهم ولا يستطيعون الحراك إلى المقامات العالية والجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته؛ لأن حبهم للدنيا وشهواتها من مآكل ومشارب وملابس ومساكن وغير ذلك أقعدهم عن طلب المعالى وعن الجهاد فى سبيل الله فيخشون أن تفوتهم هذه الأشياء.

وكذلك أوجب لهم البخل حتى لا تصرف الأموال إلا فى هذه الشهوات، وأفقدهم هذا الجهل القيادة الصالحة المؤثرة العظيمة التى لا يهمها إلا إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الله وسيادة المسلمين وحفظ كيانهم من عدوهم وإعداد العدة بكل طريق وبكل وسيلة لحفظ دين المسلمين وصيانته وإعلائه وحفظ بلاد المسلمين ونفوسهم وذرياتهم عن عدوهم.

فالجهل أضراره عظيمة وعواقبه وخيمة ومن ذلك ما بينه النبى ﷺ من ذل المسلمين أمام عدوهم ووصفهم بأنهم غثاء كغثاء السيل وأن أسباب ذلك نزع المهابة من قلوب أعدائهم منهم؛ أى أن أعداءهم لا يهابونهم ولا يقدرونهم لما عرفوا من جهلهم وتكالبهم على الدنيا والركون إليها.

فالعدو إنما يعظم القوة والنشاط والهمة العالية والتضحية العظيمة فى سبيل مبدئه. فإذا رأى العدو أن هذا الخصم المقابل له ليس له هذه الهمة وإنما هو يهتم لشهواته وحظه العاجل أعطاه من ذلك حتى يوهن قوته أمامه ويصرفه عن التفكير فى قتاله لانشغاله بحب الدنيا والانكباب على الشهوات.

فالوهَن أصاب القلوب إلا ما شاء الله واستحكم عليها إلا من رحم ربك وما أقلهم، فهم فى الغالب قد ضعفوا أمام عدوهم ونزعت المهابة من قلوب أعدائهم منهم وصار أعداؤهم لا يهتمون بهم ولا يبالون بهم ولا ينصفونهم لأنهم عرفوا حالهم وعرفوا أنهم لا قوة ولا غيرة عندهم ولا صبر لهم على القتال ولا قوة أيضا تعينهم على القتال ولم يعدوا لهذا المقام عدته، فلذلك احتقرهم العدو ولم يبال بشأنهم وعاملهم معاملة السيد للمسود والرئيس للمرؤوس وهم سادرون فى حب الدنيا والبعد عن أسباب الموت إلا من رحم ربك وحريصون على تحصيل الشهوات المطلوبة بكل وسيلة، حذرون من الموت حريصون على العلاج والدواء عن كل صغيرة وكبيرة من الأدواء خوف الموت، وحريصون أيضاً ألا يتعاطوا أمرا يسبب الموت والانقطاع عن هذه الشهوات.

ومن أراد الآخرة وأراد إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الله لا تكون حاله هكذا، وفيما جرى لسلفنا الصالح فى عهد نبينا عليه الصلاة والسلام وعهد صحابته المرضيين ومن سار على طريقهم بعد ذلك فيما فعلوا من الجهاد وفيما أعدوا من العدة وفيما صبروا عليه من التعب والأذى قدوة لنا وذكرى لنا لإعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله وإنقاذ

بلادنا وقومنا من أيدى أعدائنا صبراً وتحملاً وجهاداً وإيثاراً للآخرة وبذلاً للمال والنفس للجهاد فى سبيل الله عز وجل وتدرباً على الجهاد والقتال وحرصاً على الخشونة والصبر والتحمل وذكراً للآخرة دائما وعناية بكل ما يعين على جهاد الأعداء وصبراً على ذلك وتعاونا وجمعاً للكلمة واتحاداً للصف حتى يحصل المراد من إعلاء كلمة الله وإنقاذ المسلمين من كيد عدوهم.

وإذا علمنا الداء وهو بين وواضح وهو كما علمنا غلبة الجهل وعدم التعلم والتفقه فى الدين والإعراض عن العلم الشرعى ورضاً بالعلوم الدنيوية التى تؤهل للوظائف فقط غير العلوم التى توجب الاستغناء عن الأعداء والقيام بأمر الله والبعد عن مساخطه سبحانه، وإنما هى علوم قاصرة ضعيفة قصاراها أن تؤهل لعمل عاجل دنيوى فى بلاد الفرد ودولته.

إذا علم ذلك فإن الواجب علاجه بالعلم الشرعي، إذ قَلّ من يعنى بالعلم النافع الذى جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام وقل من يعنى بالإعداد للأعداء حتى يتمكن ذلك الشعب وتلك الدولة من إيجاد ما يغنى عن الأعداء.

فالداء واضح وبين وهو مكون من عدة أدواء نشأت عن الجهل والإعراض والغفلة حتى صار الموت مرهوبا والدنيا مؤثرة ومرغوب فيها وحتى صار الجهاد شبحاً مخيفاً لا يقبله إلا القليل من الناس وصار الهدف ليس لإعلاء كلمة الله بل إما لقومية وإما لوطنية وإما لأشياء أخرى غير إعلاء كلمة الله وإظهار دينه والقضاء على ما خالف ذلك.

فالإعداد ضعيف أو معدوم والأهداف منحرفة إلا ما شاء الله. فطريق النجاح وطريق التقدم ضد الأعداء وعدم الضعف أمامهم وطريق الفلاح والنجاح والحصول على المقامات العالية والمطالب الرفيعة والنصر على الأعداء ـ طريق كل ذلك هو فى الإقبال على العلم النافع والتفقه فى الدين وإيثار مرضاة الله على مساخطه والعناية بما أوجب الله وترك ما حرم الله والتوبة إلى الله مما وقع من سالف الذنوب ومن التقصير توبة صادقة والتعاون الكامل بين الدولة والشعب على ما يجب من طاعة الله ورسوله والكف عن محارم الله عز وجل وعلى ما يجب أيضاً من إعداد العدة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة﴾[الأنفال: ٦٠]إلخ.

فلابد من إعداد العدة البدنية والمادية وسائر أنواع العدة من جميع الوجوه حتى نستغنى بما أعطانا الله سبحانه عما عند أعدائنا فإن قتال أعدائنا بما فى أيديهم من الصعب جداً الحصول عليه، فإذا منع العدو عنك السلاح فبأى شيء تقاتل؟ مع ضعف البصيرة وقلة العلم. فلابد من إعداد المستطاع، ويكفى المستطاع مادام المسلمون قاصدين الاستغناء عن عدوهم وجهاد عدوهم واستنقاذ بلادهم قاصدين إقامة أمر الله فى بلاد الله قاصدين الآخرة ما استطاعوا لكل ذلك.

فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة﴾ [الأنفال: ٦٠] الخ، ولم يقل وأعدوا لهم مثل قوتهم؛ لأن هذا قد لا يستطاع.

فإذا صدق المسلمون وتكاتفوا وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من العدة ونصروا دين الله فالله يعينهم وينصرهم سبحانه وتعالى ويجعلهم أمام

العدو وفوق العدو لا تحت العدو، يقول الله وهو الصادق في قوله ووعده: ﴿ يَأيها الذين ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا الله يَنصركُمْ ويُثَبت أَقْدامكُم﴾ [محمد: ٧] والله ليس بعاجز ولا في حاجة إلى الناس ولكنه يبتلي عباده الأخيار بالأشرار ليعلم صدق الصادقين وكذب الكاذبين وليعلم المجاهد من غيره وليعلم الراغب في النجاة من غيره، وإلا فهو القادر على نصر أوليائه وإهلاك أعدائه من دون حرب ومن دون حاجة إلى جهاد وعدة وغير ذلك.

كما قال سبحانه ﴿ذَلكَ وَلَو يَشَاءُ الله لانتصر مِنْهُمْ وَلكن ليبلُوا بَعْضكُم ببَعْض﴾ [محمد: ٤] وقال سبحانه في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ الله إلا بُشْرَى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم﴾ [الأنفال: ١٠] يعني إمدادهم بالمدد من الملائكة.

وقال سبحانه ﴿وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عند الله العزيز الحكيم﴾ [الأنفال: ١٠]، وفي آية آل عمران كذلك قال تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بُشْرى لكم ولِتَطْمَئِنّ قُلُوبُكُم بِه وَمَا النَّصْرُ إلا مِن عِند الله الْعَزِيزِ الْحكيم﴾ [آل عمران: ١٢٦] فالنصر من عنده جل وعلا، ولكنه سبحانه جعل المدد بالملائكة، وما يعطى من السلاح والمال وكثرة الجند كل ذلك من أسباب النصر والتبشير والطمأنينة، وليس النصر معلقا بذلك، قال سبحانه ﴿ كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرة بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابرين﴾ [البقرة ٢٤٩] وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، والسلاح قليل والمركوب قليل والمشهور أن الإبل كانت سبعين وكانوا يتعاقبونها وكان السلاح قليلاً وليس معهم من الخيل في المشهور سوى فرسين، وكان جيش الكفار حوالي الألف، وعندهم القوة العظيمة

والسلاح الكثير، ولما أراد الله هزيمتهم هزمهم ولم تنفعهم قوتهم ولا جنودهم، وهزم الله الألف وما عندهم من القوة العظيمة بالثلاثمائة وبضعة عشر وما عندهم من القوة الضعيفة، ولكن بتيسير الله ونصره وتأييده غلبوا ونصروا وأسروا من الكفار سبعين وقتلوا سبعين وهزم الباقون لا يلوى أحد على أحد وكل ذلك من آيات الله ونصره.

وفى يوم الأحزاب غزا الكفار المدينة بعشرة آلاف مقاتل من أصناف العرب من قريش وغيرهم وحاصروا المدينة واتخذ النبى ﷺ الخندق، وذلك من أسباب النصر الحسي، ومكثوا مدة وهم يحاصرون المدينة، ثم أزالهم الله بغير قتال، فأنزل فى قلوبهم الرعب وسلط عليهم الرياح وجنوداً من عنده حتى لم يقر لهم قرار وانصرفوا خائبين إلى بلادهم، وكل هذا من نصره وتأييده سبحانه وتعالى، ثم خذلوا فلم يغزوا النبى ﷺ بالمدينة، بل غزاهم هو يوم الحديبية وجرى الصلح المعروف، ثم غزاهم فى السنة الثامنة فى رمضان وفتح الله عليه مكة، ثم دخل الناس أفواجا فى دين الله بعد ذلك.

فالمقصود: أن النّصر بيد الله سبحانه وتعالى، وهو الناصر لعباده، ولكنه سبحانه أمر بالأسباب، وأعظم الأسباب طاعة الله ورسوله ﷺ، ومن طاعة الله ورسوله التعلم والتفقه فى الدين حتى تعرف حكم الله وشريعته لنفسك وفى نفسك وفى غيرك وفى جهاد عدوك وحتى تعد العدة لعدوك وحتى تكف عن محارم الله وحتى تؤدى فرائض الله وحتى تقف عند حدود الله وحتى تتعاون مع إخوانك المسلمين وحتى تقدم الغالى والنفيس من نفسك ومالك فى سبيل الله عز وجل وفى سبيل نصر

دين الله وإعلاء كلمته لا فى سبيل الوطن الفلانى ولا القومية الفلانية.

فهذا هو الطريق وهذا هو السبيل للنصر على الأعداء بالتعليم الشرعى والتفقه فى دين الله من الولاة والرعايا والكبير والصغير، ثم العمل بمقتضى ذلك وترك ما نحن عليه مما حرم الله، قال تعالى: ﴿إن الله لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغَيّروا ما بِأَنفُسِهِم﴾ [الرعد: ١١] فمن أراد من الله النصر والتأييد وإعلاء الكلمة فعليه بتغيير ما هو عليه من المعاصى والسيئات المخالفة لأمر الله، وربك يقول جل وعلا ﴿وَعَدَ الله الذين ءامنوا منكم وَعَمِلُوا الصالحات لَيَسْتَخْلفنهُمْ فى الأَرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ من قَبْلِهِمْ وَلَيُمكنن لَهُمْ دِينَهُمُ الذى ارتضَى لَهُمْ وَلَيُبَدلَنهُم من بَعد خَوْفِهِمْ أَمنا يَعْبُدُونَنى لايشْرِكُونَ بِى شَيَئا﴾ [النور: ٥٥] ما قال الله: وعد الله الذين ينتسبون إلى قريش أو العرب أو الذين يبنون القصور ويستخرجون البترول.. إلخ، بل علق الحكم بالإيمان الصادق والعمل الصالح سواء كانوا عربا أو عجما.

هذه هى أسباب النصر والاستخلاف فى الأرض لا العروبة ولا غير العروبة ولكنه إيمان صادق بالله ورسوله وعمل صالح.

هذا هو السبب وهذا هو الشرط وهذا هو المحور الذى عليه المدار، فمن استقام عليه فله التمكين والاستخلاف فى الأرض والنصر على الأعداء، ومن تخلف عن ذلك لم يضمن له النصر ولا السلامة ولا العز، بل قد ينصر كافر على كافر، وقد ينصر مجرم على مجرم وقد يعان منافق على منافق ولكن النصر المضمون الذى وعد الله به عباده المؤمنين لهم على عدوهم إنما يحصل بالشروط التى بينها سبحانه وبالصفات التى أوضحها جل وعلا وهو الإيمان الصادق والعمل

الصالح. ومن ذلك نصر دين الله قال تعالى: ﴿ولَيَنصُرن الله مَن يَنصُرُهُ إنَّ الله لَقَوى عَزِيز الـذينَ إن مكَّنَّاهم فـى الأَرض أَقَامُوا الصَّلاة وءَاتَوُا الزكـاة وأَمروا بالمَعروفِ ونَهَوا عَنِ المنكر﴾ [الحج: ٤٠، ٤١] هذا هو نصر ديـن الله فمن أمر بالمعروف ونـهى عن المنكر فـقد نصر دين الله؛ لأن من ضـمن ذلك أداء فرائض الله وترك محارم الله.

وقال تعالى: ﴿كُنتـمْ خَيْر أُمةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تَأمُرُونَ بـالمَعْرُوفِ وتَنْهَون عنِ المنكر وتُؤْمنونَ بالله﴾[آل عمران: ١١٠] وقال سبحانه ﴿ولْتَكُن منكُمْ أمـة يَدْعُونَ إلى الْخَيـر ويَأمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ ويَنـهونَ عَنِ المـنكـر وأولَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فأهل الـفلاح والنصر والعـاقبة الحميدة هـم الذين عملوا الـصالحات وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ونصروا الله عز وجـل. وهم المـذكورون فـى قولـه تعـالى: ﴿وكَانَ حَقـا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمِنينَ﴾ [الروم ٤٧] فالدواء واضح والعلاج بين، لكن أين من يريد الدواء وأين مـن يريد الـعلاج وأين مـن يسـتعمـله؟! هذا واجـب ولاة الأمور والعلمـاء والأعيان فى كل مكان وفـى جميع الدول الإسلامـية إذا كانوا صادقـين فى الدعـوة إلى الإسـلام؛ وذلك بإقـام الصلاة وإيـتاء الـزكاة والحفاظ على ذلك والأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر والتفقه فى الدين وإصلاح المـناهج فـى المدارس فى جـميع المـراحل والتـعاون أيضـا فى التكاتف ضد الأعداء والاتحاد مع الإخـلاص لله فى العمل والصدق فيه ونية الآخرة. وبذلـك يستحقون النصر مـن الله والتأييد منه سبـحانه كما كان الأمر كـذلك عند سـلفنا الصـالح مما لا يخفـى على أهل الـعلم.

وبالأمس القريب الإمـام المجدد لمعالم الإسلام فى القرن الثـانى عشر لما رأى ما رأى من الجهل العظيم وتعطيـل أحكام الشريعة وكثرة الجهل فى الجزيرة وغيرهـا وقلة الدعاة إلى الله عز وجل وانقسـام أهل هذه الجزيرة إلى دويلات صغيرة على غير هـدى وعلى غير علم رأى أن من الواجب عليه أن يقوم بالـدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وأن ينبـههم إلى ما وقعوا فيه من الخطر وأن يسعى على جمع كلمتهم على الحق وعلى رئيس واحد يقيم فـيهم أمر الله ويجاهدون فـى سبيل الله، فجد رحـمه الله فى ذلك ودعا إلى الله واتصـل بالأمراء وكتب الرسائـل فى أمر التوحيـد وتحكيم شريعة الله وتـرك الشرك به، ولم يزل صابرا عـلى ذلك محتسبـا بعد ما درس وتفقه فى الديـن على مشائخ البلاد وغيرهـم، ثم جد فى الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيـله وجمع الكلمة فى حريملاء أولا ثم فـى العيينة ثم انتقل بعد أمور وشئون إلى الدرعية وبايعه محمد بن سعود رحمه الله علـى الجهاد فى سـبيل الله وإقـامة أمر الله، فـصدقوا جمـيعا فـى ذلك وتكاتـفوا فى ذلك وجـاهدوا على ضـعفهم حـتى نصرهـم الله وأيدهم وأعلنوا التوحيد ودعوا الناس إلـى الحق والهدى وحكموا شريعة الله فى عبـاد الله وبسبـب الصدق والاسـتعانة بـالله وحسن المـقصد أيـدهم الله وأعانهم، وأخبارهم لا تخفى على كثير ممن له أدنى بصيرة.

ثم جاء بـعد ما جرى مـن الفتور والانـقسام جاء المـلك عبد الـعزيز رحمه الله وجد فى هذا الأمر وحرص فيه واستعان بالله سبحانه ثم بأهل العلم والإيمان والبصيرة وأعانه الله وأيده وجـمع له الله كلمة المسلمين فى هذه الجزيرة على كـلمة واحدة وعلى تحكيم شريعـة الله وعلى الجهاد فى

سبيـل الله حتى استـقام أمره وتوحـدت هذه الجزيرة [مـن شمالهـا إلى جنوبـها وشرقها وغربـها] على الحق والـهدى بأسباب الصـدق والجهاد وإعلاء كلمة الله تعالى، فالمقصود أن الأمثلة كثيرة في ذلك.

وهكذا صلاح الـدين الأيوبى قصته مـعروفة ومحمود زنـكى كذلك. فالمقصود أن سلفنا الصالح الأوائل لما صدقوا فى جهادهم فى وقت نبيهم وبعده أعزهم الله وأعلى شأنهم واستولوا على المملكتين العظمتين ـ مملكة الأكاسرة ومملكة الروم فى الشام وما حـولها ـ ثم من بعدهم ممن صدق فى دين الله نصرهم الله لما عندهم من الـصدق والتكاتف فى إعلاء كلمة الله. ثم فـى أوقات مـتعـددة متـغايـرة يأتـى أناس لـهم مـن الصـدق والإخلاص مالهم فيـؤيدون وينصرون على عدوهم علـى قدر إخلاصهم واجتهادهم وبذلهم.

والذى نصر الأولين ونصر الآخرين سبـحانه وتعالى هو الله عز وجل وهو ناصر من نـصره وخاذل من خذله كما قـال الله تعالى: ﴿أَلَيس الله بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال سبحانه ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال عز وجل: ﴿كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرة بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصَّابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ولكن المصيبة فى أنفسنا كما قال عز وجل ﴿ وَمَا أصابكم مِن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيـر﴾ [الشورى: ٣٠] فالمصيبـة جاءت من ضعف المسلمـين وتكاسلهم وجهـلهم وإيثارهم العـاجلة وحبهم الدنـيا وكراهة الموت وتخلفهم عما أوجـب الله وترك الصَّلوات واتِّباع الشَّهوات وإيثار العـاجلة والعـكوف على المَحـارم والأغانى الخلـيعة والفـساد للقـلوب

والأخلاق . . الخ.

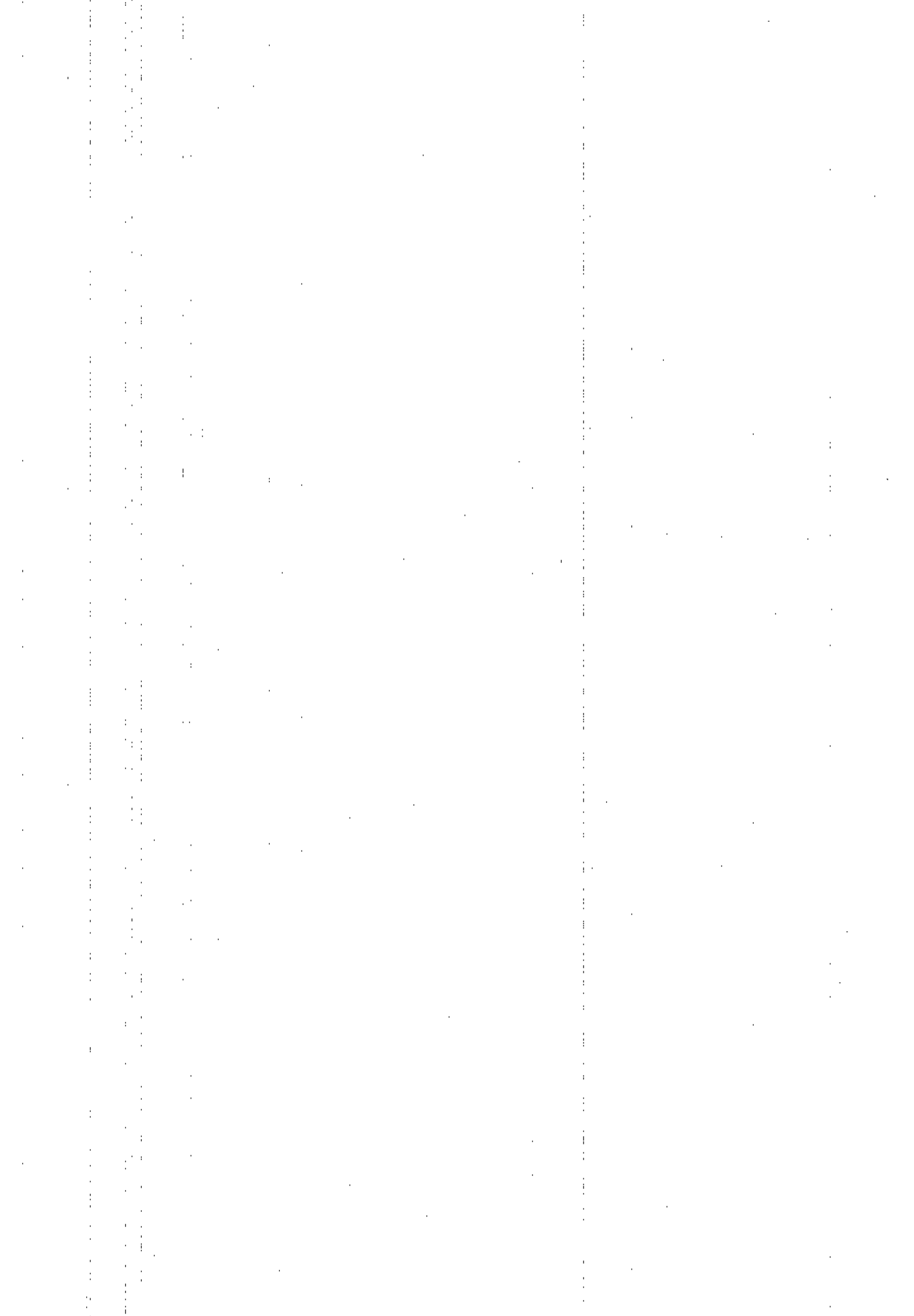
فمن هذا وأشباهه سلط الله على المسلمين عدوهم.

كما قال جل وعلا ﴿وإِذَا أَرَدْنا أن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمرنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيها فَحَق عَلَيها الْقَولُ فَدَمرناها تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦].

* * *

نسأل الله عز وجل أن يمن علينا وعلى جميع المسلمين وولاة أمرهم بالتوبة إليه والاستقامة على أمره والتعاون على البر والتقوى وعلى إعداد العدة لأعدائنا والتفقه فى الدين والصبر على مراضيه والبعد عن مساخطه سبحانه، كما نسأله سبحانه أن يعيذنا جميعا من مضلات الفتن ومن أسباب النقم وأن ينصر دينه ويعلى كلمته ويخذل أعداءه وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق والهدى وأن يصلح ولاة أمرهم وأن يرزقهم البصيرة إنه سميع قريب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁



المحاضرة الثالثة عشرة:

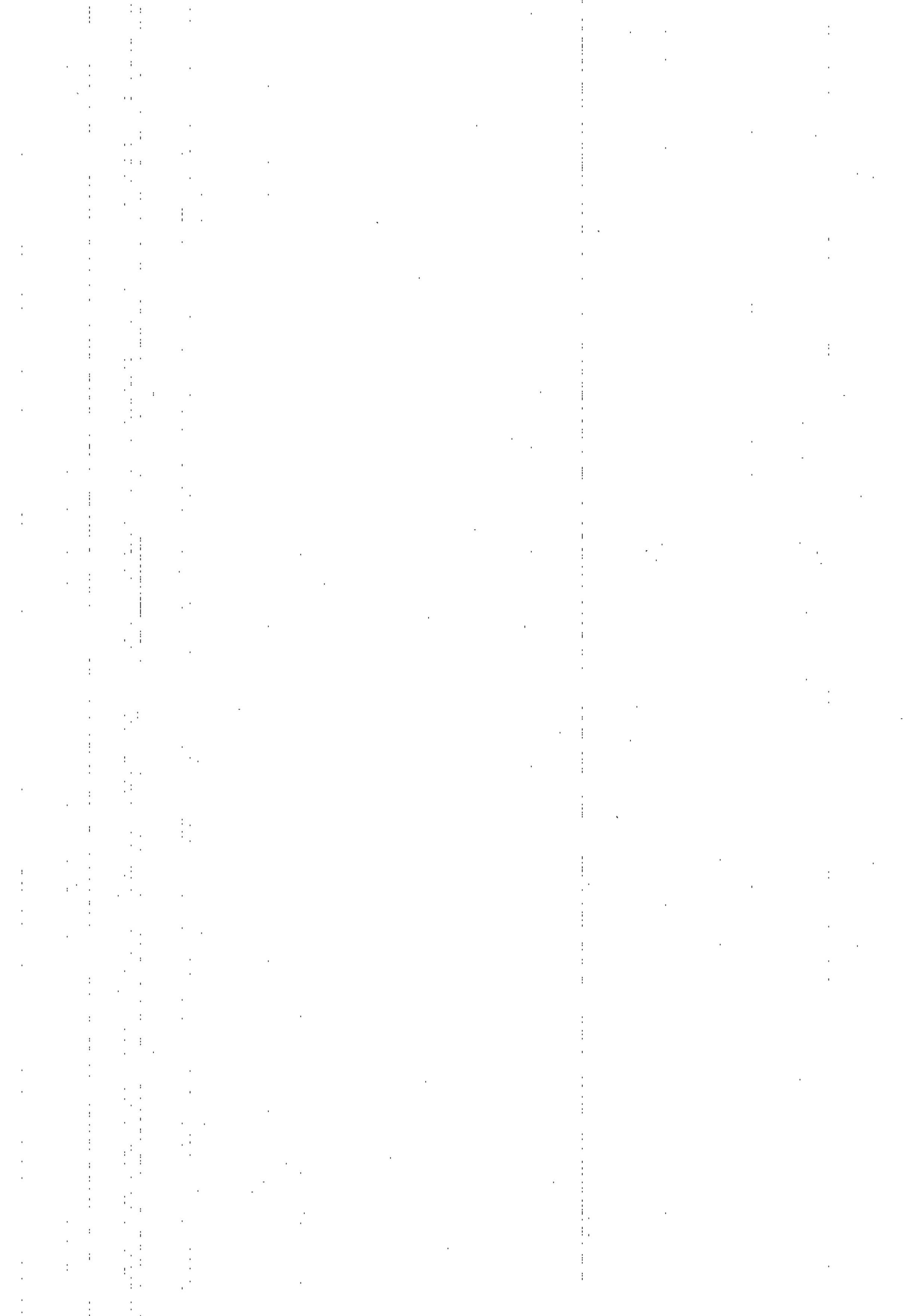
مسائل مهمة

قد يخفى حكمها على كثير من الناس

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت في جمعية فتاة ثقيف بالطائف في ١٨/١١/١٤٠٤هـ



بيـــان جملة من المسائل المهمة التي يخفى حكمها على الكثير من الناس (*)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد: فهذه كلمة موجزة في بيان بعض المسائل التي قد تخفى على كثير من الناس.

* * *

فأقول: من المعلوم أن الله جل وعلا خلق الثقلين الجن والإنس لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانها والدعوة إليها، وليس ذلك خاصاً بالذكور دون الإناث ولا بالإناث دون الذكور، بل الدعوة للجميع. أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان حقه على عباده من الذكور والإناث من الجن والإنس. وهكذا خلقهم لهذا الأمر، خلقهم جميعاً ذكورهم وإناثهم جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم أغنياءهم وفقراءهم حكامهم ومحكوميهم خلقوا جميعاً ليعبدوا الله وليعملوا بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، هذا أمر مشترك بين الذكور والإناث والحكام والمحكومين والرؤساء والمرؤوسين والجن والانس والعرب والعجم والأغنياء والفقراء والبادية والحاضرة، فجميع الشعوب وجميع جنس الجن والإنس، كلهم مأمورون بطاعة الله ورسوله، وكلهم ما خلقوا إلا ليعبدوا الله ويعظموه ويطيعوه.

○ وهذه مسألة عظيمة هي أعظم المَسَائل وَأهمّها وهي أن نعلم يقيناً أن الله خلقنا جميعاً لنعبده وحده، ونطيع أمره ونهيه، ونقف عند

(*) نشرت ضمن «مجموع فتاوى ومقالات ابن باز» (٥/٢٠٧: ٢٢٣).

حدوده، ونحذر ما نهى عنه عز وجل ونهى عنه رسوله ﷺ، كلنا خلقنا لهذا الأمر، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إلا ليعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ويقول سبحانه: ﴿يأَيها النَّاسُ اعبُدُوا ربَكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ويقول سبحانه: ﴿يأَيها النَّاس اتَّقُوا ربَّكُمُ﴾ [النساء:١] وهكذا يعم الذكور والإناث ويعم الحاكم والمحكوم ويعم الجن والإنس، ويعم العرب والعجم ويعم الأغنياء والفقراء، كلهم مأمورون بهذا الأمر.

يقول سبحانه: ﴿يأَيها النَّاس اتَّقُوا ربَكُم وَاخْشَوْا يَوْما لا يَجزِى وَالد عَن ولَدهِ ولا مَولُود هُوَ جَازٍ عَن وَالدِهِ شَيْئاً إن وَعْد الله حَق فَلا تَغُرَنَّكُمُ الحياة الدّنْيَا ولا يغرنكم بالله الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] ويقول سبحانه: ﴿ يَأَيها النّاس اعْبُدُوا ربَكُم الذى خلَقَكُمْ وَالذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلكُمْ تتقونَ﴾ [البقرة: ٢١] ويقول عز وجل: ﴿يأَيها النَّاس اتَّقُوا ربَّكُم الذى خلَقَكُم مِن نَفْس وَاحدةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثيرا وَنساءً وَاتَّقُوا الله الذى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَام إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] ويقول عز من قائل: ﴿يأَيهَا النَّاسُ اتقوا ربَّكُم إِنَّ زَلْزَلَة السّاعة شيء عَظيم﴾ [الحج: ١] ويقول سبحانه: ﴿يأَيها النَّاس إِنَّا خلقناكم مِن ذكر وأُنثى وجعلناكم شُعُوباً وَقبَائل لِتَعَارفُوا إِنَّ أَكْرمكُم عِند الله أتقاكم إِنَّ الله عَليم خَبِير﴾ [الحجرات: ١٣]

فى أمثال هذه الآيات التى عم فيها سبحانه جميع الناس بالأوامر، ليعلموا جميعا أنهم مأمورون بأن يعبدوا الله الذى خلقهم ويتقوه، وذلك بفعل الأوامر وترك النواهي، وهذه العبادة هى التقوى وهى الإيمان

والهدى والبر، وهى الإسلام الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، ومعناها أن نعبده وحده ونخصه بطاعاتنا وعباداتنا على الوجه الذى شرعه لنا سبحانه وتعالى لا نعبد معه سواه، ولا جنا ولا إنساً ولا أصناماً ولا كواكب ولا غير ذلك، من المخلوقات بل نعبده وحده.

كما قال سبحانه فى سورة الفاتحة: ﴿إِياكَ نَعْبد وَإِياكَ نستَعينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أُمروا إِلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلصين له الدّين حُنَفَاء﴾ [البينة: ٥] ويقول سبحانه: ﴿يَا أيها النَّاس اعبُدُوا ربَّكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١] ويقول سبحانه: ﴿وَقَضى رَبُّكَ ألا تَعبُدُوا إلا إِياه﴾ [الإسراء: ٢٣] ويقول تبارك وتعالى: ﴿فادعوا الله مُخْلصين لهُ الدينَ ولو كَرِهَ الكافرون﴾ [غافر: ١٤] فى آيات كثيرة كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله وحده دون كل ما سواه.

ويقول النبى ﷺ: «حَقُّ الله على العباد أن يَعْبُدوه ولا يُشْركُوا به شيئاً وحَقُّ العباد عَلَى الله ألا يُعَذب من لا يُشْرك به شيئاً».

ولما سئل عن الإسلام قال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام أن تَشْهَدَ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله وَتقيم الصَّلاة وتُؤْتى الزكاة وتَصُوم رَمَضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

ولما سُئل عن الإيمان: قال: «الإيمان أن تؤمن بالله ومَلائكته وكُتبه ورُسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدر خَيْره وَشره»

ولما سُئل عن الإحسان قال: «الإحسان أن تَعْبُد الله كأنّك تَرَاه، فإن لم تكن

تَرَاه فإنه يرَاك» .

وهذه الأمور مطلوبة من الجميع من الرجال والنساء على السواء عليهم جميعا أن يشهدوا أن لا إله إلا الله صدقاً من قلوبهم، ويعتقدوا أنه لا معبود حق إلا الله وحده لا شريك له، سبحانه وتعالي، فيدعوه وحده، ويصلوا له وحده، ويصوموا له وحده، ويخصوه بالعبادات كلها سبحانه وتعالى.

○ وهكذا «شهادة أن محمداً رسول الله» على الرجل والمرأة أن يشهدا جميعا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هو رسول الله حقاً، أرسله الله إلى الناس عامة من الجن والإنس والعرب والعجم والذكور والإناث والأغنياء والفقراء والرؤساء والمرؤوسين، عليهم جميعاً أن يطيعوا هذا الرسول ﷺ ويصدقوه، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى العربى المكى ثم المدنى عليه الصلاة والسلام، بعثه الله من أشرف قبيلة ومن أشرف بلاد، وهى مكة المكرمة، وبأشرف دين، وهو الإسلام فعلى جميع الثقلين أن يؤمنوا به وينقادوا له عليه الصلاة والسلام، ويؤمنوا بأنه خاتم الأنبياء لا نبى بعده.

قال تعالى فى كتابه العظيم: ﴿قُل يَأيـها النّاس إِنى رَسُولُ الله إِلَيكم جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا أرسلناك إلا كَافَّة للنَّاس بَشيراً وَنَذيراً﴾ [سبأ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أرسلناك إلا رَحْمَةَ للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] عليه الصلاة والسلام، فهو رحمة لجميع العالمين ورسول لجميع

العالمين من الجن والإنس، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه وينقادوا لأوامره ونواهيه، ويعملوا بشرعه عليه الصلاة والسلام ويشهدوا أنه خاتم النبيين.

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

○ وهكذا على الجميع أن يقيموا الصلوات الخمس الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر فى أوقاتها، ورجالا ونساءاً عرباً وعجماً جناً وإنساً.

○ وعليهم أن يؤدوا الزكاة المفروضة فى الأموال.

وأن يصوموا رمضان فى كل سنة.

وأن يحجوا البيت الحرام مع الإستطاعة مرة فى العمر.

وأن يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر.

ومعناه: الإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء والحساب والجنة والنار.

وعليهم أن يؤمنوا بالقدر خيره وشره، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى قدر الأشياء وعلمها وأحصاها وكتبها فآجالنا وأرزاقنا وأعمالنا كلها مكتوبة قد علمها الله وكتبها وقدرها سبحانه وتعالى، فعلينا أن نعمل بما شرع الله لنا وأن نترك مانهانا عنه، وكل ميسر لما خلق له.

○ وكمال الدِّين أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا هو الإحسان، وهو أن تعبد ربك بصلاتك وغير ذلك كأنك

تشاهده، حتى تنصح فى العمل وحتى تكمل العمل فإن لم تكن تراه ولم تستحضر ذلك فاعلم أنه يراك، أى فاعبده على أنه يراك وأنه يراقبك ويشاهدك ويعلم حالك سبحانه وتعالى. حتى تؤدى حقه عن إخلاص وعن صدق وعن عناية به على الوجه الأكمل.

○ وهذه جملة يجب أن نعلمها جميعاً وأن هذا الدين للجميع للرجال والنساء والجن والإنس والعرب والعجم، عليهم جميعاً أن يلتزموا به وأن يعبدوا الله وحده، وأن يستقيموا على هذه الأركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا مع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُنى الإسلام على خَمس: شَهَادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رَسُول الله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزّكاة وصَوم رَمَضان وحَج البيت».

m ومما يوضح هذا الأمر ويبين أنه حق على الجميع قول الله عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهم أوْلياء بَعْض يأمُرُونَ بالمَعْروف وينهون عَنِ المُنكر ويُقِيمون الصلاة ويَؤْتُون الزكاة ويُطِيعُون الله ورَسُوله أُولئك سَيَرْحَمُهُم الله إنَّ الله عَزيز حكِيم﴾ [التوبة: ٧١] فجعلهم جميعا شركاء المؤمنين والمؤمنات فى الولاية فيما بينهم والتحاب فى الله وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وفى طاعة الله ورسوله فى كل شيء،

وقال عز وجل: ﴿منَ عَمِلَ صالحـاً من ذَكَر أو أُنثى وَهُو مُؤمن فَلَنُحْيِينـة حياة طيبة ولَنَجْزِيَنهـم أجرهم بأحسن ما كانـوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧] فعم سبـحانه الرجال والـنساء جميـعاً ليبين سـبحانه أن الأمر عـام لهم جميـعا وقال سبحانه: ﴿ليس بِأَمَانيكُم وَلا أمَانى أَهْل الكـتاب منَ يَعْمَل سُوءا يجز بِهِ ولا يَجد لهُ مـن دُون الله وَليا ولا نَصـيرا وَمَن يعْمَل مِنَ الـصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنـثى وَهُو مُؤمـن فَأُولئـكَ يَدْخُلُونَ الْجَنّة ولا يُظْلمُون نَقِيـراً﴾ [النـساء: ١٢٣ ـ ١٢٤] فبين سبحانه أن مـن يعمل سوءا يجز به مـن الذكور والإناث، ومن يعمل من الصالحات مـن الذكور والإناث عن إيمان وصـدق وإخلاص فإن مصـيره إلى الجنة والكـرامة والسعادة، وقال تـعالى ﴿إنَّ المسلـمين والمسلمات والمـؤمنين والمؤمـنات والقانـتين والقـانتات والـصَّادقين والصَّادقات والـصَّابرين والـصَّابرات والخاشعين والخاشعـات والمتصدّقين والمتصدقات والصَّائمين والـصَّائمات والحافظين فُروجهم والحافظـات والذَّاكرين الله كثيـراً والذَّاكرات أعدَّ الله لهم مـغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥] فسوى الله سبـحانه وتعالى بـينهم جميـعا رجالا ونساء فينبغـى أن يُعلم هذا عن يقين، وأن يجتهد كل مـؤمن وكل مؤمنة فى أداء الواجب لأنه مسئول.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَربكَ لَنَسْئلَنـهُم أَجْمَعِين عَمَّا كَانُوا يَعملُون﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣] فكل منا مسئول عن حق الله عليه وعن الحقوق الأخرى التى عليه للآباء والأمهـات والأزواج والأولاد والجيران وغير ذلك، فكل منا مسئول عما عليه من الحق لله وللعباد، فعلينا أن نؤدى الواجب ونتفقه

فى الدين، وأن نتعلـم حتى نستفيد ونعلم حكم الله فـى كل شيء وعلينا جميعاً أن نتدبر القرآن الكريم لأن القـرآن أنزل للجميع، للرجال والنساء والجن والانـس، فعلينـا جميعـاً أن نتـدبر القرآن الـكريم وأن نعمـل به ونتخلق بالأخلاق التى يدعو إليها. ونحذر الأخلاق التى ينهى عنها فهو كتاب الله فيه الهدى والنور أنزله الله علينا لنعمل به ونستقيم على مافيه، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم أنزله علينا جل وعلا على يد رسوله ﷺ للـعمل لا لمجرد الـتلاوة، فالتـلاوة وحدها لا تـكفى بل لابـد من العمل.

قال جل وعلا: ﴿ وهَذَا كتاب أنزلناه مُبَارك فاتَّبعوه واتقُوا لَعَلكُم تُرحَمُون﴾ [الأنعام: ١٥٥] فجعل الرحمة فى اتباع هذا القرآن العظيم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اتبعوا مَا أُنزلَ إِلَيـكم مِن رَّبكم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِه أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون﴾ [الأعراف: ٣].

وقال عـز وجل: ﴿كتاب أنـزلناه إليك مبـارك ليدبّروا آياته ولـيَتذكر أُولُوا الألباب﴾ [ص: ٢٩] وقال سبحانه: ﴿ إِنّ هَذَا القُرءان يَهْدى لـلتـى هى أَقْوم﴾ [الإسراء: ٩] وقال سبحانه: ﴿قل هُو للذين ءامنُوا هُدى وَشفَاء﴾[فصلت: ٤٤].

فكتاب الله فيه الهدى والنور وهو صراط الله المـستقيم للرجال والنساء والملوك وغـيرهم والرؤساء والمـرؤسين والأغنياء والـفقراء، فيجـب على الجميع أن يحكموا كتاب الله وأن يتمسكوا به ويتدبروه ويتعقلوه.

قال عز وجـل فى كتابه الـعزيز: ﴿أفـلا يَتَدَبّرون الـقُرءان أمْ عَلَى قُلُوب

أَقْفَالُها﴾ [محمد: ٢٤] وهذا يـدل على أن من الـواجب تدبره والحـذر من الإعراض عنه.

كما يجب علينا جميعا التمسك بسنة الرسول ﷺ وهي: أحاديثه التى قالها أو عمل بها أو أقرها، هذه سنـته ﷺ إما قول وإما فعل وإما تقرير لما شاهده أو سمعه من غيره. فعلى الرجـال والنساء جميعاً اتباع السنة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وأَطيعوا الله والرسُول لَعَلكُمْ تُرحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] وطاعة الرسول هى العمل بالسنة التى صحت عنه ﷺ وقال تعالي: ﴿مَن يُطع الرسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾ [النساء: ٨٠] وقال عز وجل: ﴿وَمَا آتاكـم الرسُول فَخُذُوه وَمَا نـهاكـم عَنْه فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقال عـز وجل: ﴿يَأَيها الذينَ ءامَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطيعوا الرَّسُول وَأولى الأمر منكُم فإن تنازعتم فِي شيء فَرُدوه إلى الله والرَّسُول إن كُنتم تُؤمنُون بالله واليَوم الآخر ذلك خير وأَحْسَنُ تَأوِيلا﴾ [النساء: ٥٩] ومعنى الرد إلى الله هو الـرد إلى القرآن الكريم، أما الرد إلى الرسـول ﷺ فمعناه: الرد إلـيه فى حياته ﷺ وإلـى سنته ﷺ بعد وفاته.

وقال عـز وجل: ﴿فَلْيَحـذر الَّذيـن يُخَالفُون عَنْ أمْره أن تُصِيـبـهُمْ فِتْنَة أَوْ يُصيبهـم عَذَاب أليم﴾ [النـور: ٦٣] فعـلينا جـميعاً رجـالاً ونساءاً وحكـاماً ومحكـومين، ورؤساء ومرؤوسـين وأمناء وسفـراء وعرباً وعجـماً علينـا جميعاً أن تـعظم سنة الرسول ﷺ وأن نستقـيم عليها ونحكمـها ونعمل بها؛ لأنها الأصل الـثانى من أصول الشريعة، ولأنها المـفسرة لكتاب الله

والموضحة لما قد يخفى منه.

قال تعالى يخاطب النبى ﷺ فى سورة النحل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتُبين للنَّاس مَا نُزل إليهم ولَعَلهُم يَتَفكَّرون﴾ [النحل: ٤٤] فأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل الذكر وهو القرآن الكريم على نبيه ﷺ ليبين للناس أحكام دينهم، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فعلينا أن نعظم كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وأن نعمل بهما جميعاً فى كل شيء، ونحذر مخالفتهما.

كما قال تعالى: ﴿قُل أَطيعوا الله وأَطيعوا الرسُول فإن تَوَلوا فَإنما عَلَيه مَا حمل وَعَليكُم مَا حُملْتم وإن تُطيعُوه تَهْتَدُوا ومَا عَلَى الرَّسُول إلا البلاغ الْمُبين﴾ [النور: ٥٤] ومن الأمور المهمة: أن نعلم جميعا أن أوامر الله سبحانه وتعالى وأوامر رسوله ﷺ تعم الرجال والنساء فى جميع الأحكام، إلا ماخصَّه الدليل.

○ وقد دلَّ كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ على أحكام تخص الرجال دون النساء، وعلى أحكام تخص النساء دون الرجال لحكم بالغة من ربنا عز وجل، فعلينا أن نأخذ بها ونسلم لها، مطمئنين مؤمنين راضين بحكم الله عز وجل فإنه أحكم الحاكمين وهو العالم بأحوال عباده لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه سبحانه وتعالى، وهو الأعلم سبحانه وتعالى بما يُصلح عباده، فمن ذلك أن الرجل مسئول عن القوامة على المرأة، فهو المسئول عنها وعليه النفقة على الزوجة وعلى أولاده،

وأن يتولى شئونهما.

كما قال تعالى: ﴿الرّجَال قوَّامـون علَى النسَاء بِمـا فَضل الله بَعضهُم عـلى بَعْض وَبما أنفَقُوا مِنْ أموالهم﴾ الآية [النساء: ٣٤]

فالواجـب على الرجـل أن يقوم على المـرأة وينفق عـليها مـع حسن العشرة وطيـب الكلام والفعال كما قـال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وقال تعالى: ﴿ولَهن مِثْلُ الذى عَلَيـهن بالمعروف وللـرجَال عَلَيهن دَرَجة﴾ الآية [البقرة :٢٢٨] وهذا مما يخـص الرجل ـ أن له القوامـة على المرأة بالإنفاق عليها وأداء حقها وإحسـان عشرتها، والسعى فى مصالحها المتعـلقة بالزوجـية وهى ربة البـيت والقائـمة على الأولاد وبما يـلزم فى البيت، وهو الـقائم عليها وعلـى أولادها بكل ما يلزم من نـفقة وحسن معاشرة.

● **ومن المسائل التى تخص الرجال:** أن الرجل يجب علـيه أن يصلى فى المسجد ويجيـب النداء، كما قال ﷺ : «مَنْ سمع النداء فـلم يأت فلا صَلاة لَهُ إلا مِن عذر».

أما النـساء فلا يجب علـيهن أن يصلين فـى المساجد، بل يصـلين فى بيـوتهـن، وذلك أفضـل لهن؛ لأنــهن عـورة، والخطر فـى خروجـهن معروف، فالمشروع لـهن الصلاة فى بيوتهن، وليس علـيهن أن يحضرن مع الـرجال فى المسـاجد،ولا بأس من حـضورهن المسـاجد مع السـتر والحجـاب، وليـس لأزواجهـن منعـهن مـن ذلك إذا الـتزمـن بالآداب

الشرعية، لكن صلاتهن فى بيوتهن أفضل كما تقدم عملا بالسنة الصحيحة فى ذلك.

● **ومن المسائل أيضاً التى يختص بها الرجال دون النساء:** الجهاد بالنفس، فالرجل عليه أن يجاهد بنفسه وأن يحمل السلاح، والمرأة ليس عليها ذلك. قالت عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله: نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «عَليكن جِهاد لا قتال فيه الحج والعُمرة».

فليس على المرأة جهاد بالنفس والسلاح؛ لأنها تضعف عن ذلك، ولأنها فتنة وعورة، فالجهاد على الرجل لا على المرأة بالنفس، أما بالمال فعلى الجميع، على المرأة والرجل الجهاد بالمال فى أصح قولى العلماء لعموم الأدلة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ [التوبة :٤١] وقال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنُوا هلْ أدُلكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم تُؤمنُون بالله ورَسوله وتجاهدون فى سبيل الله بِأمْوالكم وأنفُسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تَعْلمون﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١] وقال النبى ﷺ «جَاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة وهى تعم الرجال والنساء، فيما عدا الجهاد بالنفس لحديث عائشة السابق.

● **ومن المسائل المختصة بالرجال:** أن الرجل له أن ينكح أربعا من

النساء والمرأة لـيس لها أن تنكح إلا رجلا واحدا، فلا تجـمع بين رجلين لحكم ظاهرة بالغة.

ومن ذلك: أن الرجل قد تَعْظم شَهْوته ولا تعفه المرأة الواحدة.

ولأنه محتاج إلى كـثرة الأولاد والنسل ولأنه قد يكون له شـئون كثيرة يحتاج إلى عدة نساء يساعدنه فيها.

ولأن النساء قد يحـتجن إلى الرجل لعدم وجود أوليـاء لهن، أو لقلة الرجال بسبب الحروب والفتن فأباح الله لـلرجل أن يجمع بين أربع نساء فأقل، وليس للمرأة أن تجمع بـين رجلين لأن فى جمع المرأة بين الرجال اختلاط المياه واختلاط الأنساب وفساد الأحوال.

● **ومن المسـائل التى اختـلف فيهـا حكم الذكر عـن الأنثى:** مسائل المواريث فـى حق الزوج والزوجة والأولاد والأخوة مـن الأبوين والأب فإن الزوجة تعطـى نصف ما يعطاه الزوج والولد الذكر يـعطى ضعف ما تعاطاه الأنثى، وهكذا الأخ من الأبويـن أو الأب يعطى ضعف ما تعطاه الأخت لحكم ظاهرة يعرفها أهل العلم وكل من تأملها من ذوى البصيرة فى أحوال الرجال والنساء. والآيات الدالة على ذلك معلومة.

● **ومن المسائل التـى تخص النساء:** أنه يجـب عليهن ترك الـصيام والصلاة فى حالة الحيض والنفاس، فـالصلاة لا تجب عليهن فى الحيض والنـفاس. لا أداء ولا قضاء، وأمـا الصوم فيـجب علـيهن تركـه حال الحيض والنفاس ثم قضاؤه بعد ذلك.

والحكمة فى ذلك: والله أعلم أن الصلاة تتكرر فى كل يوم وليلة خمس مرات، فمن رحمة الله جل وعلا أن أسقط عنها قضاء الصلاة فى حال الحيض والنفاس لأن قضاءها يكلفها كثيرا فإذا كان حيضها سبعة أيام مثلا يكون عليها خمس وثلاثون صلاة وإذا كان ثمانية أيام يكون عليها أربعون صلاة، ففى قضائها مشقة فمن رحمة الله سبحانه، أن أسقط عنها القضاء والأداء. وهكذا فى النفاس قد تجلس أربعين يوما لا تصلى، فلو قضت الصلوات لكان عليها مائتا صلاة، فمن رحمة الله أن الله أسقط عنها ذلك فليس عليها الصلاة لا قضاء ولا أداء فى حال النفاس، رحمة من الله عز وجل وعليها أن تقضى الصوم الذى فاتها فى رمضان، بسبب النفاس.

● **ومن ذلك أيضا:** أن المرأة تعدل شهادتها نصف الرجل فشهادة المرأتين بشهادة رجل، لأن الرجال فى الغالب أحفظ وأضبط لما يقع، والمرأة دون ذلك فى الجملة، وقد يكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال بكثير، لكن فى الجملة جنس الرجال أضبط وأحفظ وأفضل، وجنس النساء دون ذلك فى الضبط والحفظ والفضل، فجعل الله شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد.

كما قال تعالى: ﴿واستَشهدوا شهيدين مِن رجَالكم فإن لَم يكُونا رَجُلَين فَرَجُل وامرأَتَان ممّن ترضون مِنَ الشهداء أن تَضِل إحْداهُما فَتُذَكر إحْداهُما الأُخرى﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢] فتتعاونان وتتساعدان فى حفظ الشهادة، فإذا

قصـرت هذه أو نسـيت ساعـدتها الأخرى فـى التذكـير حتـى يحفـظن الشهادة.

● **ومن المسائل المستثناة أيضا:** أن المرأة على نصف الـرجل فى الدية فى الثلث فـأكثر، أما فى القصاص فـتقتل المرأة بالرجل والـرجل بالمرأة قصـاصاً، لأنه صح عـن النبى ﷺ أنـه قتل الـرجل بالمرأة، وفـى ذلك حكمة عظيمة منها صيانة الـدماء، وحفظ أفراد المجتمع المسلم أن يتعدى بعضهـم على بعض، ومن ذلك العـقيقة عن المولود الذكـر شاتان وعن الأنثى شـاة واحدة كما صحـت بذلك الأحاديـث عن رسول الله ﷺ، ولله فى ما جـاءت به الأدلة من التـفرقة بين الـذكر والأنثى فى المـسائل المذكورة وغيرها الحكمة البالغة.

● والأصل فى الأحكام العموم والتساوى كما تقدم. فالواجب على الرجال هو الـواجب على النِّساء، والـواجب على النسـاء هو الواجب على الرجال إلا فى ما خصه الدليل كالمسائل المذكورة آنفاً.

● ووصيتى للرِّجال والنِّساء جميعاً تقوى الله سبحانه وتعالى والتفقه فى الدين فى المدارس وغيرها من أماكـن العلم، وسؤال أهل العلم عما أشكل على الرجل والمرأة من أحكام الدين، لقوله الله عز وجل :

﴿ فاسألوا أَهْلَ الـذِّكْرِ إِن كُنتمْ لا تَعْلَمُون﴾ [النحل: ٤٤] وقول النبى ﷺ: «من يُردِ الله به خـيراً يُفقِّهه فى الـدِّين» ومن أهم ذلك العنـاية بتلاوة القرآن الكريم وتدبر معانيه، والعناية بسنة رسول الله ﷺ والتَّفقه فيها والإستفادة

من كتب أهل السنة وكتب تفسير القرآن الكريم، وشروح الأحاديث النبوية التى ألفها أهل العلم المعروفون بالدراية والديانة وحسن العقيدة.

وقد قال ﷺ: «خَيْرُكم من تَعَلَّم القرآن وعَلّمه» خرجه الإمام البخارى فى صحيحه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من سَلَكَ طريقا يلتمس فيه علما سَهَّل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نَزَلَت عليهم السَّكينة وغشيتهم الرَّحمة وحفتهم الملائكة وذَكَرَهُم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يُسْرِع به نَسَبُه» رواه الإمام مسلم فى الصحيح.

ومن المعلوم أن تَعَلم الرِّجال والنِّساء لما شرعه الله سبحانه وتعالى لهم وخلقوا من أجله من أهم الفرائض، وأوجب الواجبات، ولقد يسر الله للجميع طرق التعلم بواسطة إذاعة القرآن الكريم وبرنامج نور على الدرب، ونداء الإسلام من الرابطة، وغير ذلك من الندوات والحلقات العلمية التى تقام فى المساجد، ودور العلم ووسائل الاعلام. فالواجب الاستفادة منها والعناية بها، أينما كان المؤمن والمؤمنة.

ومما يجب التنبيه عليه الحذر من سماع ما يفسد القلوب والأخلاق من الأغانى الماجنة والأشرطة المنحرفة وآلات اللهو والطرب. فإن هذه تفسد القلوب والأخلاق فالواجب الحذر منها والتواصى بتركها.

عملاً بقول الله عز وجل: ﴿والعَصْر إنَّ الإنسان لَفى خُسر إلا الذين ءامنوا

وَعَملُوا الصالحات وتَواصوا بالْحَق وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] وقول النبى ﷺ: «الدِّين النَّصيحة» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعَامَّتهم» خرجه الإمام مسلم فى الصحيح.

● **ومما يجب على المسلمين جميعاً**: الاهتمام به والتَّواصى به الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن ذلك من أعظم الأسباب فى صلاح القلوب والمجتمعات. وظهور الفضائل، واختفاء الرذائل، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما تقدم فى سورة «العصر»، وحديث: «الدِّين النصيحة».

ومنها قول الله سبحانه: ﴿وتَعاونَوا عَلَى البِر والتقوى ولَا تَعَاونوا عَلَى الإِثْم والْعدْوَان﴾ الآية [المائدة: ٢]

وقوله عز وجل: ﴿ وَالمؤمنُون والْمؤمِنات بَعْضهم أولياء بَعْض يَأمرُون بالْمَعروف وينهون عن الْمنكر ويقيمون الصلاة وَيُؤتُون الزكاة ويُطيعُون الله وَرسُوله أُولئك سيرحمهم الله إن الله عَزِيز حكيم﴾ [التوبة: ٧١] وقوله ﷺ: « من دَلَّ على خير فَلَهُ مِثْلُ أجر فاعله».

وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رأى منكم مُنْكرا فليغيره بيده، فإنْ لم يَسْتطع فَبِلسانه، فإن لم يَسْتطع فَبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجهما الإمام مسلم فى الصحيح.

والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

● ولا شك أن الواجب على المدرسين والمدرسات أكثر من الواجب

على غيرهم بالنسبة إلى الطلبة والطالبات، فعلى المدرسين أن يعنوا بالطلبة ويوجهوهم إلى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة والعمل بما علموا من العلم، وعلى المدرسات أن يتقين الله فى البنات، وأن يعلمنهن الأخلاق الدينية الفاضلة والعقيدة الصالحة فى الدراسة وفى المذاكرة والوعظ، حتى يوجد جيل صالح من الطلبة والطالبات والمعلمين والمعلمات فى المستقبل.

فواجب المدرس والمدرسة عظيم والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى واجب عظيم على الجميع. فعلى كل من لديه علم من الرجال أن يعلم أولاده من الذكور والإناث وأهل بيته وغيرهم حسب الطاقة. وعلى كل من لديها علم من النساء أن تعلم بناتها وأبناءها وتعلم أخواتها وتعلم من حولها من النساء وتنتهز الفرصة عند الاجتماع فى عرس أو وليمة أو غير ذلك للدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتذكير لمن عندها من النساء وتعليمهن وإرشادهن إذا رأت امرأة متبرجة عند الرجال أو فى الطريق تنهاها عن ذلك وتحذرها منه، وتحذر عن التكاسل عن الصلاة بنتها وأختها وجارتها وغيرهن، وتأمرهن بالمعروف وتنهاهن عن المنكر، وهذا هو واجب الجميع؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿والْمُؤمنون والمؤمنات بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْض﴾ [التوبة:٧١] أولياء: يعنى أنهم متحابون فى الله فليسوا أعداء. فالمؤمن ولى أخيه وولى أخته فى الله، والمؤمنة كذلك ولية أختها فى الله وولية أخيها فى الله، يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر، ويتناصحون فى الله، فالزوج يأمر زوجته بالمعروف

وينهاها عـن المنكر، والزوجة تأمر زوجـها بالمعروف وتنهاه عـن المنكر. فإذا رأته مـقصرا فى الصـلاة أو رأته يشرب المـسكر أو يدخن أو يـحلق لحيته ـ تنصحه وتقول: اتق الله، هـذا لا يجوز لك، وكيف ترضى بهذا الأمر السيء لـنفسك؟ وكيف تعصـى ربك؟ تقول ذلك بالكـلام الطيب وبالأسلوب الحسن، كما أنه يأمرها ويـنهاها كذلك، هى تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، ولا تستحى ولا تـخجل ولا تداهن، وهكذا مع أبيها وأخيها وأمها وولدها وجارها وجارتها وصاحباتها وصديقاتها، وهذا هو الواجب على المسلمين والمسلمات مهما كانت مؤهلاتهم وأعمالهم. كل واحد منهم على حسب علمه وقدرته.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العـلا أن يوفقنا وجميع المسلمين لما يرضيه، وأن يسلك بنـا جميعا صراطه المستقيم، وأن يرزقنـا جميعاً الفقه فى دينه والثبات عـليه، وأن يوفقنا جميعاً للقيـام بالواجب من طاعة الله ورسوله والنصح لله ولعباده، ثم أوصى الجمـيع بالدعاء فى ظهر الغيب وفى الصـلاة وفى آخر الليـل لولاة الأمور بالتـوفيق والهدايـة والصلاح والإصلاح. فـولاة الأمور فـى حاجـة إلى الدعـاء أن يصـلحـهم الله، ويصـلح بـهم ويـهديـهم ويـهدى بـهم، فـهم فـى أشد الحـاجة إلـى الدعاء. وولاة أمر هـذه البلاد وولاة أمور المسلـمين جميعاً فـى كل مكان تدعون لـهم جميـعاً بالصـلاح والتوفيـق والهداية، وتـدعون لأولادكم ولأزواجكم ولغيرهم، تدعون لهم بالتوفيق والهداية والصلاح، وبالتوبة النصوح، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سَبيلى﴾ [يوسف: ١٠٨]

أي: قل يا محمد هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وأتباع النبى ﷺ من الرجال والنساء يدعون إلى الله على بصيرة ويحذرون الناس من معصية الله، ويرشدونهم إلى الخير.

وقال تعالي: ﴿ادع إِلَى سَبِيل رَبِّكَ بالحكمة والْموعظة الْحَسَنَةِ وجادلهم بالتى هِى أَحْسنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وليس هذا خاص بالرجال دون النساء ولا بالنساء دون الرجال، بل هو واجب على الجميع على حسب العلم والقدرة، كما قال عز وجل: ﴿فاتقوا الله مَا استَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وعلى العلماء والمدرسين واجب عظيم، وهكذا الرؤساء والأعيان عليهم واجب عظيم أكثر من غيرهم على حسب علمهم وقدرتهم، وعلى كل واحد من المسلمين أن يعرف واجبه ويهتم به، ويراقب الله فى كل شىء ويتقيه فى ذلك، فنحن فى غربة من الإسلام وفى آخر الزمان. فالواجب التكاتف والتعاون على الخير والصدق فى ذلك.

* * *

ونسأل الله التوفيق لنا، ولجميع المسلمين الهداية والثبات على الإسلام وحسن الختام، وأن يوفقنا جميعاً لما يرضيه، وأن يهدينا جميعاً صراطه المستقيم إنه سميع قريب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

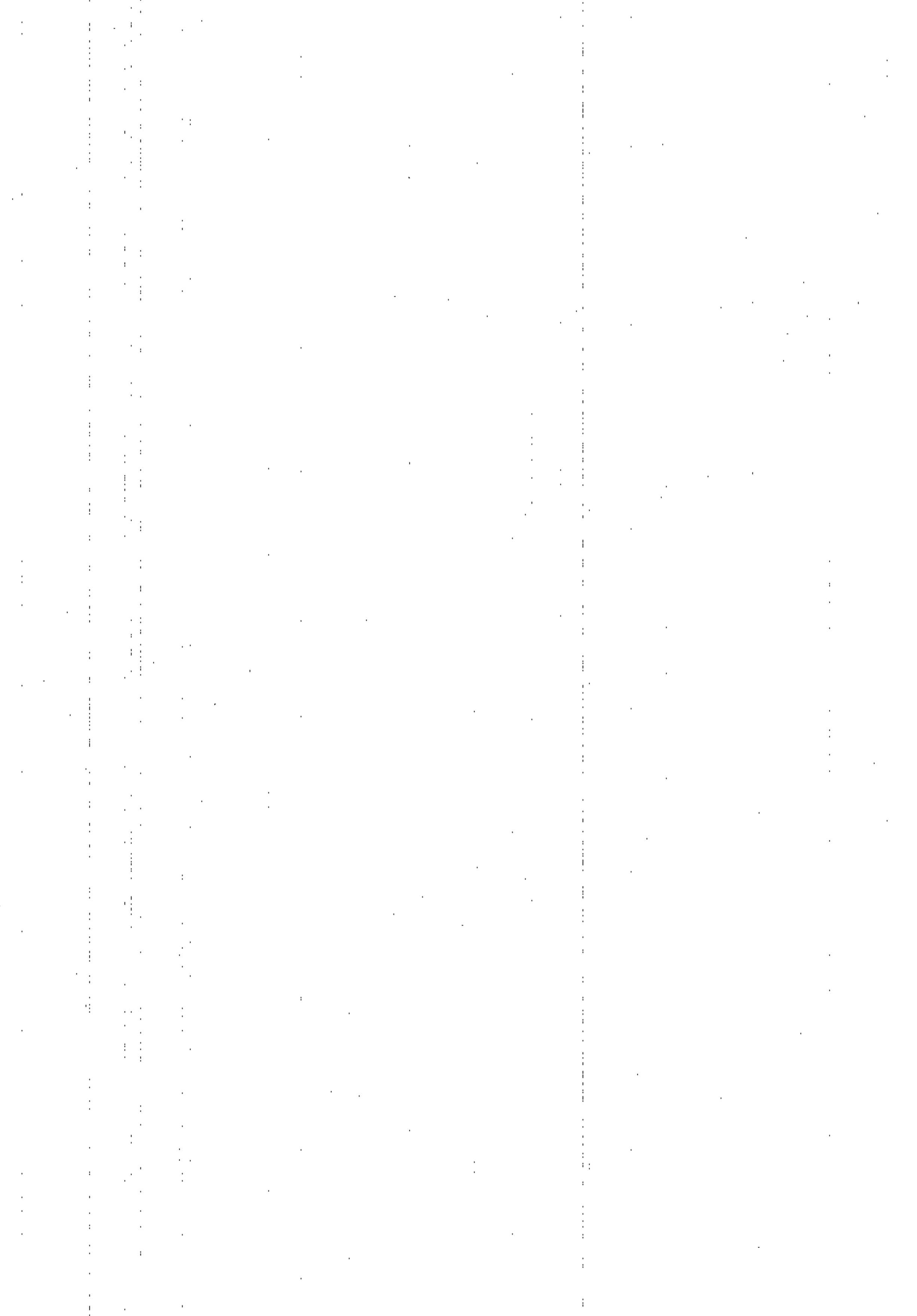
المحاضرة الرابعة عشرة:

ليس الجهاد للدفاع فقط

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت بدار الحديث بالمدينة المنورة فى أول موسم المحاضرات لعام ٨٨/ ١٣٨٩هـ



ليس الجهاد للدفاع فقط

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخيرته من خلقه، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين، ونسأله عز وجل التوفيق لإصابة الحق إنه على كل شيء قدير.

أما بعد: فلما كان الكثير من كتاب العصر قد التبس عليهم الأمر فى أمر الجهاد، وخاض كثير منهم فى ذلك بغير علم، وظنوا أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الإسلام، وعن أهل الإسلام، ولم يشرع ليغزو المسلمون أعداءهم فى بلادهم، ويطالبوهم بالإسلام ويدعوهم إليه، فإن استجابوا وإلا قاتلوهم على ذلك، حتى تكون كلمة الله هى العليا، ودينه هو الظاهر.

لما كان هذا واقعاً من بعض الناس، وصدر فيه رسائل وكتابات كثيرة، رأيت أن من المستحسن بل مما ينبغى أن تكون محاضرتى فى هذه الليلة، فى هذا الشأن بعنوان:

ليس الجهاد للدفاع فقط

* * *

فأقول: والله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل: إن الله عز وجل وله الحمد والمنة بعث الرسل وأنزل الكتب لهداية الثقلين من الجن والإنس، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور فضلاً منه وإحساناً، وكان الله عز وجل قد فطر العباد على معرفته، وتوحيده وخلقهم لهذا الأمر، خلقهم ليعبدوه ويطيعوه، ولكنه سبحانه لعلمه بأحوالهم وأن عقولهم لا يمكن أن تستقل بمعرفة تفاصيل عبادته التى

ترضيه عز وجل، ولا يمكن أن تستقل بمعـرفة الأحكام العادلة التى ينبغى أن يسيـروا عليها، ولا يمكـن أن تستقل بمـعرفة الأخلاق والصفـات التى ينبغى أن يتخـلقوا بها، أرسل سبحانه وتعالى رسلاً مـبشرين ومنذرين، ليوجهوا أهل الأرض من المكلفين، إلى توحيده سبحانه والإخلاص له، وبيان الأخلاق والأعمال التى ترضيه سـبحانه، وليحذروهم من الأعمال والأخلاق التـى تغضبه عز وجـل، وليرسموا لـهم النظم والخطـط التى ينبـغى أن يسيروا علـيها، وأنزل الكتـب لإيضاح هذا الأمر وبيـانه، لأنه سبحانه هو العـالم بأحوال عباده، العالم بما يصلحهـم ، العالم بما فيه سعادتهم العاجـلة والآجلة، فهو عالم بأحوالهم الحـاضرة، وبأحوالهم الماضية، وبأحوالهـم المستقبلة، فلهذا أرسل الرسل، وأنـزل الكتب لبيان حقه والإرشاد إليه، وتوجيه الناس إلى أسباب النجاة وإلى طرق السعادة فى المعاش والمعاد، وأنزل الكتب لبيان هذا الأمر العظيم، قال جل وعلا فى كتابه المبين: ﴿ الله ولِى الذين ءامنوا يُخْرِجُهُم مِنَ الـظُّلمات إلَى النُّور وَالذينَ كَفَرُوا أَوْلياؤُهُمُ الطَّـغُوتُ يخرجونهم مِنَ النُّور إلَى الظُّلمات﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال عز وجل: ﴿ يَأيها الذيـن ءامنوا اذكروا الله ذِكرا كَثِيـرا وسَبِحُوهُ بُكْرَة وَأَصيلاً هُوَ الذى يُصَلـى عَلَيْكُمْ وملائكتـه ليخـرجكُم من الظُّلمَات إلَى الـنُّورِ وكَانَ بِالمؤمِنِينَ رَحيماً تحِيَّتُهُمْ يومْ يَلْقونه سَلام وَأَعَدَّ لهُم أَجْرا كَرِيما﴾[الأحزاب: ٤١ ـ ٤٤]

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِن والإِنْسَ إِلا لِيعبدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وقال سبحانـه وتعالى: ﴿لَقَدْ أرْسَلْنَا رسلنـا بالبيـنات وَأنزَلْنَا مَعَهُمُ الكـتاب وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ وأنزلنا الْحَدِيدَ فيه بَأس شَدِيـد ومنافع للنَّاسِ وليعْلَم الله مَن يَنصُرُهُ وَرسُلَهُ بالْغَيْبِ إنَّ الله قَوِى عَزِيز﴾ [الحديد: ٢٥].

وبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبين أن رسله أرسلوا بالبينات، أنزل معهم سبحانه الكتاب والميزان بالقسط.

والمراد بالكتاب: الكتب السماوية وهى كلامه جل وعلا، وهو الذى لا أصدق منه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٣].

والميزان وهو العدل يعنى الشرائع المستقيمة، والأحكام العادلة التى تشتمل على أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة.

هكذا أرسل الرسل، وهكذا أنزل الكتب، أنزل الكتب السماوية التى أشرفها وأعظمها كتاب الله العظيم القرآن، وأنزل قبل ذلك التوراة والإنجيل وكتباً أخرى على أنبيائه ورسله، عليهم الصلاة والسلام، فيها الشرائع والأحكام والتوجيه إلى الخير والتحذير من الشر، وكان فيما مضى يرسل سبحانه وتعالى إلى كل قوم رسولاً منهم، يوجههم إلى الخير، ويأمرهم بتوحيد الله وينذرهم من الشرك بالله، ويشرع سبحانه لهم الشرائع وهو الحكيم العليم الرحيم جل وعلا، وكل رسول أرسله الله إلى أمة أرسله بالتوحيد الذى هو زبدة دعوة الرسل كلهم، وأمرهم بحب الله جل وعلا، والإخلاص له، وتوجيه القلوب إليه سبحانه، وشرع لهم من الشرائع على لسان رسولهم ما يليق بهم، وبمجتمعهم وزمانهم وظروفهم على ما تقتضيه حكمة الرب عز وجل، ورحمته ولطفه جل وعلا، وعلمه بأحوالهم سبحانه وتعالى.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ رسالة عامة إلى جميع أهل الأرض من

جن وإنس، أرسله الله عز وجل بشريعة صالحة لجميع أهل الأرض فى زمانه، وبعد زمانه إلى يوم القيامة، عليه الصلاة والسلام.

هكذا اقتضت حكمة الله عز وجل، واجتمعت الرسل على الأصول والأسس عليهم الصلاة والسلام، وتنوعت الشرائع على حسب ظروف الأمم وأحوالهم وبيئاتهم، على ما تقتضيه حكمة الخالق العليم، ورحمته عز وجل، وإحسانه إليهم ولطفه بهم جل وعلا.

أما جنس التوحيد الذى هو أصل الأصول، فقد اجتمعت الرسل عليه، وهكذا بقية الأصول كوجوب الصدق والعدل وتحريم الكذب والظلم والأمر بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، والنهى عن ضدها فهذه الأصول اجتمعت عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَد بعثنا فى كُلِّ أُمة رَسُولا أن اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطاغوت﴾ [النمل: ٣٦] وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا من قَبْلك من رَّسُول إلا نُوحي إليه أَنَّهُ، لا إلــه إلا أنا فَاعْبُدُون﴾[الأنبياء : ٣٥] وقال عز وجل: ﴿رسُلا مُّبَشِّرِين ومنذرِينَ لئلا يَكُون للنَّاسِ عَلَى الله حُجَّة بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥].

ومن الأصول الأساسية: الإيمان بالله ورسوله وتوحيده، والإخلاص له، والإيمان باليوم الآخر، وبالجنة والنار، والإيمان بجميع الرسل، وعدم التفريق بينهم، وما أشبه هذه الأصول هذا كله مما اجتمعت عليه الرسل جميعاً، وقد جاءت الكتب الإلهية كلها يصدق بعضها بعضاً، ويؤيد بعضها بعضاً.

أما جنس الفروع فقد تنوعت بها الشرائع، فقد يباح فى شريعة من

المسائل الفرعية ما يحرم فى الشريعة الأخرى، وقد يحرم فى شريعة سابقة ما يباح فى شريعة لاحقة، ومن هذا أن الله جل وعلا بعث عيسى عليه الصلاة والسلام بشريعة التوراة مع التخفيف والتيسير لبعض ما فيها، وإخبارهم ببعض ما اختلفوا فيه، وإحلال بعض ما حرم عليهم فى التوراة، كل هذا من لطفه وتيسيره جل وعلا، كما قال سبحانه وتعالى لما ذكر التوراة والإنجيل والقرآن قال بعد هذا كله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكم شِرْعَةً وَمِنْهَاجا﴾ [المائدة : ٤٨]، وهو سبحانه حكيم فى شرعه عليم بما يصلح عباده وما يستطيعون، كما أنه حكيم فى أقداره سبحانه وتعالى، قال جل وعلا: ﴿إنَّا أنزلنا التَّوراة فيها هُدى ونور يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشَوُا الناس واخشَوْن ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأُذُن بالأذن والسِّنَّ بالسِّن والجروح قصاص فمن تصدَّق به فهو كفَّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة : ٤٤ ـ ٤٥]، هذا كله فى شريعة التوراة، وقد أقره الله لهذه الأمة وبينه لهم مقراً له ومشرعاً فى هذه الأمة، وجاءت السنة تؤيد ذلك وتبين أن هذا شرع الله لهذه الأمة فى النفس والعين والأنف والأذن والسن، كما هو فى شريعة الله المعلومة من كتابه سبحانه، ومن سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم قال بعد ذلك: ﴿وقَفينَا عَلَى آثارهم بِعِيسَى ابن مَرْيمَ مُصَدِقا لمَا بَيْنَ يَدَيْه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هُدى ونُور ومُصَدّقاً لما بَيْنَ يديْه مِنَ التَّوْراة وَهُدى ومَوْعِظَة للمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦]، فدل ذلك على أن هذا الكتاب العظيم وهو

الإنجيل، فيه هدى ونور وفيه مواعظ وتوجيهات، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلْيَحْكُم أهْلُ الإنجيل بِمَا أنزل الله فِيه﴾ [المائدة : ٤٧] فدل على أن فيه أحكاماً يحكم بها أهل الإنجيل من علماء بنى إسرائيل ومعلوم أن عيسى عليه الصلاة والسلام أرسل بشريعة التوراة، ومع ذلك أرسل بأشياء غير ما فى التوراة.. وفى شريعته أيضاً تخفيف وتيسير لبعض ما فى التوراة، ثم قال بعد هذا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ الله فَأُولَئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، ثم قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بِالْحَق مُصَدّقا لّمَا بَيْنَ يَدَيْه مِنَ الكتاب وَمُهَيْمناً عَلَيه فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ الله ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءكَ من الْحَق لِكُلّ جَعَلْنَا منكمْ شِرْعَة وَمِنْهَاجا﴾ [المائدة آية ٤٨] هكذا قال لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وأنزل كتابه القرآن بالحق لأن الله أنزله بالحق وللحق، فهو جاء مشتملاً على الحق ومؤيدا للحق، وشارعاً للحق ومصدقاً لما بين يديه من الكتب الماضية، والرسل الماضية فيما جاؤوا به. فكتاب الله العظيم القرآن مصدق للرسل الماضين، ومصدق للكتب الماضية، وشاهد أنها من عند الله عز وجل: التوراة والإنجيل والزبور وصحف موسى وإبراهيم وغيرها من الكتب التى أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم بين الله جل وعلا أن لكل منهم شرعة ومنهاجاً، فدل ذلك على أن الشرائع التى جاء بها الأنبياء والرسل متنوعة الأسس من الإيمان بالله ورسله والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجنة والنار، وغير هذا من الأحكام العامة التى توجب العدل والصدق، وتحريم الظلم والكذب ونحو ذلك.

فهذه أصول عامة متبعة، وكان من حكمته عز وجل أن أرسل كل

رسول بلسان قومه، حتى يفقههم ويفهمهم، ما بعث به إليهم بصورة واضحة، وبيان واضح، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الآية [ابراهيم: ٤].

ولما كان محمد ﷺ من العرب، وكان العرب هم أول الناس يستمعون دعوته، ويواجههم بدعوته، أرسله الله بلسانهم، وإن كان رسولاً للجميع عليه الصلاة والسلام، ولكن الله أرسله بلسان قومه، وجعل قومه مبلغين ودعاة إلى من وراءهم من الأمم، وأمر الناس جميعاً باتباع هذا النبى عليه الصلاة والسلام والسير على منهاجه، فوجب عليهم أن يتبعوه، وأن يعرفوا لغته ولغة كتاب الله العظيم، وهذا النبى العظيم هو محمد عليه الصلاة والسلام بعثه الله رحمة للعالمين جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أرسلناك إلا رَحْمَةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فكما أرسل الرسل قبله رحمة لمن أرسلوا إليه ليواجهوهم وليزيلوا عنهم الظلم، والفساد وأحكام الطواغيت، وليحلوا مكان ذلك النظم الصالحة والأحكام العادلة، وهكذا أرسل الله محمداً ﷺ أيضاً، ليقضى على النظم الفاسدة فى المجتمع الإنسانى، والأخلاق المنحرفة، والظلم والجور، وليحل محلها نظماً صالحة، وأحكاماً عادلة، فبعثه ﷺ ربه ليزيل ما فى الأرض من الظلم والطغيان، وليقضى على الفساد، وليزيح النظم الفاسدة والطواغيت المستبدة، الذين يتحكمون فى الناس بالباطل ويظلمونهم ويتعدون على حقوقهم، ويستعبدونهم.

فبعث الله هذا النبى عليه الصلاة والسلام، ليزيل هذه النظم الفاسدة، والأخلاق الظالمة، وليقضى على الطغاة المتجبرين، والقادة المفسدين،

وليحل محل ذلك قادة مصلحين، ونظماً عـادلة مستقيمة وشرائع حكيمة عادلة توقف الـناس عند حدهم، ولا تفرق بـين أبيض وأسود، ولا بين أحمر وغيره، ولا بـين غنى وفقير، ولا بين شريف عنـد الناس، ووضيع عندهـم،بل جعل شريـعته لا تفرق بـين الناس، بل تـواجههم جمـيعاً وتأمرهم وتنهاهـم جميعاً، وبين الله سبحانه وتعالـى أن أكرم الناس عند الله هو أتقاهم كما قال جل وعلا: ﴿يَأَيها النَّاسُ إِنَّا خلقـناكم مِن ذَكر وأُنثَى وجعلنـاكم شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يقل لتـتفاخروا، أو ليترفع بعضكـم على بعض، أو يستعبد بعضكم بعضـاً، أويفخر بعضكم على بعض، ولكن قال: «لتَعَارفُوا» ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِند الله أتقاكم إِنَّ الله عَلـيم خَبِير﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النـبى ﷺ «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد» خرجه مسلم فى صحيحه.

وقال الله جل وعـلا فى القرآن الـكريم: ﴿إِنَّ الله لا يُحِب كُلَّ مُخْتَال فَخُور﴾[لقمان: ١٨]، فهذا النبـى العظيم عليه الصـلاة والسلام أرسله الله برسالة عـامة ونظام شامل عـام فى جميع الشئـون العبادية والسـياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والحربية وغير ذلك من شئون الناس، فما ترك شيئاً إلا وأرشد إلى حكم الله فـيه، وقال فيه عز وجل ﴿وَمَا أرسلناك إلا كَافَّة للنَّاسِ بَشِيراً ونَذيراً﴾ [سبأ: ٢٨] وقال عز وجل ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً وَمُبَشراً ونذيراً ودَاعياً إِلى الله بِإِذنِه ،وَسِراجا مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥]، فبين الله سبحانه وتعالـى أن هذا الرسول سراج منير للناس ينـير لهم الطريق ويهديهم الـسبيل إلى ربهم سبـحانه ـ عليه الصلاة والـسلام ـ الذى من

استقام على دينه نجا وفاز بالخير والعاقبة الحميدة ومن حاد عنه باء بالخيبة والخسارة والذل والهوان، وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُم منَ الله نُور وكتاب مُبين ۝ يَهْدِي بِه الله مَنِ اتبَع رضْوَانَهُ سُبُل السلام وَيُخْرجُهُم منَ الظُّلُمَات إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْديهم إِلَى صراط مُّسْتَقيم﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، هكذا قال جل وعلا فى هذا النبى العظيم وكتابه المبين. إن هذا الكتاب وهذا الرسول يخرج الله بهما الناس من الظلمات إلى النور من ظلمات الكفر والجهل والظلم والاستبداد والاستعباد إلى نور التوحيد والإيمان، إلى نور الهدى والعدل، إلى سعة الإسلام بدلاً من جور الملوك والطغاة، وبدلاً من أحكامهم الظالمة الجائرة، فشريعة الله التى بعث بها نبيه محمداً ﷺ شريعة كاملة، شريعة فيها الهدى والنور، وفيها العدل والحكمة، وفيها إنصاف المظلوم من الظالم، وتوجيه الناس إلى أسباب السعادة، وإلزامهم بالحق والعدل، ومنعهم من الظلم والجور، وربطهم بالأخوة الإيمانية، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى، والتواصى بالحق والصبر عليه والتآخى والنصح من بعضهم لبعض، وفيها تخليصهم من الظلم والجور والبغى والكذب وسائر أنواع الفساد حتى يكونوا جميعاً إخوة متحابين فى الله متعاونين على البر والتقوى، ينصح كل واحد الآخر، ويؤدى الأمانة ولا يغش أخاه ولا يخونه، ولا يكذبه، ولا يحقره، ولا يغتابه ولا ينم عليه، بل يحب له كل خير ويكره له كل شر، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون إِخْوَة فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه

قال: « بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: (الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله: قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) خرجه مسلم في صحيحه. وقال سبحانه في كتابه العزيز في عموم الرسالة ﴿قُلْ يَأَيها النّاسُ إني رَسُول الله إِلَيْكُمْ جَميعاً الذى لَهُ مُلْكُ السماوات والأَرْضِ لا إله إِلا هو يحيي ويُميتُ فآمنوا بِالله وَرَسُوله النَّبى الأُمى الذى يُؤمِنُ بِالله وكلماته واتبِعُوهُ لَعَلكُمْ تَهْتَدون﴾ [الأعراف: ١٥٨] وأخبر سبحانه وتعالى أن هذا الرسول يزكيهم من أخلاقهم الذميمة وأعمالهم المنكرة إلى أخلاق صالحة، وإلى أعمال مستقيمة قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ منَّ الله على المُؤْمنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهم رَسُولا مِن أنفُسهم يَتْلُوا عَلَيهم آياته ويُزكيهم ويُعَلّمُهم الكتاب والْحكْمَةَ وَإن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَال مُّبين﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُول من أنفُسِكُم عزيز عَلَيْه مَا عَنِتُّم حَرِيص عَلَيكُم بِالمُؤْمنِينَ رَءُوف رَّحِيم﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالات على نصحه عليه الصلاة والسلام وأن الله بعثه ليعلم الناس ويرشد الناس ويزكي الناس ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات جهلهم وكفرهم وأخلاقهم الذميمة، إلى نور الإيمان والتوحيد وإلى سعادة الأخلاق الكريمة، والعدل والصلاح والإصلاح، ولما كانت الأرض قبل بعثته عليه الصلاة والسلام مملوءة من الظلم والجهل والكفر، وكان الشرك قد عم الناس وعم البلاد وانتشر فيها الفساد إلا ما شاء الله من بقايا يسيرة من أهل الكتاب ماتوا أو معظمهم قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، لما كان الأمر هكذا رحم الله أهل الأرض ولطف بهم سبحانه وبعث فيهم هذا

الرسول العظيم محمداً عليه الصلاة والسلام وهم فى أشد الحاجة بل الضرورة إلى بعثته وإرساله فبعثه الله بأشرف كتاب وأشرف رسالة وأعمها فأنقذ الله به الأمة. وأخرج الله به أهل الأرض من الظلمات إلى النور، أخرجهم الله به من الضلالة إلى الهدى، أخرجهم الله به من الجور والظلم والعسف إلى العدل والإنصاف والحرية الكاملة المقيدة بقيود الشريعة، وأمره سبحانه وتعالى حينما بعثه بالدعوة إلى الله عز وجل والارشاد إليه، وإقامة الحجج على ما بعثه الله به من الدين الحق والصراط المستقيم، فلم يزل هكذا يدعو إلى الله ويرشد فى مكة عليه الصلاة والسلام، وهكذا من أسلم معه من أهل مكة يقوم بدوره فى الدعوة على حسب حاله تارة فى السر وتارة فى العلن كما هو معلوم فمكث فى مكة عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله عز وجل وينذر قومه ويوجههم إلى الخير ويتلو عليهم كتاب الله، ويدعوهم إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الأعمال، ولم يأمره الله بقتالهم، وإنما هى دعوة فقط ليس فيها قتال بل توجيه وإرشاد وإيضاح للحق والخلق الكريم، وتحذير من خلافه بالكلام الطيب واللطف والجدال بالتى هى أحسن كما قال جل وعلا ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجادلهم بالتى هى أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال جل وعلا ﴿فَاصْفَحِ الصفْحَ الْجميل﴾ [الحجر: ٨٥] وقال سبحانه: ﴿واصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[المزمل: ١٠] وقال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشركِينَ﴾[الحجر: ٩٤] إلى أمثال هذه الآيات التى فيها الأمر بالصفح والإعراض عنهم والجدال بالتى هى أحسن إلى غير ذلك، وليس فيها

الأمر بقتالهم، لأن المقام لا يتحمل ذلك لأن المسلمين قليلون وأعداؤهم كثيرون وبأيديهم السلطان والقوة فكان من حكمة الله أن منع رسوله والمسلمين من الجهاد باليد وأمرهم بالاكتفاء بالجهاد باللسان والدعوة وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال، فهدى الله بذلك من هدى من المسلمين كالصديق - رضى الله عنه - وعمر الفاروق - رضى الله عنه - وعثمان - رضى الله عنه - وعلى - رضى الله عنه - والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وجم غفير من الصحابة، رضى الله عن الجميع وأرضاهم.

ولما صدع النبى بالدعوة وبين بطلان آلهتم التى يعبدونها من دون الله وأرشدهم إلى توحيد الله والإخلاص له، عظم على أهل مكة ذلك واشتد عليهم الأمر لأنهم يعظمون تلك الآلهة ولأن كثيراً منهم يرى فى عبادتها والتعلق بها حفظاً لرئاسته ومنزلته وسيطرته على الضعفاء وصاروا يحاولون الذود عنها ويكذبون على الرسول ﷺ أكاذيب كثيرة وينفرون الناس عنه ويقولون عنه إنه شاعر وتارة مجنون وتارة ساحر وتارة كذاب إلى غير ذلك وهى أقاويل كلها باطلة وهم يعلمون أنها باطلة، أعنى أعيانهم ورؤساءهم أهل الحل والعقد منهم كما قال سبحانه ﴿قَدْ نعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِن الظالمين بآيات الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ولكن ليس لهم حيلة إلا أن يقولوا هكذا من الكذب والفرية والتزييف على الضعفاء من أهل مكة ومن غيرهم فأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق ويدفع الباطل ولو كره الكافرون، فلم يزل يدعوهم

عليه الصلاة والسلام ولم يزل يناظر الناس ويتلو عليهم كتاب الله ويرشدهم إلى ما بعثه الله به ويصدع بأمر ربه عز وجل، حتى ظهرت الدعوة فى مكة وانتشرت وسمع بها الناس، العرب وغيرهم فى البوادى والمدن، فصارت الوفود تأتى إلى النبى ﷺ ويتصلون به سراً ويسمعون منه عليه الصلاة والسلام حتى فشى الإسلام وظهر وبان لأهل مكة، فعند ذلك شمروا عن ساعد العداوة وآذوا الرسول وآذوا أصحابه إيذاءاً شديداً، وأمرهم معروف فى السير والتاريخ فمنهم من عذب بالرمضاء ومنهم من عذب بغير ذلك. فلما اشتد الأمر بأصحاب الرسول ﷺ واشتد بهم الأذى أذن لهم ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر من هاجر إلى الحبشة ومكثوا هناك ماشاء الله ثم بلغهم أن هناك تساهلاً من المشركين، وروى أنه بلغهم أنهم أسلموا لما سجدوا مع النبى ﷺ فى سورة النجم فرجع من رجع منهم فاشتد عليهم الأذى فهاجروا الهجرة الثانية إلى الحبشة وبقوا هناك إلى أن قدموا على النبى ﷺ عام خيبر من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وعنهم، ثم استمرت الحال والشدة على الرسول ﷺ فى مكة.. وجرى ما جرى فى حصاره فى شعب أبى طالب وغير هذا من الأذى، ثم إن الله جل وعلا بعد ذلك أذن بالهجرة إلى المدينة بعدما يسر الله له من الأنصار من يساعده ويحميه ويؤويه فإن الأنصار رضى الله عنهم وأرضاهم، من الأوس والخزرج لما بلغتهم الدعوة اتصلوا بالنبى ﷺ واجتمعوا به عند العقبة فى مرات ثم فى المرة الأخيرة بايعوه، بايعه منهم جماعة فوق السبعين فبايعوه على الإسلام وعلى أن ينصروه ويحموه مما يحموا منه نساءهم

وذرياتهم، وطلبوا منه أن يهاجر إليهم فوافق على ذلك عليه الصلاة والسلام. وأذن لأصحابه بالهجرة ثم انتظر أمر ربه فأذن الله له بعد ذلك فهاجر إلى المدينة فلله الحمد والمنة. وكان ﷺ في مكة كما هو معلوم لم يكن يجاهدهم باليد ولا بالسيف ولكنه كان يجاهد بالدعوة والتوجيه والإرشاد والتبصير والعظة والتنكير وتلاوة القرآن كما قال الله تعالى: ﴿وجاهدهم بِهِ جِهَادا كَبيراً﴾[الفرقان: ٥٢] وهكذا كان أصحابه ﷺ الذين بقوا في مكة كانوا هكذا إذا تمكنوا من الدعوة بذلوها لمن يتصل بهم في التوجيه والإرشاد والنصيحة ولكن مع هذا كله فالمسلمون قليلون والكفار أكثر ولهم السلطة، ولهم اليد في مكة ولهذا قال الشاعر ويروى ذلك لحسان رضي الله عنه:

دعا المصطفى دهراً بمكة لم يجب

وقد لان منه جانب وخطاب

فلما دعا والسيف صلت بكفه

له أسلموا واستسلموا وأنابوا

هكذا كانت الحال بمكة، إنما أجاب القليل وامتنع الأكثرون بسبب المآكل والرئاسة والكبر والحسد والبغي لا عن جهل بالحق ولا عن رغبة في الباطل لأنهم يعرفون أنه رسول الله وأنه صادق، وكانوا يسمونه الأمين عليه الصلاة والسلام. ولكن الحسد والبغي وحب الرئاسة والتسلط على الأمة يمنع الكثير من الناس عن قبول الحق وهكذا فعل الروم

وفارس ورؤساؤهم وأعيانهم ليس يخفى عليهم الحق وأدلته وبراهينه، ولكن السلطان والرئاسة واستعباد الناس وما يلتحق بهذا يمنعهم من الخضوع إلى الحق، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات النبى ﷺ وأخبره أبو سفيان بذلك عرف أنه رسول الله واتضح له أنه نبى الله ودعا أمته لذلك فلما رأى منهم النفرة وعدم الاستجابة نكس على عقبيه ورجع عما أظهر وقال إنما فعلت هذا وقلت ماقلت لأمتحنكم وأعرف صلابتكم فى دينكم ثم صار على دين قومه واستمر فى طغيانه وكفره نسأل الله العافية فآثر الدنيا على الآخرة. وهكذا أشباهه ونظراؤه يحملهم البغى والحسد وحب الرئاسة على خلاف الحق وعلى التنكر له ولأهله كما سبق فى قوله جل وعلا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إنه لَيَحزُنُكَ الَّذى يَقُولونَ فَإِنهُم لا يكذبونَك ولَكنَّ الظالمين بآيات اللَّه يَجحَدُونَ﴾[الأنعام ٢٣] هكذا يقول ربنا عز وجل عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُواً فَانظر كَيفَ كَانَ عاقبة المُفسِدينَ﴾ [النمل : ١٤] وقال الله عز وجل عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَل هَؤلاءِ إلا رَبُّ السماوات وَالأَرضِ بَصَائِرَ﴾ [الاسراء: ١٠٢] فهؤلاء الكفرة من الكبراء والأعيان يعرفون الحق وأن ماجاءت به الرسل هو الحق ولكن تمنعهم الرئاسات والتسلط على العباد وظلم العباد والاستبداد بالخيرات يمنعهم ذلك من قبول الحق لأنهم يعرفون أنهم إذا قبلوا صاروا أتباعاً وهم لايرضون بذلك إنما يريدون أن يكونوا متبوعين ورؤساء ومتحكمين ومتسلطين فالإسلام جاء ليحارب هؤلاء ويقضى عليهم ليقيم دولة صالحة بقيادة صالحة يؤثرون حق الله وإنصاف الناس ويرضون بما يرضى به إخوانهم

ولا يتجبرون ولا يتكبرون بل ينصفون إخوانهم ويسعون فى صلاحهم وفلاحهم ويحكمون بينهم بالعدل، ويشتركون معهم فى الخيرات ولا يستبدون بها عنهم هكذا بعث الله نبيه محمداً ﷺ بدين شامل ونظام عادل وشرائع مستقيمة تكسح نظم الفساد وتزيل أحكام الطغاة وتقضى على طرق الفساد وأخلاق المفسدين وتوجب على المسلمين اتباع هذا النظام المنزل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما توجب عليهم هذه الشريعة أن يتخلقوا بالعدل والانصاف وأن يستقيموا على ماشرعه الله لهم وأن يحافظوا على ذلك، وأن ينصف بعضهم بعضاً وأن يؤدى الأمانة بعضهم لبعض، وأن يحكموا فيما بينهم بشرع الله وأن يحاربوا الفساد والضلال وطرق الغى والغواية، فلما هاجر عليه الصلاة والسلام واستقر به القرار فى المدينة المنورة أمره الله بالتقوى وتطهيرها من الفساد وأهل الفساد وعمارتها بالمصلحين والصالحين فلما استقر به القرار فى هذه البلاد المقدسة وحوله الأنصار والمهاجرون، استمر فى الدعوة عليه الصلاة والسلام ونشر مابعثه الله به من الهدى، وأذن الله له ولأصحابه فى القتال والجهاد، وأنزل فى ذلك قوله سبحانه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُم ظُلِموا وإِن الله عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِير﴾ [الحج: ٣٩] ففى هذه الآية أذن لهم فى الجهاد لأنهم مظلومون والمقصود أن الله جل وعلا أذن لهم بالقتال والجهاد ثم فرض الله ذلك سبحانه وتعالى وأوجبه بقوله جل وعلا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٦] وأوجب عليهم سبحانه وتعالى الجهاد والقتال وأنزل فيه الآيات الكثيرات وحرض عليه سبحانه وتعالى وأمر به فى كتابه العظيم وعلى لسان نبيه ﷺ فكان أولاً

مباحاً مأذوناً فيه ثم فريضة على الكفاية كما قاله أهل العلم.

وقد يجب على الأعيان إذا اقتضت الأسباب ذلك كما لو حضر الصف، أو حصر بلده أو استنفره الإمام، ففى هذه المسائل الثلاث يتعين القتال إذا حضر الصفين ليس له أن ينصرف ولا أن يفر وكذلك إذا حاصر بلده العدو وجب عليه وعلى أهل البلد أن يقاتلوا ويدافعوا بكل مايستطيعون من قوة وكذلك اذا استنفره الإمام وجب النفير كما هو معروف فى محله، فالمقصود أن الله فرض الجهاد وجعله فرضاً على المسلمين وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفى سقط عن الباقين، وصار فى حقهم سنة مؤكدة وقد يجب على الأعيان للأسباب التى تقتضى ذلك كما سبق، فكان عليه الصلاة والسلام أولا يقاتل إذا رأى المصلحة فى ذلك ويكف إذا رأى المصلحة فى الترك ثم أمره الله سبحانه بقتال من قاتله وبالكف عمن كف عنه، كما قال الله جل وعلا ﴿وقاتلوا فى سَبِيل الله الَّذِينَ يقاتلونكم وَلا تعتَدوا إِنَّ الله لا يُحِبُّ الْمُعتدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، قال بعض السلف فى هذه الآية: إنه أمر فى هذه الآية: بقتال من قاتله والكف عمن كف عنه، وقال آخرون فى هذه الآية: ان هذه الآية ليس فيها مايدل على هذا المعنى وإنما فيها أنه أمر بالقتال للذين يقاتلون أى من شأنهم أن يقاتلوا. إلخ. ويصدوا عن سبيل الله وهم الرجال المكلفون القادرون على القتال بخلاف الذين ليس من شأنهم القتال كالنساء والصبيان والرهبان والعميان والزمناء وأشباههم فهؤلاء لايقاتلون لأنهم ليسوا من أهل القتال وهذا التفسير كما سيأتى إن شاء الله تعالى أظهر وأوضح فى معنى الآية، ولهذا قال بعدها بقليل ﴿وقاتلوهم حَتَّى لا تكون

فِتنَةٌ وَيَكونَ الدينُ للهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] فعلم بذلك أنه أراد قتال الكفار لا من قاتل فقط بل أراد قتال الكفار جميعاً حتى يكون الدين كله لله وحتى لاتكون فتنة والفتنة الشرك، وأن يفتن الناس بعضهم بعضاً عن دينهم فتطلق الفتنة على الشرك كما قال تعالى ﴿وَالفِتنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتلِ﴾ [البقرة: ١٩١] يعنى الشرك، وتطلق أيضاً على مايقوم به بعض الكفار من قتل بعض الناس والتعدى عليهم وإلجائهم إلى أن يكفروا بالله عز وجل، فالله أمر بقتالهم حتى لاتكون فتنة، يعنى حتى لايقع شرك فى الأمة وحتى لايقع ظلم من الكفار للمسلمين بصدهم وقتالهم حتى يرجعوا عن الحق وقال عز وجل فى سورة النساء: ﴿وَدُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتَّخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتَّخذوا منهم وليا ولا نصيراً إلا الذين يَصِلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما رُدُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السَّلَمَ ويكفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ [النساء: ٩١] قالوا فهذه الآيات فيها الدلالة على أن الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ والمسلمين أن يقاتلوا من قاتلهم وأن يكفوا عمن اعتزل القتال وكف عنهم، ثم أنزل الله بعد ذلك آية السيف فى سورة براءة وهى قوله جل وعلا: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشهُرُ الحُرُمُ فَاقتُلوا المُشرِكينَ حَيثُ وَجَدتُّمُوهُم وَخُذُوهمْ وَاحصُروهُم وَاقعُدوا لَهُمْ كُلَّ مَرصَد فَإن تَابُوا وَأَقَامُوا

الصلاة وآتوا الـزكاة فَخَلُّوا سَبِيلَهُم إنَّ الله عَفُورٌ رَّحِيم﴾[التوبة: ٥] قال العلماء رحمة الله عـليهم إن هذه الآية ناسخـة لجميع الآيات التى فيـها الصفح والكف عن المـشركين والتى فيها الـكف عن قتال من لم يقـاتل قالوا: فهذه آية السيف هى آية القتال آية الجهاد آية التشمير عن ساعد الجد وعن المال والنفس لقتال أعداء الله حتى يـدخلوا فى دين الله وحتى يتوبوا من شركـهم ويقيـموا الصلاة ويـؤتوا الزكاة فـإذا فعلوا ذلـك فقد عصـموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام هذا هو المعروف فى كلام أهل العلم من المفســرين وغير المفسرين، كـلهم قالوا فيما عـلمنا واطلعنا عـليه من كلامهـم إن هذه الآية وما جـاء فى معناهـا ناسخة لما مـضى قبلـها من الآيات التى فيها الأمر بالعفو والصفح وقتال من قاتل والكف عمن كف ومثلهـا قوله جل وعلا فى سـورة الأنفال: ﴿وقاتلوهـم حتَّى لا تكُونَ فتنَةٌ وَيكونَ الدينُ كُلُّه لله﴾ [الأنفال: ٣٩] ومثلها قولـه جل وعلا فى سورة براءة بعد ذلك ﴿وقاتلوا المُشركين كافَّة كَما يقاتلونكم كَافة وَاعْلَموا أنَّ الله مَعَ المُتَّقين﴾ [التوبة: ٣٦] ومثلها قـوله جل وعلا ﴿قاتلـوا الذينَ لا يُؤمِنُون بِالله وَلا بالـيوم الآخر وَلا يُحـرمُونَ ما حَرم الله وَرَسـُولُه، وَلا يدينون دِيـنَ الحَق مِـنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتاب حَتَّى يُعـطُوا الجِزيَةَ عن يَدٍ وَهُمْ صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩] فأمر الله سبحانـه وتعالى بقتال أهل الـكتاب ولم يأمر بالكـف عنهم إلا إذا أدوا الجزية عن صـغار ولم يقل: حتى يعـطوا الجزية أو يكفوا عـنا بل قال: حتى يعطوا الجـزية عن يد وهم صاغرون، واكتفى بـذلك وقال فى الآية السـابقة آيـة السـيف ﴿فـإن تَابُوا وَأَقـامُوا الـصـلاة وءاتَوُا الـزكـاة فَخلـوا سبِيلَهُم﴾[التوبة: ٥] وقال فى آية أخرى ﴿فَإِن تَابُوا وأَقَامُوا الصلاة وَءاتوا الزكاة فَإِخْوَانُكُم فى الدين﴾ [التوبة: ١١] فدل ذلك على أنه لايكف عن الكفار إلا

إذا تابوا من كفرهم ورجعوا إلى دين الله واستمسكوا بما شرع الله، فهؤلاء هم الذين يكف عنهم ويكون لهم مالنا وعليهم ما علينا، لكن أهل الكتاب إذا بذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون كففنا عنهم وإن لم يسلموا، أما من سواهم فلابد من الإسلام أو السيف ويلحق بأهل الكتاب المجوس لما رواه البخارى فى صحيحه رحمه الله عن عبدالرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، فصار المجوس ملحقين بأهل الكتاب فى أخذ الجزية فقط لا فى حل طعامهم ونسائهم، فهذه الطوائف الثلاث تؤخذ منهم الجزية، هذا محل وفاق بين أهل العلم فإما أن يسلموا وإما أن يؤدوا الجزية، وإما القتال. وفى آخر الزمان إذا نزل عيسى - عليه الصلاة والسلام ـ زال هذا الأمر، فأخذ الجزية مؤجل ومؤقت إلى نزول عيسى، فإذا نزل عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ انتهى هذا الشرع ووجب بعد ذلك إما الإسلام وإما السيف، هكذا يحكم عيسى عليه السلام بهذه الشريعة المحمدية، والأحاديث الواردة فى ذلك تدل على أن أخذ الجزية مؤقت إلى نزوله عليه الصلاة والسلام وقد أوضح عليه الصلاة والسلام أن أخذ الجزية مؤقت إلى نزول عيسى، فإذا نزل عيسى حكم فيهم بالسيف أو الإسلام وترك الجزية، وذلك بتقرير النبى ﷺ وشرعه لأن رسول الله ﷺ أخبر بذلك وأقره فدل ذلك على أن هذا هو شرعه فى آخر الزمان، واختلف أهل العلم فيما عدا هذه الطوائف الثلاث من العجم وعباد الأوثان، فقال بعض أهل العلم: توخذ الجزية من جميع المشركين عربهم وعجمهم ولا يستثنى أحد، وهذا هو المنقول عن مالك ونسبه إليه

القرطبى ـ رحمه الله ـ فى تفسيره والحافظ ابن كثير فى تفسيره وهو: أن الجزية تؤخذ من الجميع من العرب والعجم. وقال أبو حنيفة رحمه الله: تؤخذ من العجم جميعاً كاليهود والنصارى والمجوس ولا تؤخذ من العرب. وقل أحمد ـ رضى الله عنه ـ والشافعى ـ رضى الله عنه ـ وجماعة من العلماء: إنما تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فقط، لأن الأصل قتال الكفار وعدم رفع السيف عنهم حتى يسلموا ولم يأت رفع السيف بعد بذل الجزية إلا فى هذه الطوائف الثلاث اليهود والنصارى والمجوس. جاء الكتاب فى اليهود والنصارى، وجاءت السنة الصريحة فى المجوس ومن سواهم لايرفع عنهم السيف بل لابد من الإسلام أو السيف فقط، لأن الله جل وعلا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقامُوا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سَبيلَهُم﴾ [التوبة: ٥] ولم يقل أو كفوا عنكم وقال ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشرِكينَ حَيثُ وَجَدتُّموهُم وَخُذُوهُم واحصُرُوهُم واقعدوا لَهُم كُلَّ مَرْصَد﴾ [التوبة: ٥] فعمم بقتالهم جميعاً وتعليق الحكم بالوصف المشتق يدل على أنه هو العلة فلما علق الحكم بالمشركين والكفار ولمن ترك الدين ولم يدن بالحق عرف أن هذا هو العلة وأنه هو المقتضى لقتالهم، فالعلة الكفر بالله مع شرط كونه من أهل القتال لا من غيرهم، فإذا كانوا من أهل القتال قاتلناهم حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارى والمجوس، أو حتى يسلموا فقط إذا كانوا من غير هؤلاء الطوائف الثلاث وإلا فالسيف، لكن من ليس من أهل القتال كالنساء والأولاد والعميان والمجانين والرهبان وأرباب الصوامع والزمناء ومن ليس من شأنهم القتال لكونهم لايستطيعون كمن تقدم ذكرهم، وهكذا الشيوخ الفانون فهؤلاء

لايقاتلون عند جمهور العلماء لأنهم ليسوا من أهل القتال فمن محاسن الإسلام تركهم وعدم قتالهم، وفيه أيضاً دعوة لهم ولأهاليهم وقومهم إلى الإسلام إذا عرفوا أن الإسلام يرحم هؤلاء ويعطف عليهم ولا يقتلهم فهذا من أسباب دخولهم فى الإسلام أو عدم تفانيهم فى العداء له. وبعض أهل العلم حكى الإجماع على عدم قتل النساء والصبيان وقد ثبت عن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - النهى عن قتل النساء والصبيان فى الأحاديث الصحيحة وقد جاء فى أحاديث السنن النهى عن قتل الرهبان والشيوخ الفانين وأشباههم وذكر بعض أهل العلم أن آية السيف وهى قوله جلا وعلا ﴿فَإِذَا انسَلَخ الأَشْهرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشركينَ حَيثُ وَجَدتُّمُوهُم﴾ الآية [التوبة: ٥] ليست ناسخة ولكن الأحوال تختلف، وهكذا قوله جل وعلا ﴿يأَيُّهَا النَّبىُّ جاهد الكُفَّارَ والمنافقين واغلُظ عَلَيهِم﴾ الآية [التوبة: ٧٣]، وقوله سبحانه ﴿يأَيُّهَا الَّذين آمنوا قاتلوا الذين يَلونكُم مِنَ الكُفَّار وليجدوا فيكُم غِلظَةً واعلمُوا أنَّ الله مَعَ المُتقين﴾ [التوبة: ١٢٣] وهكذا قوله سبحانه ﴿وقاتلوا المُشركين كَافةً كَمَا يقاتلونكم كَافةً واعلَمُوا أنَّ اللَّه مَعَ المُتَّقينَ﴾ [التوبة: ٣٦] وهكذا قوله سبحانه ﴿وقاتلوهم حتَّى لا تكُونَ فتنَةٌ ويكُونَ الدينُ كُلُّه لله﴾ [الأنفال: ٣٩] فهذه الآيات ومافى معناها قال بعض أهل العلم ليست ناسخة لآيات الكف عمن كف عنا وقتال من قاتلنا وليست ناسخة لقوله ﴿لا إِكراه فِى الدين﴾ [البقرة :٢٥٦] ولكن الأحوال تختلف فإذا قوى المسلمون وصارت لهم السلطة والقوة والهيبة استعملوا آية السيف وما جاء فى معناها وعملوا لها وقاتلوا جميع الكفار حتى يدخلوا فى دين الله أو يؤدوا الجزية إما مطلقاً كما هو قول مالك رحمه

الله ـ وجماعة، وإما من اليهود والنصارى والمجوس على القول الآخر، وإذا ضعف المسلمون ولم يقووا على قتال الجميع فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم ويكفوا عمن كف عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك فيكون الأمر إلى ولى الأمر إن شاء قاتل وإن شاء كف وإن شاء قاتل قوماً دون قوم على حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين لا على حسب هواه وشهوته ولكن ينظر للمسلمين وينظر لحالهم وقوتهم فإن ضعف المسلمون استعمل الآيات المكية، لما فى الآيات المكية من الدعوة والبيان والإرشاد والكف عن القتال عند الضعف، وإذا قوى المسلمون قاتلوا حسب القدرة فيقاتلون من بدأهم بالقتال وقصدهم فى بلادهم ويكفون عمن كف عنهم فينظرون فى المصلحة التى تقتضيها قواعد الإسلام وتقتضيها الرحمة للمسلمين والنظر فى العواقب كما فعل النبى ﷺ فى مكة وفى المدينة أول ماهاجر، وإذا صار عندهم من القوة والسلطان والقدرة والسلاح مايستطيعون به قتال جميع الكفار أعلنوها حرباً شعواء للجميع، وأعلنوا الجهاد للجميع كما أعلن الصحابة ذلك فى زمن الصديق وعمر وعثمان ـ رضى الله عنهم ـ وكما أعلن ذلك الرسول ـ ﷺ ـ فى حياته بعد نزول آية السيف وتوجه إلى تبوك لقتال الروم وأرسل قبل ذلك جيش مؤتة لقتال الروم عام ٨ من الهجرة وجهز جيش أسامة فى آخر حياته ﷺ وهذا القول ذكره أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ واختاره وقال إنه ليس هناك نسخ ولكنه اختلاف فى الأحوال لأن أمر المسلمين فى أول الأمر ليس بالقوى وليس عندهم قدرة كاملة أذن لهم بالقتال فقط. ولما كان عندهم من القدرة بعد الهجرة مايستطيعون به

الدفاع أمروا بقتال من قاتلهم وبالكف عمن كف عنهم فلما قوى الإسلام وقوى أهله وانتشر المسلمون ودخل الناس فى دين الله أفواجاً أمروا بقتال جميع الكفار ونبذ العهود وألا يكفوا إلا عن أهل الجزية من اليهود والنصارى والمجوس إذا بذلوها عن يد وهم صاغرون. وهذا القول اختاره جمع من أهل العلم واختاره الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند قوله جل وعلا فى كتابه العظيم ﴿وَإِن جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَح لَهَا وَتَوَكَّل عَلَى الله إِنهُ هُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ١].

وهذا القول أظهر وأبين فى الدليل لأن القاعدة الأصولية أنه لايصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الأدلة، والجمع هنا غير متعذر، كما تقدم بيانه والله ولى التوفيق.

أما مايتعلق بالجزية فقول من قال إنها تؤخذ من الجميع أظهر إلا من العرب خاصة.

ووجه ذلك ماثبت فى الصحيح عن بريدة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا بعث أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «امض باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله» فعلق الحكم بالكفر، فدل ذلك على أنهم يقاتلون لكفرهم، إذا كانوا من أهل القتال، كما تدل عليه آيات أخرى.

ثم قال ﷺ «اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» ثم قال بعد هذا: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال: فأيتهن

أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الاسلام» ثم قال بعد ذلك: «فإن أبو فاسألـهم الجزية»، ثم قال بعد ذلك: «فإن أبـوا فاستعن بالله وقاتلهم» فأمر ﷺ أميره على الجيش والسرية أن يدعوا الأعداء أولاً للإسلام، فإن أجابوا كف عنهم فـإن أبوا دعاهم الى الجزية، فإن أجابوا كف عنهم، وإلا فاستعان بالله وقاتلهم، ولم يفرق بين اليهود والنصارى وغيرهـم، بل قال: «عدوك مـن المشركين». وهذا يـظهر من الـعموم، ولكن ذكر شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله أن عامة الـعلماء لم يروا أخذها مـن العرب. قالـوا لأن رسول الله ﷺ وهـو الذى تنزل عـليه الآيات، وهو أعـلم بمعنـاها لم يأخذهـا من العرب، بـل قاتلهـم حتى دخلوا فى الإسـلام. وهكذا الصحابة بعـده لم يقبلوها مـن عربي، بل قاتلوا العرب فى الجزيرة حتى دخلوا كلهم فى دين الله. والله جل وعلا قال فى حـقهم وغيـرهم: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَـامُوا الصـلاة، وآتـوا الزكـاة فَخَلُّوا سَبيلَهُم﴾ [التوبة: ٥] وقال فـى الآية الأخـرى: ﴿فَإِخوَانُكُم فِى الـدين﴾ [التوبة: ١١]، ولم يذكر الجزية فى هذا المكان.

فالقول بأنها لاتؤخذ مـن العرب هو الأقوى والأظهر والأقرب، وأما من سواهم فقول من قال بعموم النص ـ أعني حديث بريدة ـ أظهر أخذاً بالأدلة من القرآن والسنة جميعاً، ولأن المقصود من الجهاد هو إخضاعهم للحق، ودعوتهـم إليه، وأن يكفوا عنا أذاهم وظلمهـم، فإذا فعلوا ذلك ودخلوا فـى دين الله، فـالحمد للـه، وإن أبوا طالبـناهم بالجـزية، فإن بذلوها والتزموا الصـغار والشروط التى تملى عليهم قبلناهـا منهم وكففنا عنهم.

فإن أبوا أن يدخلوا فى الإسلام، وأن يبذلوا الجزية قاتلناهم، لما فى ذلك من المصلحة لهم وللمسلمين، ولأن ذلك هو الموافق لحديث بريدة رضى الله عنه مع الآيات فى اليهود والنصارى، ومع حديث عبدالرحمن فى المجوس.

أما العرب فإن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يأخذوها منهم، وهكذا من بعدهم الأئمة، ويتضح من سيرتهم وعملهم أنه لايجوز أن يبقى العرب على الشرك بالله أبداً، بل إما أن يحملوا هذه الرسالة، ويبلغوها الناس، وإما أن يقضى عليهم، فلا يبقوا فى الأرض.

أما بقاؤهم بالجزية فغير لائق.. ولهذا جرى النبى ﷺ وأصحابه وخلفاؤه، على عدم قبولها من العرب، وإنما قبلوها من الأعاجم كالمجوس وأشباههم، كما قبلوها من اليهود والنصارى.

أما قول من قال: بأن القتال للدفاع فقط، فهذا القول ما علمته لأحد من العلماء القدامى: أن الجهاد شرع فى الاسلام بعد آية السيف للدفاع فقط، وأن الكفار لايبدأون بالقتال وإنما يشرع للدفاع فقط.

وقد كتب بعض إخواننا رسالة فى الرد على هذا القول وفى الرد على رسالة افتراها بعض الناس على شيخ الإسلام ابن تيمية، زعم فيها أنه يرى أن الجهاد للدفاع فقط، وهذا الكاتب هو فضيلة العلامة: الشيخ سليمان بن حمدان ـ رسالة ذكر فيها أن هذا القول منقول عن بعض أهل الكوفة، وإنما اشتهر بين الكتاب مؤخرا. وأما العلماء فلم يشتهر بينهم، وإنما المعروف بين العلماء أن الرسول ﷺ بعد ما هاجر أذن له فى

القتال مطلقاً، ثم فرض عليه الجهاد وأمر بأن يقاتل من قاتل، ويكف عمن كف، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه الآيات الآمرة بالجهاد مطلقاً، وعدم الكف عن أحد حتى يدخل فى دين الله، أو يؤدى الجزية إن كان من أهلها كما تقدم.

وهذا هو المعروف فى كلام أهل العلم، وقد تقدم ذكر قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى الجمع بين النصوص وأنه هو الأقرب ولا نسخ، وإنما تختلف الأحوال بقوة المسلمين وضعفهم: فإذا ضعف المسلمون جاهدوا بحسب حالهم، وإذا عجزوا عن ذلك اكتفوا بالدعوة، وإذا قووا بعض القوة قاتلوا من بدأهم ومن قرب منهم، وكفوا عمن كف عنهم، وإذا قووا وصار لهم السلطان والغلبة، قاتلوا الجميع وجاهدوا الجميع حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية، إلا من لا تؤخذ منهم كالعرب. عند جمع من أهل العلم.

وقد تعلّق بعض الكتاب الذين قالوا: إن الجهاد للدفاع فقط، بآيات لا حجة لهم فيها، وقد سبق الجواب عنها، ويأتى مزيد لذلك إن شاء الله.

ومعلوم أن الدفاع قد أوجبه الله على المسلمين ضد من اعتدى عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُم فاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثْلِ ما اعتَدى عَلَيكُم وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ المُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وكما فى الآيات السابقة.

والإسلام جاء بدعوة الكفار أولاً إلى الدخول فيه، فإن أبوا فالجزية

فإن أبوا وجب قتالهم مع القدرة كما تقدم فى حديث بريدة، وإن رأى ولى الأمر المصالحة، وعدم القتال لأسباب تتعلق بمصلحة المسلمين، جاز ذلك لقوله سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ الآية [الأنفال: ٦١] الآية، ولفعله ﷺ مع أهل مكة يوم الحديبية.

وبذلك يعلم أنه لا حاجة للقتال إذا نجحت الدعوة، وأجاب الكفار إلى الدخول فى الإسلام.

فإن احتيج للقتال قوتل الكفار حينئذ بعد الدعوة والبيان والإرشاد فإن أبوا فالجزية إن كانوا من أهلها، فإن أبوا وجب القتال أو المصالحة حسبما يراه ولى الأمر للمسلمين، إذا لم يكن لدى المسلمين قدرة على القتال، كما تقدم. وقد تعلق القائلون بأن الجهاد للدفاع فقط بآيات ثلاث:

الأولى: قوله جل وعلا: ﴿وقاتلوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الذينَ يقاتلونكم وَلا تَعتَدوا﴾ [البقرة: ١٩٠] والجواب عن ذلك كما تقدم أن هذه الآية ليس معناها القتال للدفاع، وإنما معناها القتال لمن كان شأنه القتال: كالرجل المكلف القوى، وترك من ليس شأنه القتال: كالمرأة والصبى ونحو ذلك، ولهذا قال بعدها: ﴿وقاتلوهم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدينُ لِلّه﴾ [البقرة:١٩٣].

فاتضح بطلان هذا القول، ثم لو صح ماقالوا، فقد نسخت بآية السيف وانتهى الأمر بحمد الله.

والآية الثانية: التى احتج بها من قال بأن الجهاد للدفاع هى قوله تعالى: ﴿لا إِكرَاهَ فِى الدين﴾[البقرة: ٢٥٦] وهذه لا حجة فيها لأنها على

الأصح مخصوصة بأهل الكتاب والمجوس وأشباههم، فإنهم لايكرهون على الدخول فى الإسلام إذا بذلوا الجزية، هذا هو أحد القولين فى معناها.

والقول الثانى أنها منسوخة بآية السيف ولا حاجة للنسخ بل هى مخصوصة بأهل الكتاب كما جاء فى التفسير عن عدة من الصحابة والسلف فهى مخصوصة بأهل الكتاب ونحوهم فلا يكرهون إذا أدوا الجزية وهكذا من ألحق بهم من المجوس وغيرهم إذا أدوا الجزية فلا إكراه، ولأن الراجح لدى أئمة الحديث والأصول أنه لايصار الى النسخ مع إمكان الجمع، وقد عرفت أن الجمع ممكن بما ذكرنا. فإن أبوا الإسلام والجزية قوتلوا كما دلت عليه الآيات الكريمات الأخرى

والآية الثالثة: التى تعلق بها من قال إن الجهاد للدفاع فقط قوله تعالى فى سورة النساء ﴿فَإِن اعتزَلُوكُمْ فَلَم يقاتلوكم وأَلْقَوا إليكُمُ السَّلَم فَما جَعَل الله لَكُم عَلَيْهم سَبيلاً﴾ [النساء: ٩٠] قالوا من اعتزلنا وكف عنا لم نقاتله. وقد عرفت أن هذا كان فى حال ضعف المسلمين أول ما هاجروا الى المدينة ثم نسخت بآية السيف وانتهى أمرها أو أنها محمولة على أن هذا كان فى حالة ضعف المسلمين فإذا قووا أمروا بالقتال كما هو القول الآخر كما عرفت وهو عدم النسخ. وبهذا يعلم بطلان هذا القول وأنه لا أساس له ولا وجه له من الصحة، وقد ألف بعض الناس رسالة افتراها على شيخ الإسلام ابن تيمية وزعم أنه لايرى القتال إلا لمن قاتل فقط، وهذه الرسالة لاشك أنها مفتراة وأنها كذب بلا ريب وقد انتدب لها الشيخ العلامة سليمان بن سحمان رحمة الله عليه ورد عليها منذ أكثر من

خمسين سنة وقد أخبرني بذلك بعض مشايخنا، ورد عليه أيضا أخونا العلامة الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله القاضي سابقا في المدينة المنورة كما ذكرنا آنفا ورده موجود بحمد الله وهو رد حسن واف بالمقصود فجزاه الله خيراً. وممن كتب في هذا أيضا أخونا الشيخ صالح ابن أحمد المصوعي ـ رحمه الله ـ فقد كتب فيها رسالة صغيرة، فند فيها هذه المزاعم وأبطل ماقاله هؤلاء الكتبة بأن الجهاد في الإسلام للدفاع فقط، وصنف أيضا أخونا العلامة أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ رسالة في الجهاد وبين فيها بطلان هذا القول وأنه قول لا أساس له من الصحة. ومن تأمل أدلة الكتاب والسنة ونظر في ذلك بعين البصيرة وتجرد عن الهوى والتقليد عرف قطعا بطلان هذا القول وأنه لا أساس له ومما جاء في السنة في هذا الباب مؤيدا للكتاب العزيز ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»..

وما رواه الشيخان أيضا من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

قال رسول الله ـ ﷺ: ـ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصلوا صلاتنا وأكلوا ذبيحتنا واستقبلوا قبلتنا فلهم مالنا وعليهم ماعلينا».

ومن ذلك مارواه مسلم فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . . ومن هذا ما رواه مسلم فى الصحيح أيضا عن طارق بن أشيم الأشجعى - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال: «من قال لا إله إلا الله وفى لفظ من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» والاحاديث فى هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على أن القتال شرع لإزالة الكفر والضلال ودعوة الكفار للدخول فى دين الله - لا لأنهم اعتدوا علينا فقط ولهذا قال ﷺ: فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ولم يقل فإذا كفوا عنا أو اعتزلونا، بل قال حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك. . الحديث، فدل ذلك على أن المطلوب دخلوهم فى الإسلام وإلا فالسيف، إلا أهل الجزية كما تقدم وإنما اقتصر عليه الصلاة والسلام على الشهادتين والصلاة والزكاة لأنها الأسس العظيمة والأركان الكبرى فمن أخذ بها ودان بها وتمسك بها فإنه يؤدى ما وراءها عن إيمان وعن اطمئنان وإذعان من باب أولى. وهذا ما أردت التنبيه عليه باختصار وإيجاز، وأرجو أن يكون وافياً بالمطلوب من بيان الحق وإزهاق الباطل.

* * *

وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا جميعا للفقه فى دينه والاستقامة عليه وأن يهدينا صراطه المستقيم وأن يعلمناماينفعنا ويهدينا لما فيه السعادة

والنجاة وأن يوفق المسلمين جميعاً للاستقامة على دينه والجهاد في سبيله، والحذر من مكائد الأعداء إنه على كل شى قدير. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

❀ ❀ ❀

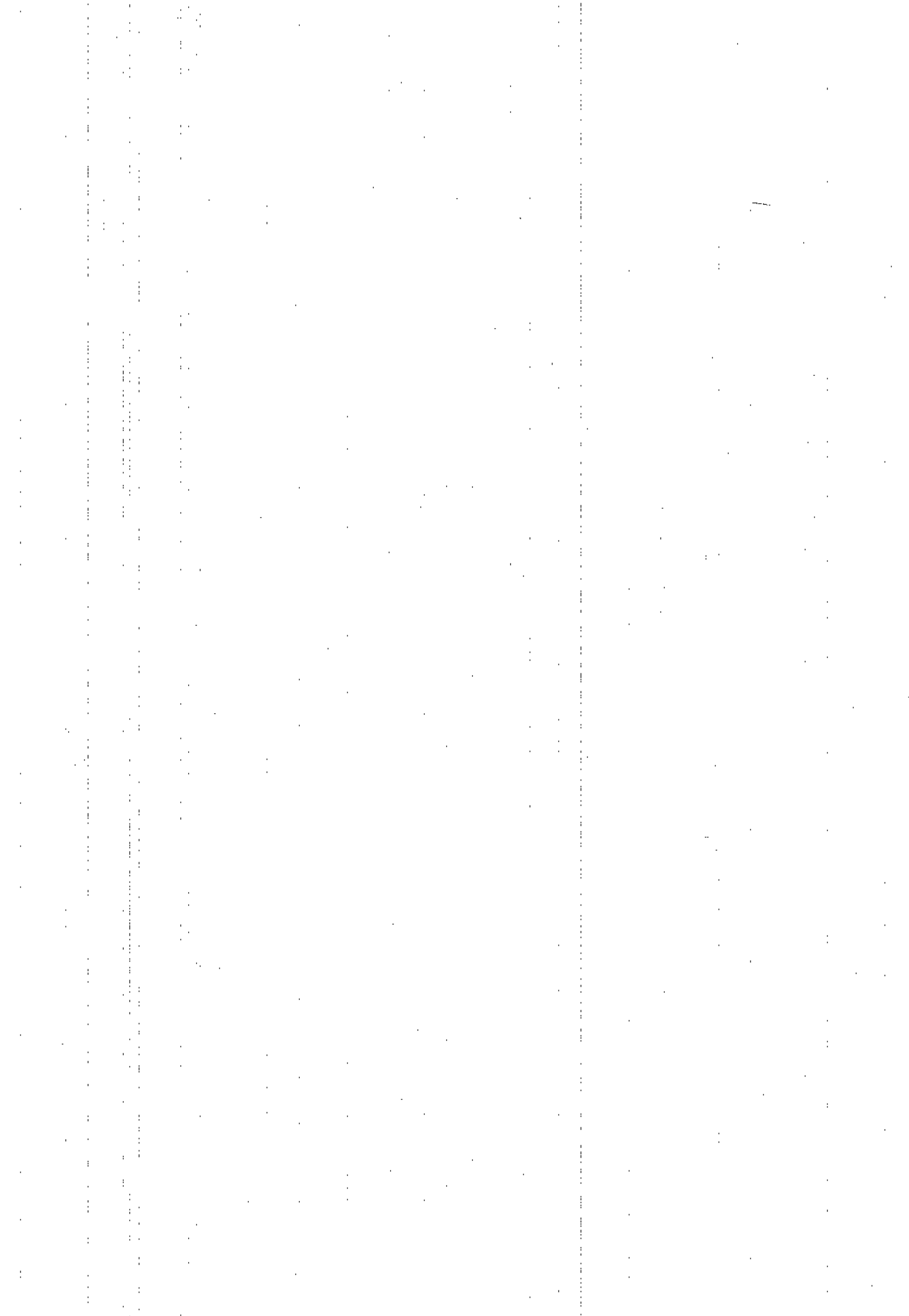
المحاضرة الخامسة عشرة:

الشريعة الإسلامية
محاسنها.. وضرورة البشر إليها

ألقاها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

(*) ألقيت بندوة رابطة العالم الإسلامي في موسم حج ١٣٨٦ ونشرت ضمن كتاب يحوى محاضرات ندوة الرابطة في هذا الموسم.



الشريعة الإسلامية ومحاسنها وضرورة البشر إليها

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده وعلى آله وصحبه، أمّا بعد:

فلما كانت المحاضرات العلمية من خير الوسائل لإيضاح الحقائق وإبراز محاسن الشيء المحاضر عنه وبسط الكلام فيه بعض البسط رأيت أن يكون موضوع محاضرتى هذه الليلة: «الشريعة الإسلامية ومحاسنها وضرورة البشر إليها». وإنما اخترت هذا الموضوع لأهميته العظيمة كما لايخفى .. فإن البحث فى الشريعة الإسلامية وما يتعلق بمحاسنها ومصالحها وعنايتها بالعباد وما يتعلق بالضرورة إليها أمر عظيم والحاجة إليه شديدة والتفقه فيه والعناية به من أهم الأشياء.. فلأهمية هذا الموضوع وعظم شأنه ومسيس الحاجة الى المزيد من الفقه فيه والبصيرة رأيت أن يكون موضوع المحاضرة. وبهذا يتضح لإخوانى المستمعين أن هذه المحاضرة ذات شقين.

أحدهما: الشريعة الإسلامية ومحاسنها.

والثانى: ضرورة البشر إليها.. وسأتكلم إن شاء الله على الشقين جميعاً.

* * *

أما الشق الأول؛ وهو مايتعلق بالشريعة الإسلامية ومحاسنها: فمن المعلوم لدى المسلمين ولدى كل من له أدنى علم بالواقع فى الأزمان الماضية أن الله جل وعلا بعث الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام بدين

الإسلام من أولهـم نوح إلى آخرهم محمـد عليهم الصـلاة والسلام بل أبونا آدم عليه السلام كان على الإسـلام والقرون التى كانت بعده إلى أن حدث الشرك فـى قوم نوح. . كلهم كـانوا على الإسلام كمـا قال ابن عباس رضى الله عنهما، ثم حدث الشـرك فى قوم نوح بعبادة الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونـسر فأرسل الله نوحاً عليـه الصلاة والسلام إلى قومه لما وقـع فيهم الشرك، وكان أول رسول إلـى أهل الأرض كما جاءت به الأحاديـث الصحيحة عن رسـول الله عليه الـصلاة والسلام.

فالرسل عليهم الصلاة والسلام جميـعاً بعثهم الله من أولهم إلى آخرهم بدين الإسلام كمـا قال الله عز وجـل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِند الله الإسـلام﴾ [آل عمران: ١٩] فأوضح سبحانه أن الدين عنده هو الإسلام لا دين سواه عنده سبحانه وتعالى. ثم أكد ذلك سبحانه بآية أخرى فقال جل وعلا: ﴿وَمَن يبتغِ غَيـرَ الإسلام ديناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ منَ الخـاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥] فبين عز وجل أن جميع الطرق مسدودة إلا هذا الطريق وهو الإسلام وأوضح سبحـانه وتعالى أن الإسلام هـو الدين الذى يقبـل من جاء من طريقة، ومن جاء من غير طريقه لا يقبل، وقال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لـكُم دِيـنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتـى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسـلام دِيـناً﴾ [المائدة: ٣] فخاطب هذه الأمة على يد رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بأنه أكمل لها الدين وأتم علـيها النعمة ورضى لها الإسلام ديـناً فدل ذلك على أن دين الإسلام هو ديـن محمد عليـه الصلاة والسلام وهو ديـن هذه الأمة كما أنه هو دين الأنبياء الماضين والرسل أجمعين عليهم الصلاة والسلام.

ثم أيد ذلك بقولـه سبحانه ﴿شَرَعَ لَكـم مِنَ الدّيـنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والـذِى أَوْحَيْنَا إِلَيكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وموسى وَعيسَى أَنْ أقيموا الدينَ ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ عَلَى المشـركين مـا تدعـوهم إِلـيهِ الله يَجـتبـى إِليـه منَ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلـيه مَن يُنيبُ﴾[الشورى: ١٣] فخاطب هذه الأمة بأنه شرع لهم من الدين ما وصى به نوحاً. والذى أوحينا إليك يعنى يـا محمد عليه الصلاة والسلام. فالله جل وعـلا شرع لهـذه الأمة ما وصى بـه نوحاً مـن إقامة أمـر الإسلام والاستقامة عـليه والاجتماع عليـه وما أوحى به إلى محمد عـليه الصلاة والسلام من الاستـقامة فى الدين والاجتمـاع عليه كما فى قولـه تعالى: ﴿واعتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣] وبقوله جل وعلا: ﴿وَلا تكونوا كالـذين تَفَرقُوا واخْتَلَفُـوا مـن بَعْدِ مَـا جَاءَهُمُ البينات﴾

[آل عمران:١٠٥] فعلم بهذا أنـه شرع لنا سبحانه ما شرع لـلأنبياء الماضين والرسل الأقدمين﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن ملة إِبْراهيم إلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصطفيناه فى الـدُّنْيَا وَإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِن الصـالحين إِذْ قَال لهُ ربهُ أَسْلِـمْ قال أسلـمت لِرَبِّ العـالمين. وَوَصَّى بِهَا إِبْراهيم بـنيه وَيَعْقُوبُ يـابنى إِنَّ الله اصطَفَى لَكُمُ الـدينَ فَلا تَمُوتُن إِلا وَأَنتم مُّسلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢] فبين سبحانه أن إبراهيم وصى ذريته بـالإسلام وهكذا يـعقوب أوصى بـنيه بذلـك وذكر عن نوح عـليه الصلاة والسلام أيضاً ما يدل علـى ذلك فقال جل وعلا فى سورة يونس فى قصة نوح أنـه قال لقومه: ﴿وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٧٢] وقال عن موسـى أنه قال: ﴿ياقـوم إن كُنتُم ءامَنتُم بالله فَعَلَيـه تَوكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلمينَ﴾[يونس: ٨٤] وقال عن بلقيس: ﴿قَالتْ رَبِّ إِنى ظَلَمْت نفْسِى وَأسلمت

مَعَ سليمان لله رَبِّ العالمين﴾ [النمل:٤٤] فعلم بهذه الآيات وما فى معناها أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً وهو دين الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام وأنه دين الله حقاً لا دين له سواه، ولا يقبل من أحد ديناً سواه، وهو الدين الذى أمر الرسل بإقامته. وحقيقته توحيد الله عز وجل فى ملكه وتدبيره وأفعاله وفى عبادته سبحانه وفى أسمائه وصفاته والانقياد لأمره وقبول شريعته والدعوة إلى سبيله والاستقامة على ذلك والاجتماع عليه وعدم التفرق فيه وهذا هو الدين الذى أمرنا بإقامته وأمر الله الرسل ومن بعدهم بإقامته كما قال تعالي: ﴿أنْ أقيمُوا الدّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾[الشورى:١٣] فإقامة الدين معناها قبوله والتزامه وإظهاره والدعوة إليه والسير عليه والثبات عليه واجتماع على ذلك قولا وعملاً وعقيدة وعدم التفرقة فى ذلك وبهذا تجتمع كلمة المسلمين ويتحد صفهم ويقوى جانبهم ويهابهم عدوهم.

هكذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أمروا بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ولا يخفى على ذى اللب ما فى إقامة الدين والاجتماع عليه وعدم التفرق من قوة المسلمين وتمكنهم من أخذ حقوقهم من أعدائهم وانتصافهم منهم وهيبة الأعداء لهم فى نفس الوقت لما يشاهدونه من اتحادهم واجتماعهم وإقامتهم دينهم وتعاونهم فى ذلك وتواصيهم به. فالاجتماع والاتحاد والتعاون الصادق على الحق فى كل أمة لاشك أنه سر النجاح وطريق الفوز والكرامة فى الدنيا والآخرة فعلمنا بهذا أن جميع

الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أرسلوا بالاسلام وكلهم دعوا إلى الإسلام وكلهم دينهم الإسلام وكلهم أمروا بإقامة الإسلام، وإقامته كما تقدم إظهاره للناس ودعوتهم إليه والاستقامة عليه علماً وعملاً وعقيدة والاجتماع على ذلك. وذلك بالإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وتلقى ما جاء به الرسول الأمين بالقبول والعمل والاجتماع على ذلك والحذر من الخلاف والتفرق وبهذا يزداد الداخلون فى الدين ويعظمون أمر الدين ويعظمون الدعاة إليه ويعرفون صلاحه لكل عصر وأنه دين حق من تمسك به أفلح ونجح وفاز بالعزة والكرامة والاتحاد والقوة والاجتماع مع إخوانه. فدين نوح وهود وصالح ومن بعدهم من الأنبياء هو الإسلام عقيدة وشريعة.. فالعقيدة التى هى الإيمان بالله ورسوله المبعوث فى كل وقت بالنسبة إلى القوم المبعوث إليهم هى الإسلام بالنسبة إليهم وهو إيمانهم بما جاء به رسولهم وتوحيدهم لربهم وانقيادهم للشرع واجتماعهم عليه بالأقوال والأعمال والعقيدة لكن لكل نبى شريعة ولكل رسول شريعة كما قال الله جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] وماذاك إلا لأن ظروف الناس وأحوالهم وتحملهم للتكاليف وإدراكهم للمقصود يتفاوت كثيراً فليست عقول الناس فى جميع الأزمنة على حد سواء وليست ظروفهم وأحوالهم وقدرهم على حد سواء فالله جل وعلا هو العليم بأحوال العباد وهو الخبير بمدى استطاعتهم وهو العليم بمدى تقبلهم الحق وبحقيقة العقول التى يحملونها وهو سبحانه يرسل الرسل فى كل وقت

وفى كـل أمة بما يلـيق بذلك الـوقت وبتلـك الأمة لأن ذلك هو الـلائق بحكمته وعلـمه ورحمته وإحسانه سبحانه وتعالـى. . فليس قوم نوح فى العقول والـتحمل والتقـبل لما يجيء به الـرسول كأمة موسى مـثلاً فبين النـاس فروق كبيـرة في أوقاتهـم وعقولهـم ولغاتهـم وعوائدهم وغـير ذلك. . فكان من حكمة الله عز وجـل أن كانت الشرائع وهى الأحكام متنوعة ومتفاوتة أما الأصل فمـتحد الذى هو عبادة الله وتوحيده والإيمان به والإيمان برسله والإيمان بملائكته والـيوم الآخر والكتب والإيمان بالقدر والإيمان بإقامة الدين والاجتماع عليه وإقـامة الشريعة وطاعة الرسول فيما جاء به، هذا أمـر متفق عليه بين الـرسل عليهم الصـلاة والسلام، وهذه أصول اجتمعوا عليها ودعـوا إليها كما قال الله جل وعلا: ﴿ولَقَد بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولا أَنِ اعْبُدُوا الله واجـتـنبُوا الـطَّاغـوت﴾[النحل:٣٦] هذه دعوتـهم جميعا يدعون الناس إلى عبادة الله والـتوجه إليه وتوحيده فى العبادة دون كـل ما سـواه فى كـل شيء مـن صـلاة وصوم وغـير ذلـك وقال عـز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُول إِلا نُوحِى إِلَيه أَنَّهُ لا إِلـــه إلا أَنا فاعبدون﴾[الأنبياء:٢٥] وقال عز وجل ﴿وإِذ أَخَذَ الله ميثاق النبـيين لَمَا ءاتيتكم مـن كـتـاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَآ مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِه ولَتَنصُرُنَّه قَالَ، أَأَقررْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فـاشـهـدوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشاهدين فَمَن تَوَلَّى بَعْد ذَلِكَ فأولئك هُمُ الفاسقون﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢] وقال عز جل: ﴿قُولُوا ءَامَنَا بِالله وَمَا أُنـزل إِلَينا وَمَا أُنـزِلَ إِلـى إبراهـيم وإسـمـاعيـل وإسحاق وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِى مُوسى وَعِيسَى وَمَا أُوتِى النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهم لا

نُفَرّق بين أَحَد منـهم ونَحنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[البقرة: ١٣٦] فعلم بـذلك أن الرسل جاءوا بهذا وأن علينا أن نؤمن بذلك وأن نقبل ذلك وألا نفرق بين الرسل فى هذه الأشـياء كما قـال عز وجل﴿ءَامَنَ الـرَّسُول بِمَا أُنـزِل إِلَيْه مِن رَّبـه وَالْمُؤْمنُونَ كُل ءَامَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرق بَيْنَ أَحَدٍ من رُّسُله وقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيـكَ المَصِيـر﴾[البقرة: ٢٨٥] فلما كانـت الشرائع مختلفة متنوعة على حسب حكمة الله وعلمه بأحوال العباد وعلى حسب الظـروف فى الأمم المرسلـة إليهم الـرسل وأحوالهـم وعقولهـم ومدى تحملهـم للشرائع والتكـاليف كانت الشرائـع مختلفة قد يـجب فى هذه الشريعـة ما لا يجب فى هذه الشريـعة وقد يحرم فى هذه الشـريعة مالا يحرم فى هـذه الشريعة لحكـة بالغة وأسرار عظيـمة اقتضتهـا حكمة الله وعلـمه وقدرتـه وكمال إحـسانه وجـوده جل وعلا. وقـد يكون بـعض التـشديد فـى بعض الـشرائـع وبعض الآصـار والأغلال لحكـم وأسرار اقتضت ذلك وقد يـكون من أسباب ذلك عصيان الأمة الـتى أرسل إليها الرسول وجرأتها علـى الله وعدم مبالاتها بأوامره ونواهيه فيـشدد عليهم فى التشـريع لأسباب ذلك كمـا قال عز وجل: ﴿فَبِظُلْم مّنَ الذيـنَ هَادُوا حَرّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبـات أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدّهِمْ عن سَبَيل الله كَثِيـراً وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَموالَ النَّاس بالباطل﴾[النساء: ١٦٠، ١٦١] فبين سبحانه أنه حرم على بنى إسرائيل من اليهود طيبات أحلت لهم بأسباب أعمالهم الخبيثة، ولما كان نبـينا محمد عـليه الصلاة والسـلام هو الخاتم للأنبيـاء والرسل جميعاً كانت شريـعته أكمل الشرائع وأتمها لكونها شريـعة خاتمة للشرائع

ولكونها شريعة عامة لجميع الأمة إلى يوم القيامة فلما كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وكان رسولا عاماً إلى جميع الثقلين اقتضت حكمة الله سبحانه أن تكون شريعته أوفى الشرائع وأكملها وأتمها انتظاماً لمصالح العباد في المعاش والمعاد فهو عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النبيين﴾[الأحزاب: ٤٠] وتواترت الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنه خاتم النبيين. وهذا أمر بحمد الله مجمع عليه ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام. وقد أجمع المسلمون على أن من ادعى النبوة بعده فهو كافر كاذب يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً. والله سبحانه وتعالى قد أرسله إلى الناس كافة بإجماع المسلمين أيضاً، وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع، إلى العرب والعجم والأحمر والأسود والجن والإنس هو رسول الله إلى الجميع من حين بعثته عليه الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة كما يدل على ذلك قوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جميعاً الذى لَهُ مُلْكُ السماوات وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إلا هُوَ يحيى ويميت فآمنوا بالله وَرَسُولِهِ النَّبِى الأُمِّى الذي يُؤْمِنُ بالله وكلماته وَاتَّبِعُوه لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨] فعلق الله جل وعلا الهداية على اتباعه والإيمان به فعلم أن لا هداية ولا إيمان إلا من طريق اتباع محمد عليه الصلاةوالسلام والسير على منهاجه بعد ما بعثه الله. قال عز وجل: ﴿قُلْ إن كنتم تُحِبونَ الله فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ الله ويَغفر لكُمْ ذُنُوبكُمْ﴾[آل عمران: ٣١] أمر الله نبيه ﷺ أن

يقول للناس قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، فعلم أنه لا طريق إلى محبة الله ومغفرته إلا باتباعه عليه الصلاة والسلام. وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أرسلناك إلا كافة للنّاس بَشيراً ونَذيراً﴾[سبأ:٢٨] يعنى إلى الناس كافة. وقال جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ الذى نزل الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْده ليَكُونَ للعالمين نذيراً﴾[الفرقان: ١] فأخبر جل وعلا أنه نذير للعالمين، والعالمون هم جميع الناس، وقيل إنه القرآن وقيل إنه الرسول وكلاهما حق فهو نذير للعالمين والقرآن نذير للعالمين. فهو نذير وكتابه نذير للعالمين للمخلوقات كلها العقلاء المكلفين من الجن والإنس. وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال: قال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام: «كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار» وهذا أمر معلوم من دين الإسلام بالضرورة أنه رسول الله إلى الجميع إلى اليهود والنصارى والعرب والعجم وجميع أجناس بنى آدم وجميع الجن من أجاب دعوته وسار فى سبيله فله النجاة والسعادة والعاقبة الحميدة ومن حاد عن سبيله فله الخيبة والندامة والنار كما قال جل وعلا: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَن يُطعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرى من تَحْتها الأنهار خالدين فِيها وذلكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ومن يَعْص الله ورسُوله ويتعدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فِيها وَلَهُ عَذَاب مُّهِين﴾[النساء:١٣-١٤] وقال عز

وجل: ﴿وَمَا آتاكم الرّسُولُ فَخُذوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فَانتهُوا واتقُوا الله إنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَاب﴾ [الحشر:٧] وقال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى» قيل يا رسول الله ومن يأبى قال: «من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى» وما ذلك إلا لأن رسالته عامة وهو خاتم النبيين، لهذا كله كانت شريعته أكمل الشرائع وكانت أمته خير الأمم كما قال جل وعلا: ﴿كنتم خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ للنّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُم وَأَتممتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام ديناً﴾[المائدة: ٣] فأخبر سبحانه أنه أكمل لهذه الأمة دينها والأديان السابقة كل واحد مكمل بالنسبة إلى الرسول الذى أرسل به والقوم الذين أرسل إليهم إكمالا يناسبهم ويليق بظروفهم وأحوالهم أما بالنسبة إلى هذه الأمة فقد أكمل لها الدين فى جميع المعانى وجعله ديناً صالحاً لجميع ظروفهم وأحوالهم وغناهم وفقرهم وحربهم وسلمهم وشدتهم ورخائهم وفى جميع أصقاع الدنيا وفى جميع الزمان إلى يوم القيامة.
وقد أردت أن أذكر شيئاً يسيراً من محاسن هذه الشريعة وأسرارها العظيمة. أما الاستقصاء فلا يخفى على من له أدنى علم أنه لا يمكن أن يستقصى أحد محاسن هذه الشريعة، كيف يستطيع أحد أن يحصى فضائلها وهى شريعة من حكيم عليم قد علم كل شيء فيما مضى وفيما يأتى إلى يوم القيامة وهو العالم بأحوال عباده وأسرار تشريعه سبحانه وتعالى ولكن حسب طالب العلم أن يذكر شيئاً من محاسن هذه الشريعة فالله جل وعلا قال: ﴿ثُمَّ جعلناك عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولا

تتبع أَهْوَاءَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُم لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ الله شَيْئا وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُم أَوْلِيَاء بَعْض وَالله وَلى الْمُتَّقِينَ﴾[الجاثية: ١٨، ١٩].

أخبر الله سبحـانه وتعالى أنه جعل نـبيه محمداً عليـه الصلاة والسلام على شريعة من الأمر والمعنى على طريقة بينة واضحة ظاهرة من الأمر أى من الدين القويم وهـو دين الإسلام ثم قال: فاتبعها أى الـزمها وتمسك بها وهو أمر له عـليه الصلاة والسلام وأمر لجميع الأمـة بذلك فالأمر له أمر لنـا إلا ما دل الدليـل على تخصـيصه به علـيه الصلاة والسـلام ثم قال: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذيـنَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨] يحذر سبحـانه من اتباع أهواء الناس وكل من خـالف الشريعة فهو من الذين لا يـعلمون ثم بين جل وعلا أن الناس لن يغنوا عنه من الله شيـئا يعنى لو مال إليهم واتبع أهواءهم والله يعصمه من ذلك فلن يغنوا عنه من الله شيئا فالأمر بيد الله وهو القادر على كـل شيء جل وعلا فلا يمنع أحد رسوله عـليه الصلاة والسلام مما أراده الله به مـن عزة ونصر فالمقصود من هذا بـيان أن النصر والتأييد بيده سبـحانه وتعالى وأنه كفيل بنصره وتأييـده وتبليغ رسالته وأن الناس مهـما كانوا من قوة وكـثرة فلن يغنـوا عنه من الله شيئـاً فلا وجه للميـل إليهم واتباع أهوائهـم وهذا من باب التحذيـر وإلا فالرسول ﷺ معصـوم من اتباع أهوائـهم فالله قد عصمـه وصانه وحماه وأيـده ولكن المقصود تعليمنا وإرشادنا أن السـعادة والنجاة والقوة والعزة والسلامة فى اتباع الشريـعة والتمسك بها والدعوة إلـيها والحفاظ عليها والـشريعة فى

اللغة العربية الطريقة الظاهرة البينة الموصلة إلى النجاة وتطلق الشريعة فى اللغة العربية أيضاً على الطريق الموصل إلى الماء وما ذلك إلا لأنه يوصل إلى الحياة كما قال جل وعلا: ﴿وجعلنا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حي﴾[الأنبياء: ٣٠].. فالشرائع التى جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام طرق ظاهرة بينة واضحة لمن تأملها توصل من استقام عليها واتبعها وأخذ بها إلى النجاة والسعادة والحياة الطيبة الكريمة فى الدنيا والآخرة فشريعة نبينا عليه الصلاة والسلام أفضلها وأكملها وليس فيها آصار ولا أغلال قد وضع الله عن هذا النبى وعن أمته الآصار والأغلال فلله الحمد والمنة شريعة سمحة كما قال فى الحديث الصحيح: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه وقال: لما بعث معاذا وأبا موسى رضى الله عنهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا» فهذه الشريعة شريعة التيسير وشريعة المسامحة وشريعة الرحمة والإحسان وشريعة المصلحة الراجحة وشريعة العناية بكل ما فيه نجاة العباد وسعادتهم وحياتهم الطيبة فى الدنيا والآخرة. فالله جل وعلا بعث نبينا وإمامنا محمداً عليه الصلاة والسلام بشريعة كاملة منتظمة للمصالح العاجلة والآجلة فيها الدعوة إلى كل خير وفيها التحذير من كل شر وفيها توجيه العباد إلى أسباب السعادة والنجاة فى الدنيا والآخرة وفيها تنظيم العلاقات بين العباد وبين ربهم وبين أنفسهم تنظيماً عظيماً حكيماً وأهم ذلك وأعظمه ما جاءت به الشريعة العظيمة الكاملة من إصلاح الباطن

وتوجيه العباد إلى ما فيه صلاح قلوبهم واستقامتهم على دينهم وإيجاد وازع قلبى إيمانى يزعهم إلى الخير والهدى ويزجرهم عن أسباب الهلاك والردى فالله عز وجل أمر الناس فى كتابه الكريم بما فيه صلاح القلوب وإصلاح البواطن. وعنيت الشريعة بهذا أعظم عناية وفى الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من ذلك ما يشفى ويغنى وما ذلك إلا لأن صلاح الباطن واستقامة القلوب وطهارتها هو الأصل الأصيل والركيزة العظيمة لإصلاح العبد من جميع الوجوه وتأهيله لتحمله الشريعة وأداء الأمانة وإنصافه من نفسه ولأدائه الحق الذى عليه لإخوانه فكل عبد لا يكون عنده وازع قلبى من إيمان يزعه إلى الخير ويزجزه عن الشر لا تستقيم حاله مع الله ولا مع العباد، ولهذا جاءت الآيات القرآنية الكريمة بالحث على خشية الله وخوفه ومراقبته ورجائه ومحبته والتوكل عليه سبحانه والإخلاص له والإيمان به وعلق سبحانه على ذلك المغفرة والجنة والرضا والكرامة، لماذا؟ لأن العبد إذا استقام قلبه على الإخلاص لله ومحبته والإيمان به وخشيته والتوكل عليه ومراقبته فى جميع الأحوال إذا استقام قلب العبد على هذا سارع إلى أوامر الله وتقبل توجيه ربه وتوجيه رسوله عليه الصلاة والسلام بكل انشراح وبكل رضى وبكل طمأنينة من دون قلق ولا ضعف بل يستقبل ذلك بقوة وارتياح وانبساط كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الملك: ١٢] يحثهم سبحانه فى هذا على أن يخشوه جل وعلا ويعظموه ويراقبوه وقال عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦]

وقال عز وجل: ﴿فَاعْبُدِ الله مخْلصاً لَهُ الـدِّينَ أَلا لله الدينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر: ٢] وقال عز وجل: ﴿فَادْعُوا الله مُخْلصين لَهُ الـدِّينَ ولو كَرِه الكـافرون﴾[غافر: ١٤] وقال عـز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لقَاء ربـه فلـيعـمل عَمَلاً صـالحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِه أَحَدا﴾[الكهف: ١١٠] وكل هذه آيات مكية يوجه الله بها العباد إلى الإخلاص له والإيمان به وخشـيته ورجائه سبحانه وتعـالى ويقول الله عز وجل ﴿وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إِن كُنـتُم مُّؤْمنِـينَ﴾[المائدة: ٢٣] ويقول جـل وعلا: ﴿فَسوْفَ يَأْتِي الله بِقوْم يحـبهُمْ وَيحبُّونَهُ﴾[المائدة: ٥٤] ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنـتُم تُحبُّون الله فَاتـبـعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكُمْ﴾[آل عمران: ٣١] ففي هذه الآيات حث الناس على محبة الله واستحـضار عظمته والتوكل عليه والتفويض إليه فـالعبد إذا عرف الله حق المعرفة بأسمائـه وصفاته وعظيم حقه وتوكل عليـه وفوض إليه أمره واعتمد عليه مع مـسارعته إلى الأخذ بالأسباب والعمـل بها فالمتوكل قد فوض أمره إلى الله واعـتمد على ربه عز وجـل وسارع إلى فـعل الأوامر وتـرك النواهـي والأخذ بالأسـباب والعنايـة به حتى يؤدى الواجـب على أكمل وجه عـن إخلاص لله وعن محبة له واعتماد عليه وعن ثقة به عز وجل وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلكَ وَمَن يـعظـم حُرُمـات الله فَهُو خَيْر لَّهُ عِندَ ربـه﴾ [الحج: ٣٠] وقال عـز وجل: ﴿ذَلكَ وَمَن يـعَظم شـعائرَ الله فـإنهـا من تَقْوى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] هذا كله يورث القلوب وازعا عظـيماً من تعظيم شعائر الله ومن تـعظيم حرمات الله حتى يكون عند العبد وازع من قلبه ودافع من خشيته وحافز من إيمانه إلى أداء الواجبات وإلى ترك السيئـات وإلى الإنصاف من نفسه وإلى أداء

الأمانة أداء الحق الـذى عليه لأخيه ثم إنه سـبحانه وتعالى مـع ذلك كله شرع للـناس عبادات تصـلهم بالله وتقـربهم لديـه وتزكيهم وتـقوى فى قلوبهم محبته والتوكل عليه والأنس بمناجاته وذكره والتلذذ بطاعته سبحانه وتعالى شـرع لهم الطهارة مـن الحدث الأصغر والأكبر لمـا فى ذلك من استشعار تـعظيم الذى شرع هذه العبـادة التى بها تطهيرهـم من ذنوبهم وتطهيـرهم من أحداثهم وتنـظيفهم وتنشيـطهم على العمـل وجعل هذه الطهارة مفتاحـاً للصلاة التى هى أعظم عبادة وأكبر عبـادة بعد الشهادتين وشرع لهم الـصلاة فى أوقات معينـة خمسة وكانت فى الأصـل خمسين فالله جل وعلا قد لطف بعباده ويسر ورحم فـجعلها خمساً بدل خمسين وكتب لهم سبحانه أجر الخمسين وجعلها فى أوقات متعددة حتى لا يغفل العبد عن ذكر ربه وحـتى لا ينسى ربه. الفجر فى أول النهـار بعد قيامه من النوم وعند فراغ قـلبه يقبل على آيات الله وسماعهـا ويستمع للإمام فى صـلاة الفجر وهـو يقرأ جهـراً وينتـفع بذلك ويـبدأ نهاره بـذكر الله وطاعته سبـحانه وتعالى فيكـون فى هذا عون له على ملاحـظة حق الله وعلى تعظيم حرمات الله فى صحوته وفى أعماله وفى بيعه وشرائه وغير ذلك، ثم يجيء وقت الظهر فيعود إلى الصلاة وإلى الذكر وإلى العبادة، وإن كان هناك غفلة زالت بعوده إلى هذه العبادة، ثم كذلك العصر بينما هو قد اشـتغل بأعمـال داخلية أو خارجيـة فإذا الوقت الآخر قـد حضر فينـتبه ويرجع إلى ذكـر الله وطاعته عز وجـل ثم يأتى المغرب ثـم يأتى العـشاء فلا يزال فـى عبادة وذكـر فيما بـين وقت وآخر يـذكر فيهـا ربه

ويحاسب فيها نفسه ويجاهدها لله ويتقرب إليه بالأعمال التى يحبها الله سبحانه وتعالى وشرع له مع ذلك عبادات أخرى بين هذه الأوقات كصلاة الضحى وراتبة الظهر والمغرب والعشاء والتهجد بالليل إلى أنواع من العبادات والصلاة والأذكار والاستغفار والدعاء تذكره بالله وتعينه على طاعته وذكره سبحانه وتعالى هذا كله من فضله جل وعلا وعظيم إحسانه ثم جعل تعالى لهذه الصلاة نداء عظيماً على رؤوس الأشهاد ليتضمن تعظيم الله سبحانه بالتكبير والشهادة له بالوحدانية ولنبيه بالرسالة وفيه الدعوة إلى هذه الصلاة بقوله حى على الصلاة حى على الفلاح ثم التكبير لله ثم الشهادة له بالوحدانية سبحانه وتعالى فجعل أصل الدين الذى هو الإقرار بالشهادتين دعوة للصلاة ونداء لها فالعباد ينتبهون بهذا الذكر وبهذا النداء فى بيوتهم وفى مضاجعهم وفى مراكبهم وفى كل مكان ينبهون لهذه العبادة ولحق الله وعظمته بهذا النداء العظيم الذى لا يسمعه شجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد لصاحبه يوم القيامة كما جاء بذلك الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ ثم شرع الله للناس أيضاً زكاة وجعلها حقا فى أموالهم يربط الأغنياء بالفقراء ويصلهم بهم وفى ذلك فوائد كثيرة منها مواساة الفقراء والإحسان إليهم ومنها مواساة أبناء السبيل ومنها مواساة المؤلفة قلوبهم وتقوية إيمانهم ودعوتهم إلى الخير ومنها مساعدة الرقاب على العتق وفك الأسارى ومنها أيضا مساعدة الغارمين على قضاء ديونهم ومنها مساعدة الغزاة على الجهاد فى سبيل الله فهى حق عظيم فى المال يزكى صاحبه وينمى ثروته ويرضى

ربه والله مع هذا يخلفه عليه سبحانه وتعالى بأحسن خلف مع هذه الفوائد العظيمة قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصدقات للْفُقَرَاءِ والمساكين والعاملين علَيْها وَالْمؤَلَّفة قُلُوبُهُمْ وَفى الرِّقَابِ والغارمين وفى سَبِيلِ الله وَابنِ السبيل فَريضة منَ الله والله عَلِيم حكِيم﴾ [التوبة: ٦٠] ففى هذه الفريضة وفى هذا الحق شكر لله عز وجل على نعمه وقربه إليه سبحانه وتعالى بأداء هذا الحق والإنفاق من المال طاعة لله وإخلاصاً له وتقرباً إليه جل وعلا ومع ذلك فى نفس الوقت فيه إحسان للعباد ومواساة لهم ومساعدة على كل خير.

أما الصوم فكلكم يعلم ما فيه من الخير العظيم والمصالح الكبيرة التى منها تطهير النفس من أشرها وبطرها وشحها وبخلها وكبرها ومن ذلك أن الصائم يعرف بالصيام حاجته وضعفه وشدة ضرورته إلى ما أباح الله له من الطعام والشراب وغيرهما ومنها تذكير العبد بإخوانه الفقراء والمحاويج حتى يواسيهم ويحسن إليهم، ومنها تمرين العبد على مخالفة الهوى وتعويده الصبر على ما يشق على النفس إذا كان فى ذلك طاعة ربه ورضاه فالصائم فى الصيام يخالف هواه ويجاهد نفسه ويعودها الصبر عما يوافق هواها من مأكل ومشرب ومنكح فى طاعة ربها ومولاها عز وجل. وفى الصوم من الفوائد والحكم والأسرار مالا يحصيه إلا الله عز وجل وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»، يقول الله عز وجل إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلى للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم

الصائم عند الله أطيب من ريح المسك والأحاديث فى فضله وعظم شأنه كثيرة. أما الحج ففيه من الفوائد العظيمة من الصلة بالله والتقرب إليه ومفارقة الأوطان والأهل والعشيرة لأداء هذه الفريضة العظيمة وزيارة البيت العتيق مالا تحيط به العبارة فإنه فى هذه العبادة يركب الأخطار ويقطع الفيافى والقفار ويشق الأجواء يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه سبحانه وتعالى فما أحراه بالثواب الجزيل والأجر العظيم من المولى الكريم عز وجل، أما ما شرع الله سبحانه فى هذه العبادة من الإحرام والتلبية واجتناب كثير من العوائد وكشف الرجل رأسه وخلع الثياب المعتادة والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات ورمى الجمار والتقرب إلى الله سبحانه بذبح الهدايا إلى غير ذلك مما شرع الله فى الحج فمما شهدت العقول الصحيحة والفطر المستقيمة بحسنه وإنه لا حكمة فوق حكمة من شرعه وأمر به عباده. يضاف إلى ذلك مافى الحج من اتصال المسلمين بعضهم ببعض وتشاورهم فى كثير من أمورهم وتعاونهم فى مصالحهم العاجلة والآجلة واستفادة بعضهم من بعض إلى غير ذلك من الفوائد فكل ذلك شاهد للذى شرعه بأنه سبحانه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وكل ذلك من جملة منافع الحج التى أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا منافع لَهُمْ﴾[الحج:٢٨]. فالحج مؤتمر إسلامى عظيم وفرصة للمسلمين ينبغى أن يستغلوها فى شتى مصالحهم وأن يستفيدوا منها لأمر دنياهم وأخراهم فنسأل الله أن يوفقهم لذلك وأن يجمع كلمتهم على الهدى إنه خير مسؤول وأكرم مجيب..

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الله جل وعلا أمر الـرسل بإقامة الدين فالرسل بعثوا لإقامـة الدين ونبينا محـمد ﷺ هو أكملهم فى ذلـك وهو إمامهم وسيـدهم وخـاتمهم بـعث لإقـامة الديـن أيضـاً فهذه الـعبـادات وهذه التوجيـهات من الله عز وجل كـلها لإقامة الدين وأن يـكون عندك وازع إيمانى يحـملك على أداء الواجبات ومـعاملة إخوانك بأحسـن المعاملات وعلى إنصافـهم وأداء حقوقهم وعلى أداء الأمانة فـى كل شيء والرجوع إلى الله فـى كل شيء حتى تكون عبـداً ممتثلاً سائراً علـى الوجه الذى شرعه الله لا تتبع هواك ولا تقف عنـد حظك. ومما يتعلق بما تقدم قول النبى عـليه الصلاة والسلام فـى الحديث الصحيـح: «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» فأخـبر عليه الصلاة والسـلام أن صلاح العبد بصلاح قلـبه فمتى صلح قلبه استقام العبد مع الله عز وجل ومع العباد، ومتى خبث القلب وفسـد خبث العـبد وفسـدت حاله وهذا يـبين لنـا ما تقدم مـن أن هذه الشريعة عنيت عناية عظيمـة بأسباب إصلاح القلوب. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالـكم» فبين عليه الصلاة والسلام أن موضـع النظر من ربنا عز وجل القـلب والعمل أما مـالك وبدنك فلا قيـمة لهما وليـسا محل النظـر إلا إذا استعملت مـالك وبدنك فى طـاعة ربك وإنما محل الـنظر قلـبك وعملـك فإذا استـقام قلبـك على مـحبة اللـه وخشيـته ومراقبـته والإخلاص لـه استقـامت أعمالـك واستقـام أمرك وإن كانـت الأخرى

فسدت حالك وفسد عملك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم إن هذه الشريعة العظيمة أيضاً نظمت العلاقات بين الأسرة فى نفسها أسرة الإنسان وقراباته بما شرع الله من صلة الرحم والمواريث والتعاون فيما بين الأسرة حتى تكون مرتبطة متعاونة على ما يرضى ربنا عز وجل متحابة فيما بينها هذا من رحمته وإحسانه جل وعلا أن جعل بين ذوى القرابات صلة خاصة تصل بعضهم ببعض وتجمع بعضهم إلى بعض وتربط بعضهم ببعض فشرع صلة الرحم وحث على ذلك وتوعد على ترك ذلك فقال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح: «لا يدخل الجنة قاطع» يعنى قاطع رحم وقال جل وعلا فى كتابه العظيم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُم أَن تُفْسِدُوا فى الأَرْض وتُقَطِّعُوا أرحامَكُمْ أُولَئكَ الذينَ لَعَنَهم الله فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَى أبصارهم﴾[محمد: ٢٢-٢٣] وفى الحديث أيضاً: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه» وهكذا شرع العلاقات الطيبة بين المسلمين فى جميع المعاملات فجعلهم إخوة يتحابون فى الله ويتعاونون على الخير فى جميع المجالات. وهذه أعظم صلة وأعظم رابطة بين المسلمين الرابطة الإسلامية والأخوة الإيمانية وهى أعظم رابطة وهى فوق رابطة القرابة والصداقات وكل رابطة بين الناس فالرابطة الإسلامية والأخوة بين المسلمين فوقها فالله سبحانه وتعالى جعل المسلمين فيما بينهم إخوة وأوجب عليهم أن يحب بعضهم لبعض الخير ويكره له الشر وأن يكونوا فيما بينهم متحابين متناصحين

متعـاونين حتى يـكونوا كتـلة واحدة وجمـاعة واحدة وصفـاً واحداً وأمة واحدة ﴿إنَّ هذه أُمّتُكُمْ أُمَّة واحدة وأنَا ربُّكُم فَاعْبُدُون﴾[الأنبياء:٩٢] ويقول جل وعلا: ﴿والمؤمنـون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلـياء بَعْض يَأمرُونَ بِالْمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاة ويُطِيعُونَ الله وَرَسُوله أولئك سيرحَمهم الله إنَّ الله عَزِيز حكِيم﴾[التوبة:٧١] ويقول عز وجل: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْل الله جَمِيعاً ولا تَفرقوا﴾[آل عمران:١٠٣] فيأمرهم بالاجتماع والاعـتصام بحبل الله وهو دينه سبحانه ويقول عز وجل: ﴿وتَعَاونُوا عَلَى البر وَالـتقْوَى ولا تَعَاونُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَان وَاتَّقُوا الله إنَّ الله شَدِيد الْعقاب﴾[المائدة:٢] فبين سبحانه وتعالى أن الواجب على الجميع أن يتعاونوا عـلى البر والتقوى وأن يكونوا أولياء لا غل بـينهم ولا حـقد ولا حسد ولا تـباغض ولا تقـاطع لكن أولـياء يتنـاصحون ويتعاونـون على الخير. وهـذا هو التضامن الإسـلامى الذى يدعـو إليـه كل مسـلم وكل مـخلـص لدينـه وكل مؤمـن وكل مـحب للإسلام. فالتضامن الإسلامى هو التـعاون على البر والتقوى والتواصى بالحق والـتناصح فى الـله والتكافـل والتكاتـف على كل ما فـيه صلاح المسلـمين ونجاحهم وحـفظ حقوقهم وإقـامة كيانهـم وصيانتهـم من شر أعدائهم هذا هو التضامن وهذا هو التعاون أن يكون المسلمون حكومات وشعوبـاً متعاونين عـلى البر والـتقوى متنـاصحين فى اللـه متحابـين فيه متكاتفين على كل ما يقيم دينهم ويحفظ كيانهم ويوحد صفوفهم ويجمع كلمتهـم وينصفهم من عدوهم ويـورثهم العزة والكرامة فبـهذا الاجتماع وهذا التعاون يحميهم الله من شر أعدائهم ومكائدهم ويجعل لهم الهيبة

فى قلوب الأعداء لاجتماعهم على الحق وتعاونهم وتكاتفهم وتناصرهم على دين الله مخلصين لله قاصدين وجهه الكريم لا لغرض آخر كما قال عز وجل: ﴿يَأَيها الذينَ ءامنوا إن تنصرُوا الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامكمْ﴾[محمد:٧] وقال عز وجل: ﴿ولينصُرن الله من ينصره إنَّ الله لقوى عزيز الذين إن مكَّناهم فى الأرضِ أَقَامُوا الصلاة وءَاتَوُا الزكاة وأمرُوا بِالمعْرُوفِ ونَهَوْا عن الْمُنكرِ ولله عاقبة الأُمُورِ﴾[الحج: ٤٠، ٤١] فهو سبحانه وتعالى علق نصرهم وحفظهم وحمايتهم بنصرهم دينه واجتماعهم على دينه وتعاونهم واعتصامهم بحبل الله عز وجل فبالتضامن الإسلامى والتعاون الإسلامى كل خير وكل عزة فى الدنيا والآخرة للمسلمين إذا صدقوا فى ذلك وتعاونوا عليه. ومن محاسن هذه الشريعة أيضاً أن جعلت المؤمن أخا المؤمن ينصح له ويحب له الخير يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويعينه على الخير ويمنعه من الشر كما قال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقال جل وعلا: ﴿إنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوة فأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم﴾[الحجرات: ١٠] فالمؤمن أخو المؤمن يعينه على الخير ويدعوه إليه وينهاه عن الشر ويأخذ على يديه كما قال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» قالوا يا رسول الله نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال تمنعه من الظلم فذلك نصره، فنصر الظالم منعه والأخذ على يديه. فالمسلمون إذا قاموا بهذا وتعاونوا عليه حصل لهم الخير العظيم والعزة والكرامة وجمع الكلمة وهيبة الأعداء

والعافية من مكائدهم.

ومن محاسن هذه الشريعة أيضاً: أنها جعلت للمعاملات بين المسلمين نظاماً حكيمـاً يتضمن العدل والإنصاف وإقامة الحق فيـما بينهم من دون محاباة لقريـب أو صديق بل يجب أن يكون الجميـع تحت العدل وتحت شريعة الله لا يحابـى هذا لقرابته ولا هذا لصداقته ولا هـذا لوظيفته ولا هذا لغناه أو فقره ولكن على الجميع أن يتحروا العدل فى معاملاتهم من الإنصاف والـصدق وأداء الأمانة كما قـال جل وعلا: ﴿يَأَيها الذين ءَامَنُوا كُونُوا قوَّامـين لله شُهَدَاء بِالْقِسْط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَـانُ قَوْم عَلَى أَلا تعـدلوا اعْدلُوا هُو أَقْربُ للتَّقوى﴾[المائدة:٨] وقال جل وعلا: ﴿يَأَيُها الذينَ ءَامَنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالْقِسْط (أى بالـعدل) شُهَدَاء لله وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ أَوِ الْوالدَيـن والأَقربينَ إن يكُنْ غَنِيا أَوْ فَقِيرا فالله أَوْلَى بِهِما فَلا تتَّبعوا الْهَوَى أن تعْدلُوا﴾[النساء: ١٣٥] وقال جل وعلا: ﴿وإِذا قُلْتُم فاعْدلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وبعَهْدِ الله أَوْفُوا﴾[الأنعام:١٥٢] فالله سبحانه وتعالـى شرع للجميع أن يتعاملوا بالعـدل والإنصاف وأن يقيموا الحق فيما بينهم على طريق العدل والقسط من دون محاباة لزيد أو عمرو أو صديق أو قريب أو كبير أو صغير.

ومن محاسن هذه الشريعة: وعظمتها وصلاحها لكل أمة ولكل زمان ومكان أن علـق سبحانه وتعـالى معاملاتهـم على جنس العـقود وجنس البيع وجنس الإجـارة ونحو ذلك من دون أن يحدد لهذه العـقود ألفاظاً معينة خاصة حتى يتعامل كل قوم وكـل أمة بما تقتضيه عوائدهم وعرفهم

ومقاصدهم ولغتهم وما يقتضيه النظر فى العواقب فجعل لمعاملاتهم عقوداً شرعها لهم سبحانه وتعالى ولم يحدد ألفاظاً بل جعلها مطلقة كما شرع لهم فى أنكحتهم وطلاقهم ونفقاتهم ودعاواهم وخصوماتهم نظاماً حكيماً يتضمن الإنصاف والعدل وأن تراعى فى ذلك العوائد والعرف والاصطلاحات والبينات والمقاصد والظروف والأزمنة والأمكنة فى حدود الشريعه كاملة حتى لا يقضى على أحد بغير حق فقال جل وعلا: ﴿يَأيها الذين ءامَنُوا أوْفُوا بِالْعُقُود﴾[المائدة:١] فأطلق العقود. وقال جل وعلا: ﴿وأَحَلَّ الله البيْعَ وحَرمَ الربا﴾[البقرة:٢٧٥] وقال جل وعلا: ﴿فَإِنْ أرضعْنَ لَكُمْ فآتوهُنَّ أُجُورهُنَّ﴾[الطلاق:٦] وجاءت الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالمساقاة والمزارعات والشركات والجعالات والضمانات والأوقاف والوصايا والنكاح والطلاق والرضاع وغير ذلك بما يطابق ما جاء به القرآن الكريم.

وهذه الأنظمة التى جاء بها القرآن وصحت بها السنة أنظمة واضحة بينة يستقيم عليها أمر العباد وتصلح لهم فى كل زمان ومكان ولا تختلف عليهم بل يكون لهؤلاء عرفهم فى بيعهم وشرائهم ونكاحهم وطلاقهم وأوقافهم ووصاياهم وغير ذلك حتى لا يربط هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء كما قال جل وعلا تنبيهاً على هذا المعنى ﴿وَعَلَى الْمَولُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٣٣] يعنى بالمتعارف.. وقال النبى ﷺ فى حديث خطبته العظيمة فى حجة الوداع «ولهن عليكم (أى للزوجات)

رزقهن أى كسوتهن بالمعروف»، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾[الإسراء:١٥] لإقامة الحجة وقطع المعذرة.. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَومًا بَعْدَ إِذْ هداهم حَتَى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة: ١١٥] وقال عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤] فبين سبحانه وتعالى أنه لابد من بيان ولابد من إقامة حجة حتى لا يؤخذ أحد إلا بعد إقامة الحجة عليه. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله فى هذا المعنى فى كتابه (إعلام الموقعين) فصلاً عظيماً بين فيه أن الشريعة راعت عوائد الناس ومقاصدهم وعرفهم ولغتهم حتى تكون الأحكام والفتاوى على ضوء ذلك فقد يكون عرف هذه البلدة وهذا الإقليم غير عرف الإقليم الآخر والبلدة الأخرى.. وقد يكون لهذا الشخص من النيات والمقاصد ما ليس لشخص آخر ويكون لهؤلاء من العوائد ما ليس للآخرين وقد تكون أزمان لا يليق أن يفعل فيها ما يليق أن يفعل فى الزمن الآخر كما كانت الدعوة فى عهد النبى ﷺ فى مكة غير حالها فى المدينة لاختلاف الزمان والمكان والقوة والضعف وهذا من عظيم حكمة الله جل وعلا ورعايته لأحوال عباده فقد يقصد بعض الناس بألفاظ البيع والهبة ما يقصد به آخرون معنى آخر أو عقداً آخر وهكذا فى الطلاق والإجارة وغير ذلك وهكذا بعض الأزمان قد يسوغ فيها ما لا يسوغ فى أزمان أخرى ومثل لذلك بأمثله منها إقامة الحد فى أرض العدو إذا وجد من بعض الغزاة ما يوجب الحد فى أرض العدو فقد نهى النبى ﷺ عن إقامة الحد فى أرض العدو. لماذا؟

لأنه قد يغضب ويستولى عليه الشيطان فيرتد عن دين الإسلام لذلك ولقربه من العدو.. ومن ذلك عام المجاعة فإذا كان عام مجاعة واشتدت الحال بالناس لا ينبغى القطع فى هذه الحالة للسارق إذا ادعى أن الذى حمله على ذلك الضيق والحاجة وعدم وجوده شيئاً يقيم أوده ويسد حاجته لأن هذا شبهة فى جواز القطع والحدود تدرأ بالشبهات.. ولهذا أمر عمر رضى الله عنه وأرضاه فى عام الرمادة بعدم القطع وحكم بذلك رضى الله عنه وأرضاه لهذه الشبهة. وهكذا تعتبر العواقب كما قال الله سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولى الأبصار﴾[الحشر:٢] وقال تعالى: ﴿فَاصْبِر إنَّ العاقبة للْمُتَّقِين﴾[هود: ٤٩] وقال سبحانه: ﴿وَلا تَسبوا الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوا بِغَيْرِ عِلْم﴾[الأنعام:١٠٨] فلابد من رعاية العواقب ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله أن الإنسان إذا كان أمره بالمعروف فى بعض الأحيان قد يفضى إلى وجود ماهو أنكر من المنكر الذى يريد أن ينهى عنه فإنه لا يجوز له أن ينهى عن المنكر فى هذه الحالة إذا كان إنكار المنكر يفضى إلى ماهو أنكر منه وأشد فإنك فى هذه الحالة لا تنكره لئلا يقع ماهو أنكر منه وهذا من باب مراعاة العواقب. فإذا كان إنسان مثلاً يشرب الخمر ولكنك إذا نهيته عن ذلك ومنعته عن ذلك ومنعته منه اشتغل بقتل الناس فحينئذ يكون ترك الإنكار عليه أولى. لأن شرب الخمر أسهل من كونه يتعدى على الناس بالقتل والمقصود أن الواجب الرعاية للعواقب كما تراعى عوائد الناس وظروفهم وأحوالهم ومقاصدهم ونياتهم فى عقودهم وتصرفاتهم فيما بينهم وفى إقامة الحدود

وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يراعى فى ذلك تحصيل المصالح ودرء المفاسد وتحصيل المصلحة الراجحة بتفويت المصلحة المرجوحة وتعطيل المفسدة الكبرى بارتكاب المفسدة الصغرى عند العجز عن تفويتهما جميعاً، هذه أمور عظيمة جاءت بها هذه الشريعة الكاملة ولاشك أن ذلك من محاسنها ويجب على ولاة الأمور وعلى كل من له تصرف فى أمر الناس أن يراعوها من قاضى ومفتى وأمير وغيرهم هذا كله من محاسن هذه الشريعة العظيمة ومن محاسنها أيضاً أنها جعلت للناس الحرية فى الكسب والأخذ والعطاء فيكتسب المسلم ويأخذ ويعطى فى حدود الشريعة كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:٢٨٦] له غنم ما أخذ وعليه غرمه كما قال النبى عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من سؤال الناس أعطوه أو منعوه» فحث على الكسب وبين أنه خير من سؤال الناس.. ولما سئل عليه الصلاة والسلام أى الكسب أطيب قال: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور» وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده» وكان نبى الله داود يأكل من عمل يده عليه الصلاة والسلام. فالشريعة الإسلامية حبذت الكسب والعمل ودعت إلى الكسب والعمل وجعلت العامل أحق بكسبه وماله وحرمت على الإنسان دم أخيه وماله وعرضه إلا بحق. وهذا كله من محاسن هذه الشريعة وعظمتها أنها صانت أموال الناس وأعراضهم كما

صانت أبشارهم ودماءهم وأمرتهم بالكسب وحثتهم عليه كما قال النبى الكريم عليه الصلاة والسلام: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا أو كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» خرجه مسلم فى صحيحه، ولو ذهبت أذكر ما يتعلق بعظمة هذه الشريعة ومحاسنها ورعايتها لمصالح العباد فى أمر المعاش والمعاد لطال بنا المقام كثيراً ولكن هذه إشارة قليلة تكفى اللبيب فى التعرف على عظمة هذه الشريعة ورعايتها لأحوال العباد ومصالحهم فى الحاضر والمستقبل ومن ذلك أيضاً ما جاء فى هذه الشريعة من الأمر بالتوبة لأن فيها إصلاح الماضى والعافية من شره وقد كان من توبة بعض الماضين قتل النفوس فرحم الله هذه الأمة وجعل توبتهم الندم والإقلاع والعزيمة على عدم العودة إلى السيئة مع رد المظالم إلى أهلها هذا من إحسان الله ورحمته جل وعلا لهذه الأمة وهذا من محاسن هذه الشريعة أن جعلت لك أيها الإنسان فرجاً ومخرجاً من ذنوبك وسيئاتك بالتوبة النصوح والاستغفار والرجوع إليه عز وجل والعمل الصالح ومن تأمل هذه الشريعة فى مواردها ومصادرها ونظر ما جاءت به من الأحكام العظيمة العادلة والإحسان إلى الخلق ورعاية الفقراء والمحاويج والصغار والكبار وغيرهم حتى البهائم اعتنت بها الشريعة وحرمت ظلمها والتعدى عليها عرف أنها شريعة من حكيم حميد خبير بأحوال عباده عليم بما يصلحهم وعرف أيضا أنها من الدلائل القاطعة على وجوده سبحانه وتعالى وكمال قدرته وحكمته وعلمه وعلى صدق رسوله محمد ﷺ وأنه رسول الله حقا وهكذا من نظر فى ما

جاءت به الشريعة من رعاية فى أحوال العباد أغنيائهم وفقرائهم ملاكهم وعمالهم حكامهم ومحكومهم أفرادهم وجماعاتهم قد راعتهم جميعا وجعلت لهم أحكاما مبنية على المصلحة والعدالة والإنصاف والإحسان والرحمة، فهذه الشريعة كلها مصالح كلها حكم كلها هدى كلها عدل وكل شيء خرج من العدل إلى الجور ومن المصلحة إلى العبث ومن الرحمة إلى ضدها فليس من الشريعة فى شيء وإن نسب إليها بالتأويل كما ذكر معنى ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله فالشريعة كلها رحمة وعدل وحكمة وكلها رعاية لمصالح العباد بعيدة عن العبث والظلم والمشقة ومن تأمل ما تقدم عرف ما أردته فى الشق الثانى من عنوان هذه المحاضرة.

وهو أن البشر فى أشد الضرورة إلى هذه الشريعة لما اشتملت عليه من المصالح العظيمة وأنها راعت مصالح العباد فى المعاش والمعاد وهيأت لهم السبل التى توصلهم إلى النجاة والسعادة وبين سبحانه وتعالى فى كتابه أن شريعته صراط مستقيم واضح ومنهج قيم من استقام عليه نجا ومن حاد عنه هلك ومن تأمل هذا حق التأمل عرف أن هذه الشريعة كسفينة نوح عليه السلام من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق فهكذا هذه الشريعة العظيمة من تمسك بها واستقام عليها نجا ومن حاد عنها هلك ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبذلك يتضح للبيب أن العباد جميعاً فى أشد الضرورة إلى هذه الشريعة لما فيها من حل مشاكلهم ولما فيها من أحكام عادلة ولما فيها من التوسط بين الاشتراكية الإلحادية الماركسية المنحرفة وبين الرأسمالية الغاشمة الظالمة فهى وسط فى كل شيء وسط

فى اقتصادها بين اشتراكية الملحدين وماديتهم وبين الرأسمالية الغاشمة التى لا حدود لها فهى وسط بين طرفين عدل بين جورين وكذلك وسط فى جميع أمورها لا تطرف فى غلو ولا تطرف فى جفاء بل هى وسط فى شأنها كله هذه الشريعة العظيمة وسط فى الانفاق والإمساك لا إسراف وتبذير ولا إمساك وتقتير بل هى وسط بين ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلاتجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْط فَتَقْعُد مَلُوماً محْسُوراً﴾[الإسراء: ٢٩] وكما قال سبحانه فى صفات عباد الرحمن: ﴿وَالذين إِذَا أنفَقُوا لَمْ يسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَان بَيْنَ ذَلكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان: ٦٧] فمن تأمل هذا الأمر وعنى به عرف أنها دين ودولة، ومصحف وسيف، عبادة وحسن معاملة، جهاد وأعمال صالحة، إنفاق وإحسان وطاعة لله عز وجل والرسول ﷺ، توبة من الماضى وعمل للمستقبل فيها كل خير فهى جمعت خير الدنيا والآخرة لا يجوز أن يفصل ديننا عن دنيانا ولا دنيانا عن ديننا بل ديننا ودنيانا مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فى هذه الشريعة كما قال تعالى: ﴿إنَّ الله يأمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمانات إِلى أَهلهَا وإِذَا حكَمْتُم بَيْنَ النَّاس أن تَحْكُمُوا بِالْعَدْل إِنَّ الله نعما يَعظُكُم به إِنَّ الله كَانَ سَميعا بَصيرا﴾[النساء: ٥٨] فهى حاكمة على الناس كلهم على الأمراء وغير الأمراء على الأفراد وعلى الجماعات عليهم جميعاً أن يكونوا تحت حكمها وتحت سلطانها فى كل شيء ومن زعم فصل الدين عن الدولة وأن الدين محله المساجد والبيوت وأن للدولة أن تفعل ما تشاء وتحكم بما تشاء فقد أعظم على الله الفرية وكذب على الله ورسوله وغلط أقبح الغلط بل هذا كفر وضلال بعيد عياذاً بالله من ذلك بل جميع العباد مأمورون بالخضوع لأحكام

الشريعة وتشريعاتها فى العبادات وغيرها ويجب على الدولة أن تكون منفذة لحكم الشريعة سائرة تحت سلطانها فى جميع تصرفاتها وعلى هذا سار النبى الكريم عليه الصلاة والسلام وسار أصحابه الكرام رضى الله عنهم وأرضاهم وسار عليه أئمة الإسلام بعد ذلك فى كل شيء وقد جعل الله هذه الشريعة روحاً ونوراً وحياة للناس وبهذا تعرف أنك فى أشد الضرورة إلى هذه الشريعة وأن البشر كلهم فى ضرورة إليها لأنها الحياة ولأنها النور ولأنها الصراط المستقيم المفضى إلى النجاة وما عداها فظلمة وموت وشقاء قال الله جل وعلا فى كتابه العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتا فأحييناه وَجَعَلنا لَهُ نُورا يَمْشى به فِى النَّاس كمَن مَّثَلُهُ فى الظلمات لَيْس بِخَارج منْها﴾[الأنعام:١٢٢] فجعل من خرج عن الشريعة ميتاً وجعل من هدى إليها حياً وجعل من أبى الشريعة فى ظلمة وجعل من وفق لها فى فوز وهدى وقال جل وعلا: ﴿يَأيها الذينَ ءَامَنُوا استَجيبُوا لله وللرَّسُول إذَا دَعَاكُمْ لمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤] فجعل الاستجابة لله ولرسوله حياة وجعل عدم الاستجابة موتاً فعلم أن هذه الشريعة حياة للأمة وهى سعادة للأمة ولا حياة لهم ولا سعادة بدون ذلك.. وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً منْ أمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرى مَا الكتاب وَلا الإيمان وَلَكن جعلناه نورا نهدى بِهِ من نَّشاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّك لتَهْدى إِلَى صراطٍ مُّسْتَقِيم﴾[الشورى:٥١] فجعل سبحانه ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام روحاً للعباد تحصل به حياتهم ونوراً تحصل به بصيرتهم ونجاتهم وسيرهم على الصراط المستقيم فهذه الشريعة روح للأمة بها حياتها وقيامها ونصرها وهى أيضا نور لها تدرك به أسباب نجاتها وتهتدى به إلى الصراط المستقيم والصراط المستقيم

هو الطريق الواضح الذى من سار عليه وصل إلى النجاة ومن حاد عنه هلك وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِل صالحاً من ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَة ولنجزينَّهُمْ أجرَهُم بِأحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧] فبين سبحانه أن من عمل العمل الصالح عن إيمان أحياه الله حياة طيبة سعيدة وفى هذا إشارة إلى أن حياة الكفار الذين حادوا عن الشريعة ليست حياة طيبة بل حياة خبيثة حياة مملوءة بالهموم والغموم والأحزان والمشاكل العظيمة والفتن الكثيرة فهى حياة تشبه حياة البهائم ليس لأهلها هم إلا شهواتهم وحظهم العاجل فهى حياة من جنس حياة البهائم بل أسوأ وأضل لكونهم لم ينتفعوا بعقولهم التى ميزوا بها عن البهائم كما قال جل وعلا: ﴿أَمْ تَحسبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلا كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الفرقان: ٤٤] وقال جل وعلا: ﴿وَالذينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام وَالنَّارُ مَثْوى لَّهُمْ﴾[محمد: ١٢] هذه حياة من حاد عن الشريعة حياة فى الحقيقة هى شبيهة بالموت لعدم إحساسهم بالواجب وعدم شعورهم بما خلقوا له وهى حياة فى ذاتها تشبه حياة البهائم لكون البهيمة لا هم لها إلا شهواتها وحظها العاجل فهكذا الكافر المعرض عن الشريعة ليس له هم إلا شهواته وحظه العاجل ولهذا شبه الله أهل الإيمان والهدى بالمبصرين والسامعين وشبه من حاد عن الشريعة بالأعمى والأصم وشبه من وفق إلى الشريعة الحى وشبه من خالف الشريعة بالميت وبهذا نعرف أيها الأخوة أن هذه الشريعة حياة البشر وسعادة البشر ونجاة البشر فى الدنيا والآخرة وأنهم فى أشد الضرورة إلى اعتناقها والتزامها والتمسك بها لأن بها حياتهم ونصرتهم ونجاتهم وسعادتهم فى الدنيا

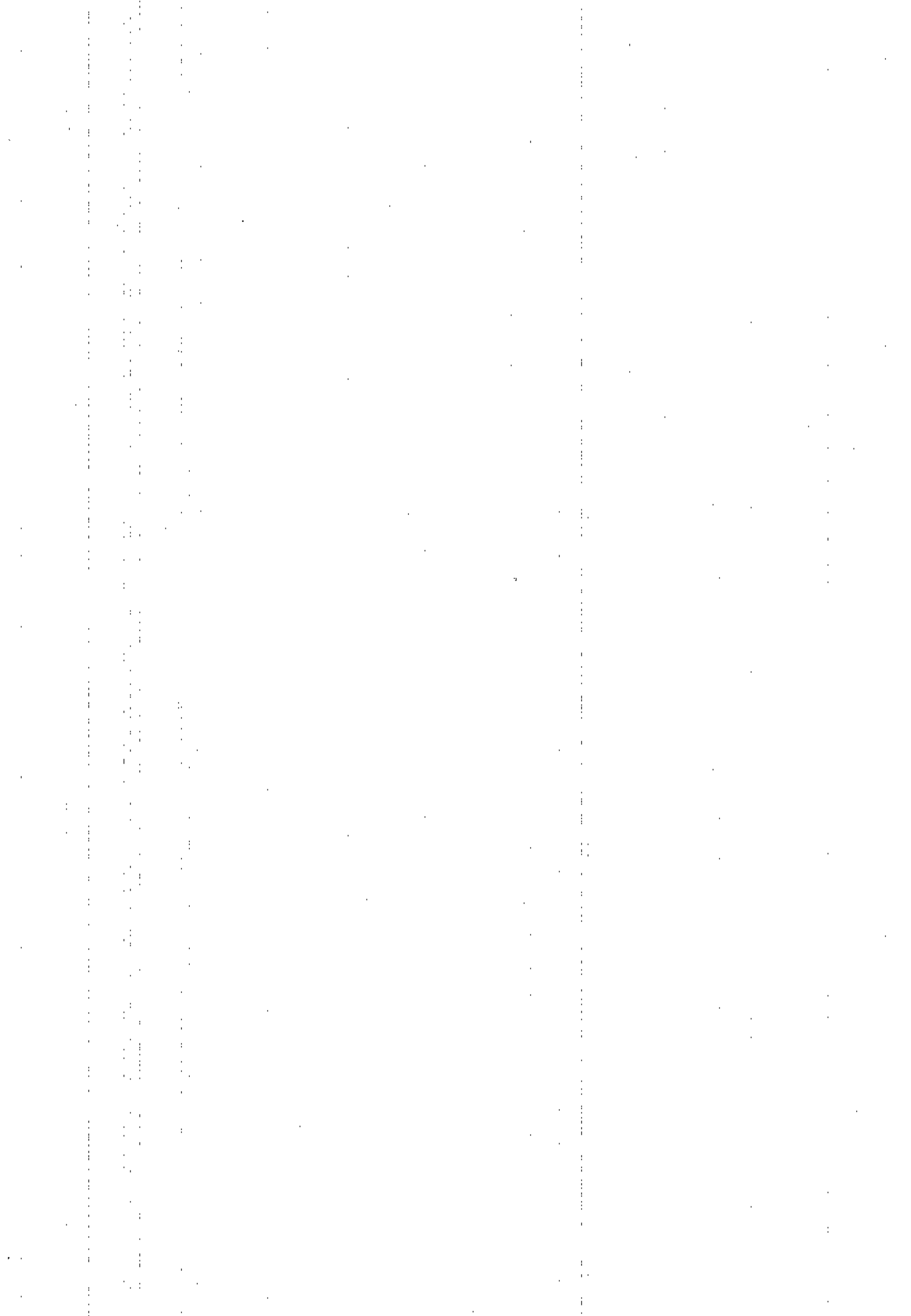
والآخرة ولأن فيها الحكم بينهم بالحق وإنصاف مظلومهم من ظالمهم ولهذا كانت هذه الشريعة العظيمة أعظم شريعة وأكمل شريعة وكان البشر فى أشد الضرورة إلى أن يعتنقوها ويلتزموها، ولا حل لمشاكلهم ولا سعادة لهم أبداً ولا نجاة للمسلمين مما وقعوا فيه اليوم من التفرق والاختلاف والضعف والذل إلا بالرجوع إليها والتمسك بها والسير على تعاليمها ومنهاجها. . .

❊ ❊ ❊

وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا جميعا للفقه فيها والعمل بها وأن يهدينا جميعاً وسائر عباده للأخذ بها والسير على ضوئها والاهتداء بنورها إنه جواد كريم، كما أسأله عز وجل أن يصلح ولاة المسلمين جميعاً وأن يوفقهم للتمسك بهذه الشريعة والعمل بها والتحاكم إليها والحكم بها فى كل شيء، وأن يعيذنا وإياهم من بطانة السوء ومن دعاة الضلال إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. .





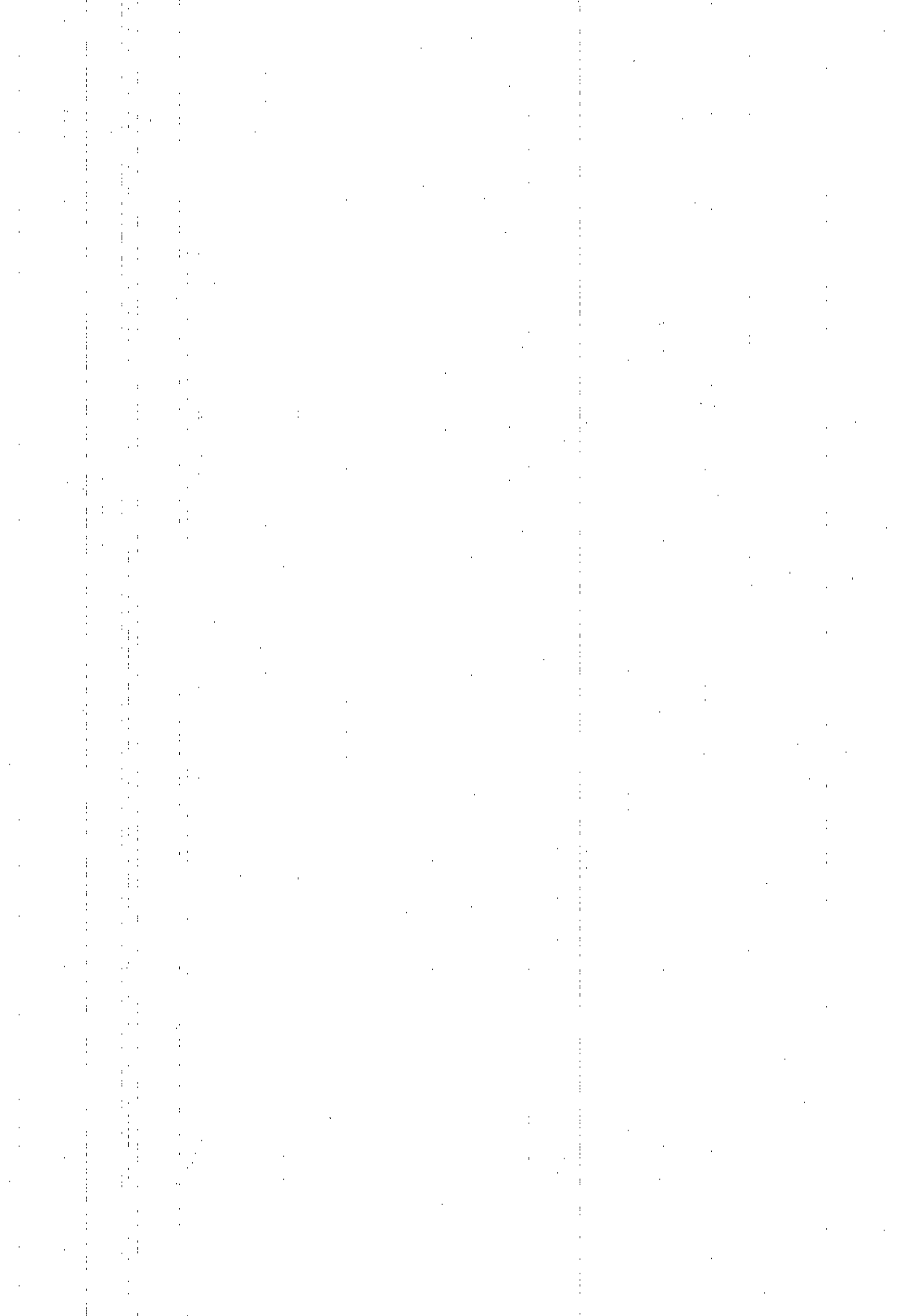
المحاضرة السادسة عشر:

الإسلام دين كامل

ألقاها

العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله

(*) ألقيت بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة بطلب من ملك المغرب.



الإسلام دين كامل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد: فهذه محاضرة ألقيتها فى المسجد النبوى بطلب من ملك المغرب، فطلب منى بعض إخوانى تقييدها لنشرها فلبيت طلبه راجياً من الله أن ينفع بها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكمُ الإسلام دينًا﴾ [المائدة: ٣] ذلك اليوم يوم عرفة وهو يوم الجمعة فى حجة الوداع، نزلت هذه الآية الكريمة والنبى ﷺ واقف بعرفات عشية ذلك اليوم، وعاش ﷺ بعد نزولها إحدى وثمانين ليلة، وقد صرح الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أنهُ أكمل لنا ديننا فلا ينقُصه أبداً، ولا يحتاج إلى زيادة أبداً، ولذلك ختم الأنبياء بنبينا، عليهم صلوات الله وسلامه جميعًا وصرَّح فيها أيضا بأنه رضىَ لنا الإسلامَ دينا فلا يَسْخَطه أبداً ولذا صرّح بأنه لا يقبل غَيره من أحد، قال: ﴿ومَنْ يَبتَغِ غيرَ الإسلام دينًا فلَنْ يُقبَلَ منه وهو فى الآخِرة مِن الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿إن الدِّينَ عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] وفى إكمال الدين وبيان جميع أحكامه كل نعم الدارين، ولذا قال: ﴿وأتممتُ عليكم نعمتى﴾.

وهذه الآية الكريمة نص صريح فى أن دينَ الإسلامِ لم يترك شيئا يحتاج إليه الخلق فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا أوضحه وبيَّنه كائنا ما كان، وسنضرب لذلك المثل ببيان عشر مسائل عظام عليها مدار الدنيا من

المسائل التى تهم العالم فى الدارين، وفى البعض تنبيه لطيف على الكل:

الأولى: التوحيد.

الثانية: الوعظ.

الثالثة: الفرق بين العمل الصالح وغيره.

الرابعة: تحكيم غير الشرع الكريم.

الخامسة: أحوال الاجتماع بين المجتمع.

السادسة: الاقتصاد.

السابعة: السياسة.

الثامنة: مشكلة تسليط الكفار على المسلمين.

التاسعة: مشكلة ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار فى العَدَد والعُدَد.

العاشرة: مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع.

ونوضح علاج تلك المشاكل من القرآن. وهذه إشارة خاطفة إلى بيان جميع ذلك بالقرآن تنبيها به على غيره.

-١-

● **أما الأولى: وهى التوحيد** فقد علم باستقراء القرآن أنه منقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: توحيده جل وعلا فى ربوبيته وهذا النوع من التوحيد جُبلت

عليه فطَرُ العقلاء، قال تعالى: ﴿ولئِنْ سألتهم من خلَقهم ليقولُنَّ الله﴾ الآية [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قل مَن يرزقكم مِن السمـاءِ والأرض أمَّنْ يملك السمعَ والأبصار﴾ [يونس: ٣١] إلى قوله: ﴿فَقلْ أفلا تتقون﴾ والآيات بنَحو ذلك كثيرة، وإنكار فرعون لهذا النوع فى قوله: ﴿قال فرعونُ وما ربُّ العالَمين﴾ [الشعراء: ٢٣] مكابرة وتجاهل بدليل قوله: ﴿قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: ﴿وجَحدوا بها واستَيْقَنتها أنـفسهم ظُلمًا وعُلُوا﴾ [النمل: ١٤] ولهذا كان القرآن يـنزل بتقرير هذا النوع من التـوحيد بصيغة استفهام التـقرير، كقوله ﴿أفى الله شك﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله: ﴿قل أغيرَ الله أبْغى ربا وهو ربُّ كُلِّ شىء﴾ [الأنعام: ١٦] وقوله: ﴿قـل مَن ربُّ السـمواتِ والأرضِ قـل الله﴾ [الرعد:١٦] ونحـو ذلك لأنهم يقرون به.

وهذا النوع من التوحيد لم ينفـع الكفار لأنهم لم يوحدوه جل وعلا فى عبادتـه كما قال: ﴿وما يُؤمن أكـثرُهم بالله إلا وهم مـشركون﴾ [يوسف: ١٠٦] ﴿ما نـعبُدهم إلا ليـقربُونا إلـى الله زُلْفى﴾ [الزمر: ٣] ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتُنبِّئون الله بما لا يعلمُ﴾ الآية [يونس: ١٨].

النوع الثانى: توحيـده جل وعلا فى عـبادته، وهو الـذى وَقَعَت فيه جميعُ المعارك بـين الرسل والأمم، وهو الذى أرسلت الرسل لتـحقيقه، وحاصلـهُ هو معنـى لا إلـه إلا الله فهـو مبنى علـى أصلين: همـا النَّفىُ والإثبـات من «لا إله إلا الله» فـمعنـى النفـى منـها خلـع جميـع أنواع المعبودات غير الله تعـالى فى جميع أنواع العبادة كائنـة ما كانت، ومعنى الإثبات منها هو إفراده جل وعلا وحده بجـميع أنواع العبادة على الوجه

الذى شرع أن يُعبدَ به، وجُلُّ القرآن فى هذا النوع ﴿ولقد بعثْنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجْتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وما أرسلنَا من قبلك من رسول إلا نُوحى إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿فمن يكفُر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسَكَ بالعُروةِ الوثقى﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦] ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسُلِنا أجعلْنَا من دونِ الرحمنِ آلهةً يُعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥] ﴿قل إنمـا يوحى إلـى أنما إلهكم إلهٌ واحـدٌ فهل أنتم مُسلمون﴾ [الأنبياء:١٠٨] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

النوع الثالث: هو توحيده جل وعلا فى أسمائه وصفاته وهذا النوع من التوحيد ينبنى على أصلين كما بينه جل وعلا:

الأول: هو تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث.

والثانى: هو الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ حقيقة لا مجازاً على الوجه اللائق بكماله وجلاله، ومعلوم أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصفُ الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله. والله يقول عن نفسه: ﴿أأنتم أعلمُ أم الله﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول عن رسوله: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يُوحى﴾ [النجم: ٣، ٤] فقد بين تعالى نفى المماثلة عنه بقوله: ﴿ليسَ كَمِثلِهِ شَىء﴾ [الشورى: ١١] وبين إثباتَ الصفاتِ له على الحقيقة بقوله: ﴿وهو السميعُ البصير﴾ [الشورى: ١١] فأول الآية يقضى بعدم التعطيل، فيتضح من الآية أن الواجب إثبات الصفات حقيقة من غير تمثيل، ونفى المماثلة من غير تعطيل. وبَيَّنَ عجز الخلق عن الإحاطة به جل وعلا فقال: ﴿يعلَم ما بين

أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطون به علما﴾ [طه: ١١٠].

-٢-

● **وأما المسألة الثانية التى هى الوعظ**: فقد أجمع العلماء على أن الله تَعالى لم يُنزِلْ من السماء إلى الأرض واعظا أكبر ولَا زاجرًا أعظم من موعظة المراقبة والعلم، وهى أن يُلاحظ الإنسان أن ربه جل وعلا رقيب عليه عالم بكل ما يُخفى وما يُعلن، وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلا يَصيرُ به المعقول كالمحسوس، قالوا: لو فرضنا ملكا سفَّاكا للدماء قتَّالا للرجال شديد البطش والنكال وسيَّافهُ قائم على رأسه والنطع مبسوط والسيف يقطر دما، وحول ذلك الملك بناته وأزواجه، أيخطر فى البال أن يهم أحد من الحاضرين بريبة أو نيل حرام من بنات ذلك الملك وأزواجه وهو عالم به ناظر إليه؟ لا وكلا، ولله المثل الأعلى، بل كل الحاضرين يكونون خائفين خاضعةً قلوبُهم خاشعة عيونُهم ساكنة جوارحهم غايةُ أمانيهم السلامةُ، ولَا شك ولله المثل الأعلى أن الله جل وعلا أعظمُ اطلاعاً وأوسعُ علما من ذلك الملك، ولا شك أنه أعظمُ نكالا وأشدُّ بطشًا وأفظعُ عذاباً، وحماه فى أرضه محارمهُ، ولو علم أهلُ بلد أن أميرَ البلد يُصبِحُ عالما بكل ما فعلوه بالليل لباتوا خائفين وتركوا جميع المناكرِ خوفاً منه.

وقد بيَّن تعالى أن الحكمة التى خُلق الخلق من أجلها هى أن يَبْتَليهُم أى يختبرهم ﴿أيُّهُم أحسَنُ عَملا﴾ [الكهف: ٧] قال فى أول سورة هود: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرضَ فى ستة أيام وكان عرشهُ على الماء لِيبلُوَكُم أيكُم أحسن عملا﴾ [هود :٧] ولم يقل: (أيكم أكثر) عملا وقال فى الملك:

﴿الذى خلق الموت والحياة لِيبلُوكم أيكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور﴾ [الملك: ٢]

وهاتان الآيتان تبينان المراد من قوله: ﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] ولما كانت الحكمة فى خلق الخلائق الاختبار المذكور أراد جبريل أن يُبيِّنَ للناس طريق النجاح، فى ذلك الاختبار: فقال للنبى ﷺ: أخبرنى عن الإحسان؟ أى وهو الذى خُلِق الخلقُ لأجل الاختبار فيه، فبين ﷺ أن طريق الإحسانِ هى هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم المذكور فقال: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يَراك» [رواه مسلم] ولهذا لا تُقَلِّبُ ورقةً من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظَ الأعظَم ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلَمُ ما تُوسوسُ به نفسهُ ونحنُ أقرَبُ إليهِ من حبل الوريد﴾ [ق: ١٦] ﴿ما يلفِظُ من قول إلا لديَه رقيبٌ عتيد﴾ [ق: ١٨] ﴿فَلنقُصَّنَّ علَيْهم بعلم وما كنَّا غائبين﴾ [الأعراف: ٧] ﴿وما تكونُ فى شأن وما تتلوا منه مِن قرآن ولا تعملون مِن عمل إلا كُنا عليكم شهُودًا إذ تُفيضون فيه وما يَعزب عن ربك مِن مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾ [يونس: ٦١].

﴿ألا إنهم يَثنون صدورهم لِيَسْتَخفُوا منه، ألا حين يَستَغشون ثيابهم يَعلمُ ما يُسرون وما يُعلنون إنه عليم بذاتِ الصدور﴾ [هود: ٥].

ونحو هذا فى كل موضع من القرآن.

-٣-

● **وأما المسألة الثالثة: التى هى الفرق بين العمل الصالح وغيره،**

فقد بين القرآن العظيم أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور، ومتى اختلَّ واحد منها فلا نفع فيه لصاحبه يوم القيامة.

الأول: أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ لأن الله يقول: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧] ويقول: ﴿مَن يُطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] ﴿قل إن كنتم تُحبون الله فاتبعوني﴾ الآية [آل عمران: ٣١] ﴿أم لهم شركاءُ شَرَعُوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١] ﴿قل آلله أذنَ لكم أم على الله تفترون﴾ [يونس: ٥٩].

الثاني: أن يكون خالصًا لوجهه تعالى، لأنه يقول: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين﴾ الآية [البينة: ٥]، ويقول: ﴿قل إني أمرتُ أن أعبدَ الله مُخلصًا له الدين وأمِرتُ لأن أكونَ أولَ المسلمين. قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يوم عظيم. قل الله أعبدُ مُخلِصًا له ديني فاعبدوا ما شِئتُم من دونه﴾ [الزمر: ١١- ١٥].

الثالث: أن يكون مبنيا على أساس العقيدة الصحيحة لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس. قال تعالى: ﴿ومَنْ يعمل مِن الصالحاتِ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ [النساء: ١٢٤] فقيد ذلك بقوله: ﴿وهو مؤمن﴾ وقال في غير المؤمن: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا مِن عَمَل فجعلناهُ هَباءً منثورا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ وحَبطَ ما صنَعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

-٤-

● **وأما المسألة الرابعة: التى هى تحكيم غير الشرع الكريم**، فقد بين القرآن أنها كفر بواح وشرك بالله تعالى، ولما أوحَى الشيطان إلى كفار مكةَ أن يسألوا نبينا ﷺ عن الشاة تُصبِحُ ميتة مَن قَتَلَها، فقال: «الله قَتَلَهَا» فأوحى إليهم أن يقولوا له: ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم إذن أحسن من الله، أنزل الله: ﴿وإن الشياطين لَيوحون إلى أوليائهم لِيُجادِلوكم وإن أطعتموهم إنكم لَمُشرِكون﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعدم دخول الفاء على جملة ﴿إنكم لمشركون﴾ قرينة ظاهرة على تقدير لام توطئة القسم، فهو قسم من الله أقسم به جل وعلا فى هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان فى تشريعه تحليل الميتة أنه مشرك، وهو شرك أكبر مخرج عن الملة الإسلامية بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله يوم القيامة مُرْتكبه بقوله: ﴿ألم أعهدْ إليكم يا بنى آدمَ أن لا تَعبدوا الشيطانَ إنه لكم عدو مُبين، وأن اعبدونى هذا صِراطٌ مستقيم﴾ [يس: ٦٠، ٦١] وقال تعالى عن خليله: ﴿يا أبتِ لا تَعبُدِ الشيطانَ﴾ [مريم: ٤٤] أى باتباعه فى تشريع الكفر والمعاصى، وقال: ﴿إن يَدعون مِن دونه إلا إناثًا وإن يدعون إلا شيطانًا مَريدا﴾ [النساء: ١١٧] أى ما يعبدون إلا شيطانًا وذلك باتباعهم تشريعه.

وقال تعالى: ﴿وكذلك زيَّن لكثير من المشركين قَتْلَ أولادِهم شركاؤهُم﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧]. فسماهم شركاء لطاعتهم لهم فى معصية الله بقتل الأولاد.

ولما سأل عَدِيُّ بن حاتم رضى الله عنـه النبى ﷺ عن قوله: ﴿اتخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أربابًا﴾ [التوبة: ٣١] أجابه النبى ﷺ بأن مـعنى اتخاذهم أربابًا هو اتباعهم لهم فى تحريم مـا أحل الله وتحليل ما حرمه، وهذا أمر لانزاع فيه ﴿ألم تر إلى الذين يَزعمون أنهم آمنوا بما أنزِل إليك وما أنزِل من قبلك يريدون أن يَتَحَاكـموا إلى الطَّاغـوتِ وقد أمروا أن يكفـروا به ويُريدُ الشـيطانُ أن يُضلَّهم ضَلالاً بعيدا﴾ [النساء: ٦٠] ﴿ومن لـم يحكم بمـا أنزل الله فأولئـك هم الكافرون﴾ [المائـدة: ٤٤] ﴿أفغيرَ الله أبـتغى حكَمًا وهو الذى أنزَلَ إليكـم الكتاب مُفَصَّلا، والذين آتيناهم الـكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بـالحق فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وتَمَّتْ كلمةُ ربِّكَ صِدقًا وعدلاً لا مُبدل لكلـماته وهو السميعُ العليم﴾ [الأنعام: ١١٥] فقوله: ﴿صِدقا﴾ أى فى الإخبار ﴿وعَدْلا﴾ أى فى الأحكام ﴿أفحُكـم الجاهليـة يَبْغون ومَنْ أحســنُ من الله حُكْمًا لِقوم يوقـنون﴾ [المائدة: ٥٠].

-٥-

● **وأما المسألة الخامسة: التى هى أحـوال الاجتماع** فقد شَفَى فيها القرآن الغـليل، وأنار فيها الـسبيلَ فانظر إلـى ما يأمر الرئيـسَ الكَبيرَ أن يفعله مع مـجتمعه: ﴿واخفِضْ جـناحَك لمن اتَّبَعـكَ مِن المؤمـنين﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿فبـما رحمـة من الله لِنْتَ لـهم ولو كُنْتَ فـظا غلـيظَ الـقلبِ لا نـفضُّوا مِن حولِك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشَاورهُم فى الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] وانظر

إلى ما يأمر المجتمع العامَّ أن يفعله مع رؤساءه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعـوا الرسولَ وأولي الأمرِ مـنكم﴾ [النساء: ٥٩] وانظـر إلى مـا يأمُرُ الإنسانَ أن يفعله مع مجتمعه الخاص كأولاده وزوجته ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكُم وأهليكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ [التحريم: ٦] وانظر كيف ينبهه على الحذَر والحزمِ مـن مجتمـعه الخاص ويـأمره إن عثر عـلى مالا يـنبغى أن يـعفُوَ ويَصفَحَ، فيأمره أولا بالحزم والحذر، وثانيا بالعفو والصفح ﴿يا أيها الذين آمنـوا إن من أزواجكم وأولادكـم عدُوا لكم فـاحذروهم وإن تعـفوا وتصفـحوا وتغفِروا فإن الله غفور رحيم﴾ [التغابن: ١٤].

وانظر إلى ما يأمر أفراد المجتمع العام أن يتعاملوا به فيما بينهم ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كـثيراً من الظن إنَّ بعض الظنِّ إثم ولا تجسَّسُوا ولا يَغتبْ بعضُكم بعضا﴾ [الحجرات: ١٢] وقال تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قـومٍ عسى أن يكونوا خـيراً منهم ولا نسـاءٌ من نساءٍ عسى أن يـكُنَّ خيراً منهن ولا تَلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمان ومَنْ لم يَتُب فأولئك هم الظالمون﴾ [الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة: ٢] ﴿إنما المؤمـنون إخوة﴾ [الحجـرات: ١٠] ﴿وأمرُهم شورى بـينهم﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك.

ولما كـان المجتمعُ لا يَسْلَمُ فـرد من أفراده كـائنا من كـان مِنْ مُناوىء يناوئُه ومُعاد يعاديه مِنْ مجتمعه الإنسـى والجنى. ليس يخلو من ضد ولو حاول العزلةَ فى رأس الجبل. وكان كل فرد محتاجاً إلى علاج هذا الداء الذى عمت به البلوى، أوضح تعالى عـلاجه فى ثلاثة مواضعٍ من كتابه بين فـيها أن علاج مُنـاوأةِ الإنسى هو الإعـراض عن إساءتـه ومقُابلتـها بالإحسان وإن شيطان الجن لا علاج لدائه إلا الاستعاذة بالله من شره.

الموضعُ الأول: قولُه تعـالى فى أخريات الأعراف فـى الإنسى: ﴿خُذِ العفـوَ وأمُرْ بالعُرف وأعرِض عن الجـاهلين﴾ [الأعـراف: ١٩٩] وفى نظـيره من شياطين الجن: ﴿وإما يَنزغنَّك مِن الشـيطان نَزغ فاستعذ بالله إنه سمـيع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الموضع الثانى: فى سورة المـؤمنين قال فيـه فى الآية: ﴿ادفعْ بالتى هى أحسنُ السيئةَ نحنُ أعلَمُ بما يَصِفون﴾ [المؤمنون: ٩٦] وفى نظيره الآخر: ﴿وقل ربِّ أعوذُ بكَ مِن هَمزَاتِ الشياطِين وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يحضرون﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

الموضع الثالث: فى فصـلت، وقد زاد فيه تعـالى التصريـح بأن ذلك العلاج الـسماوى يقطـع ذلك الداء الشيـطانى. وزاد فيه أيـضا أن ذلك العلاج السماوى لا يُعْطى لكل النـاس بل لا يُعطاه إلا صاحبُ النصيب الأوفر والحظِّ الأكبر، قـال فيه فى الآية: ﴿ادفعْ بالتى هـى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولى حمـيم، وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَروا وما يلقاها إلا ذو حَظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال في نظيره الآخر: ﴿وإما ينزغنَّكَ من الشيطان نزغٌ فاستعذْ بالله إنه هو السميعُ العليم﴾ [فصلت: ٣٦] وبين في مواضع أخرى أن ذلك الرفق واللين لخصوص المسلمين دونَ الكافرين، قال: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يُحبهم ويُحبونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿محمد رسولُ الله والذين معه أشدَّاءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿يا أيها النبيُّ جاهد الكُفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم﴾ [التحريم: ٩] فالشدةُ في محل اللين حُمق وخَرَقٌ، واللينُ في محل الشدة ضعفٌ وخَوَرٌ:

إذا قيل حلم قل فللحلم موضع

وحلم الفتى في غير موضعه جهل

-٦-

● **وأما المسألة السادسة: التي هي مسألة الاقتصاد** فقد أوضح القرآن أصولها التي يَرجعُ إليها جميع الفروع، وذلك أن مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين:

الأول: حسن النظر في اكتساب المال.

الثاني: حسن النظر في صرفه في مصارفه.

فانظر كيف فتح الله في كتابه الطرق إلى اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدين، وأنار السبيل في ذلك قال: ﴿فإذا قُضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضلِ الله﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿وآخَرون يَضربون في الأرض يبتغون من فضلِ الله﴾ [المزمل: ٢٠] وقال: ﴿ليس عليكم

جُناحٌ أن تبتغُوا فضلاً مِن ربكم﴾ [البقر: ١٩٨].

وقال: ﴿إلا أن تكون تجارةً عن تـراضٍ منكم﴾ [النساء: ٢٩] وقال: ﴿وأحلَّ الله البيعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقال: ﴿فكلوا مما غنِمتم حلالاً طيبا﴾: [الأنفال: ٦٩] إلى غيـر ذلك وانظر كيف يـأمر بالاقتصاد فـى الصرف ﴿ولا تجعـل يدكَ مَغْلولةً إلى عنُقـك وَلا تَبسُطْها كلَّ البَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتروا وكان بين ذلكَ قواما﴾ [الفرقان: ٩٧] ﴿ويسألونك ماذا يُنفقُون قُلِ العفو﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]، وانظر كيف يَنْهَى عن الصرَّفِ فيما لا يحل الصرف فيه: ﴿فسيُنفقونها ثم تكونُ عليهم حَسرةً ثم يُغلَبون﴾ [الأنفال: ٣٦].

-٧-

وأما المسألـة السابعة: التي هى الـسياسة فقد بين القـرآن أصولها وأنار معالمها وأوضح طُرُقَهَا، وذلك أن السياســة التى هى مصدر ساس يسوس إذا دبَّر الأمور وأدار الشئون تنقسم إلى قسمين: خارجية وداخلية.

أما الخارجية: فمدارها على أصلين أحدهما: إعدادُ القوَّة الكافية لقمع العدو والقضـاء عليه، وقد قال تعالـى فى هذا الأصل: ﴿وأعدُّوا لهم ما استَطعتُم مِن قُوة ومِن رباطِ الخيلِ تُرهبون بهِ عدوَّ الله وعدوَّكُم﴾ [الأنفال: ٦٠].

الثانى: الوحدة الصـحيحة الشاملة حول تلك القـوة، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿واعتصموا بحبل الله جـميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿ولا تنازعوا فتفشـلوا وتذهب رِيحُكم﴾ [الأنفال: ٤٦] وقد أوضح الـقرآن ما يَتْبعُ ذلك من الصلح والهُدنة ونَبذِ العهود إذا اقتضى الأمر، قال: ﴿فأتموا إليهم عهـدهم إلى مُدتهم﴾ [التوبة: ٤] وقال: ﴿فما استقاموا لكـم فاستقيموا

لهم﴾ [التوبة: ٧] وقال: ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانةً فانْبِذ إليهم على سَواء﴾ الآية [الأنفال: ٥٨] وقال: ﴿وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنَّ الله برىء من المشركين ورسولُه﴾ [التوبة: ٣] وأمَرَ بالحذر والتحرز مِنْ مكائدهم وانتهازهم الفُرَصَ فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذُوا حِذركم﴾ الآية [النساء: ٧١] وقال: ﴿وليأخذوا حِذرَهم وأسلحتهم، ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم﴾ الآية [النساء: ١٠٢] ونحو ذلك من الآيات.

وأما السياسة الداخلية: فمسائلها راجعة إلى نشر الأمن والطمأنينة داخل المجتمع، وكفِّ المظالم وردِّ الحقوق إلى أهلها، والجواهر العظام التى عليها مدار السياسة الداخلية ستة:

الأول: الدين. وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه، ولذا قال ﷺ: «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه»، وفى ذلك ردع بالغ عن تبديل الدين وإضاعته.

الثانى: الأنفس. وقد شرَع الله فى القرآن القصَاصَ محافظة عليها ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ الآية [البقرة: ١٧٩] ﴿كُتِب عَلَيْكُم القِصَاصُ فى القَتْلى﴾ الآية [البقرة: ١٩٨] ﴿ومَن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لِوليِّه سُلطانا﴾ الآية [الإسراء: ٣٣].

الثالث: العقول. وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشَّيْطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفلحون﴾ [المائدة: ٩٠] وفى الحديث: «كُل مسكِر حرام، ما أسكر كثيرهُ فقليلهُ حرام» ولأجل المحافظة على العقول وجب الحد على شارب الخمر.

الرابع: الأنسابُ. وللمحافظة عليها شرَع الله حد الزنا ﴿الزانيةُ والزانى فاجلِدوا كُلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلدَةٍ﴾ الآية [النور: ٢].

الخامسة: الأعراض. ولأجل المحافظة عليها شرع الله جلد القاذف ثمانين: ﴿والذين يَرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداء فاجلِدوهم ثمانينَ جلدةً﴾ الآية [النور: ٤].

السادس: الأموال. ولأجل المحافظة عليها شرع الله قطع السارق ﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله﴾ الآية [المائدة: ٣٨]. فتبين أنه من الواضح أن اتباعَ القرآن كفيل للمجتمع بجميع مصالحه الداخلية والخارجية.

-٨-

● **وأما المسألة الثامنة التى هى تسليط الكفار على المسلمين** فقد استَشْكَلَها أصحابُ رسول الله ﷺ وهو موجود بين أظهرهم، وأفتى الله جل وعلا فيها بنفسه فى كتابه فَتْوى سماوِيَّة أزال بها ذلك الإشكال، وذلك أنه لما وقع بالمسلمين ما وقع يوم أحد استشكلوا ذلك، فقالوا: كيف يُدال منا المشركون ويُسلَّطوا علينا ونحن على الحق وهم على الباطل، فأفتاهم الله فى ذلك بقوله: ﴿أو لَمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثلَيْها قلتُم أنى هذا قل هو مِن عندِ أنفسِكم﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُل هو من عند أنفسكم﴾. أوضحه على التحقيق بقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعدَه إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فَشلتم وتنازَعتم فى الأمر وعصيتم مِنْ بَعد ما أراكم ما تُحبون، منكم من يُريدُ الدنيا ومنكم مَنْ يُريدُ الآخرة

ثُمَّ صرفَكم عنهم ليبتَلِيكُم﴾ [آل عمران: ١٥٢] فبين في هذه الفتوى السماوية أن سبب تسليط الكفار عليهم جاءهم من قِبَل أنفسهم وأنه هو فشلُهُم وتنازُعُهم في الأمر وعصيان بعضهم الرسول ورغبتهم في الدنيا، وذلك أن الرُّماة الذين كانوا بسفحِ الجبل يمنعون الكفار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم طمعوا في الغنيمة عند هزيمة المشركين في أوَّل الأمر، فتركوا أمر الرسول ﷺ لأجلِ رغبتهم في عَرَض من الدنيا يَنالونه.

-٩-

● **وأما المسألة التاسعة:** التي هي مسألة ضَعف المسلمين وقلَّة عَددهم بالنسبة إلى الكفار، فقد أوضح الله جل وعلا عِلاجَها في كتابه فبيَّن أنه إن علِم مِنْ قلوب عباده الإخلاصَ كما ينبغي كان من نتائج ذلك الإخلاص أن يَقْهَرُوا ويَغْلِبوا مَنْ هو أقوى منهم، ولذَا لَمَّا عَلم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص كما ينبغي ونوَّهَ بإخلاصهم في قوله: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذْ يُبايعونك تحتَ الشجرة فَعَلِمَ ما في قلوبهم﴾ [الفتح: ١٨] بين أن من نتائج ذلك الإخلاص أنه تعالى يَجعلُهم قادرين على ما لم يَقدِرُوا عليه قال: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاطَ الله بها﴾ [الفتح: ٢١] فصرَّح بأنهم غير قادرين عليها وأنه أحاط بها فأقدَرَهُم عليها وجعلها غنيمة لهم لما علم من إخلاصهم، ولذلك لما ضَرَبَ الكُفَّارُ على المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصارَ العسكرى العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتُلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً﴾ [الأحزاب: ١٠] كان علاج هذا الضعف والحصار

العسكرى الإخلاص لله وقوَّة الإيمـان به، قال تعالى: ﴿ولما رأى المؤمـنون الأحزابَ قالـوا هذا ما وعدنا الله ورسـولهُ، وصدق الله ورسولـهُ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فكان مـن نتائج ذلـك الإخلاص ما ذكره الله بـقوله: ﴿وردَّ الله الذيـن كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً، وأنزل الذين ظاهروهم مِنْ أهلِ الـكتابِ مِنْ صيَاصيهم وقذف فى قلوبهـمُ الرعبَ، فريقاً تَقتلونَ وتـأسرون فريقاً، وأورثكُم أرضَهـم وديارهم وأموالَهم وأرضًا لم تـطئوها وكان الله على كل شىء قديرا﴾ [الأحزاب: ٢٥، ٢٧].

وهذا الذى نصرهم الله به ما كانوا يظنونه، وهو الملائكة والريح: ﴿يا أيها الـذين آمنوا اذكروا نعـمة الله عليكم إذ جـاءتكم جنودٌ فأرسـلنا عليهـم ريحاً وجنودًا لم تَروْها﴾ الآية [الأحزاب: ٩].

ولأجل هذا كان من الأدلة على صحة دين الإسـلام أن الطائفة القليلة الضعيفة المتمسكة به تـغلبُ الكثيرة القَوية الكافرة ﴿كم من فئة قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩] ولذلك سمى تعالى يوم بدر آية وبينة وفرقانا لدلالته على صحة دين الإسلام قال: ﴿قد كانت لكم آية فى فئتين الـتقتا فئة تقاتل فى سبـيل الله وأخرى كافرة﴾ الآية [آل عمران: ١٣] وذلك يوم بدر. وقال تعالى: ﴿إن كنتم آمَنتم بالله وما أنزلـنا على عبدِنا يومَ الفرقان﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، وذلك يوم بدر، وقال: ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ الآية [الأنفال: ٤٢]. وذلك يوم بدر على ما حققه بعضهم. ولا شك أن غلبة الفئة القليلة الضعيفة المؤمنـة للكثيرة القوية الكافرة دليلٌ على أنها على الحق وأن الله هو الذى نصرها كما قال فى وقعة بدر: ﴿ولقد نصركم

الله ببدر وأنتم أذلة﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ الآية [الأنفال: ١٢] والمؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر، وبين الله تعالى صفاتهم وميزهم بها عن غيرهم قال: ﴿ولَيَنصُرنَّ الله مَن ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [الحج: ٤٠] ثم ميزهم عن غيرهم بصفاتهم فى قوله: ﴿الذين إن مكنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتُوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤١].

وهذا العلاج الذى أشرنا إليه أنه علاج للحصار العسكرى، أشار تعالى فى سورة المنافقين إلى أنه أيضًا علاج للحصار الاقتصادى، وذلك فى قوله: ﴿هم الذين يقولون لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله حتى يَنْفضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] وهذا الذى أراد المنافقون أن يفعلوه بالمسلمين هو عين الحصار الاقتصادى، وقد أشار تعالى إلى أن علاجَه قوةُ الإيمان به وصدقُ التوجُّه إليه جل وعلا بقوله: ﴿ولله خزائنُ السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ [المنافقون: ٧] لأن من بيده خزائن السموات والأرض لا يُضيعُ مُلْتجئًا إليه مطيعًا له: ﴿ومَنْ يَتق الله يَجعل له مَخْرجًا، ويَرزُقه من حيثُ لا يَحْتَسب ومَنْ يتوكلْ عَلَى الله فهو حَسْبه﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وبين ذلك أيضا بقوله:

﴿وإن خفتم عَيْلةً فسوف يُغنيكم الله من فضلِه إن شاء﴾ [التوبة: ٢٨].

-١-

● **وأما المسألة العاشرة: التى هى مشكلة اختلاف القلوب فقد بيَّن**

تعالى فى سورة الحشر أن سببها عدم العقل بقوله: ﴿تحسبهُم جميعًا وقلوبُهم شتى﴾ [الحشر: ١٤] ثم بين السبب بقوله: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر: ١٤]. ودواء ضعف العقل هو إنارته باتباع نور الوحى لأن الوحى يُرْشِدُ إلى المصالح التى تَقصُرُ عنها العقول، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كَمَن مَثَلُهُ فى الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام: ١٢٢] فبين فى هذه الآية أن نور الإيمان يحيا به من كان ميتا ويضىء له الطريق التى يمشى فيها وقال تعالى: ﴿الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿أفمَن يمشى مُكبا على وجهِهِ أهدى أمَّن يَمشى سويا على صراطٍ مستقيم﴾ [الملك: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة فالمصالح البشرية التى بها نظام الدنيا راجعة إلى ثلاثة أنواع:

١ـ الأول: دَرْءُ المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات. وحاصله دفع الضرر عن الستة التى ذكرنا قبل، أعنى: الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والعرض، والمال.

٢ـ الثانى: جلب المصالح المعروف عند أهل الأصول بالحاجات. ومن فروعه: البيوع على القول بذلك والإجارات وعامَّة المصالح المتَبَادَلة بين أفراد المجتمع على الوجه الشرعى.

٣ـ النوع الثالث: التحلى بمكارم الأخلاق والجرى على محاسن العادات المعروف عند أهل الأصول بالتحسينات والتتميمات ومن فروعه:

خصال الـفطرةِ كإعفـاء اللحية وقـص الشارب الخ. ومن فـروعه أيضًا تحريم المسـتقذرات ووجوب الإنـفاق على الأقـارب الفقراء. وكـل هذه المصالح لا يمكن شيء أشد مـحافظة عليها بالطرق الحكيمـة السليمة من دين الإسلام ﴿الر كتابٌ أحكِمت آياتهُ ثم فُصِّلت من لدُن حكيمٍ خبير﴾[هود: ١]

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁

الفهرس

